معالم الفكر العربي
في عصر النهضة العربية



تأليف
الدكتور منذر معاليقي

قدم له
الدكتور ياسين الأيوبي

دار اقرأ

هذا الكتاب

« ربما كان منذر معاليقي واحداً ممَّن اخترقوا الحُجُب ، وحطَّتْ به عيناهُ على واقعَيْ أمَّته المتصارعَيْن : في ساحةِ التاريخ ، من الخارج ؛ وفي دوَّامة أحاسيسه من الداخل . .

وربما تمكَّن في فصول كتابه الخمسة عشر ، أن يقول ما لم يقلْهُ غيرُه من المُعرقين في معاناة الكتابة والنَّشر . . .

إننا أمام كتابٍ لا يكتفي بتأريخ النهضة ، ومعالمها ، بل يدرسُها بعناية ، ويشرح مضامينها وبواعثها ، ومقوّماتها . . ويتخطَّى ذلك الى طرْح معايير نقدية يسبر فيها غور الاحداث التي رافقتْها ، ويُشكِّك في مُسَلَّماتٍ دأبْنا على الأخذِ بها ، وهي في الحقيقة ، إحدى علل الانحراف التاريخي في مسيرة النهضة » .

من مقدمة الكتاب



معالم الفكر الادبي
في عصر النهضة العربية

تأليف
الدكتور منذر معاليقي

معالم الفكر العربي
في عصر النهضة العربية

راجعه وقدَّم له
الدكتور ياسين الايوبي

دار إقرأ
بيروت ـ لبنان

الإهداء

الى المكـافحين بـالقلم والكلمة عن حيـاض الحريّـة ، وعـزة البـلاد ، وكـرامـة شعوبها .

الى المنادين بإحقاق العدالة والمساواة ، ومجابهة التخلف والعدوان .

إلى صانعي التاريخ ، ومدمّري الطاغوت ، وباعثي فجر النهضة الحديثة .

إلى اقلام هؤلاء جميعاً ، أهدي هذا السفر المتواضع .

منذر

كلمة المؤلِّف

ما زالت النهضة العربية المعاصرة في طور التكوين ، ومعالمها لم تتضح بعد ، وقسماتها لم تكشف عن رؤى مميّزة ، على الرغم من الكتابات الاوليّة التي شقّت طريقها ، وأخذت تبلور ملامح معينة ، وتبرز خصائص محددة .

وقد وقفنا في بداية الدراسة على اوضاع المنطقة العربية التي سبقت النهضة ، وبيّنّا أحداثها السياسية ـ حركاتها وانتفاضاتها ـ قبل الحملة الفرنسية على مصر ، متحرّين عوامل النهضة ومنطلقاتها المبدئية ، وبدا لنا أنّ دور مصر وسورية ولبنان تميَّز عن بقية الاقطار العربية لأسباب اصبحت الآن معروفة ، إنْ من جهة دفع النهضة بالتجهيزات والوسائل المنشِّطة ـ طباعة ، صحافة ، مدارس ـ أو من جهة كتّابها الذين سجّلوا بأقلامهم النيِّرة مختلف طروح العصر ، ومشكلاته الفكرية والادبية والانسانية ـ الوطن : مفهومه واتجاهاته ، القومية العربية والطوائف الدينية ، الاستشراق ، العلمانية ، واشكاليّة الدولة الاسلامية ، التي نأمل في دراسات قادمة أن نسلِّط الاضواء على كثير من موضوعاتها الحيوية ، التي شوّهتها وأصحابها ، دراساتٌ مشبوهة أو مبتورة ، اجتزأت النصوص وتعمَّدت الدس والمغالطة .

أملنا كبير أنّ الاقلام العربية التي شقت طريقها عبر الصعاب ، ستكشف خطل الادعاءات والمزاعم الواهية ، التي أُلصقت بكثير من كتّاب العرب ومواقفهم المبدئية ، وستعيد لهذه الامه نصاعة تراثها العريق ، الزاخر بالعطاء والمعرفة .

ونحن نقـدِّم هذه الـدراسة للمهتمـين بشؤون النهضـة وشجـونها لا نـدَّعي أننـا بلغنا غاية ، يجب الوقـوف عندهـا ، وانما نـرجو أن يكـون مؤلَّفُنا وسيلة لطلبة العلم والباحثين ، من أجل فهم قضايانا المشتركة ، مرحِّبين بكل إقتراح أو نقـد بناء يسـاعد على تقويم الافكار وإظهار الحقائق .

وطبيعي ان يلحظ القارىء الكريم نقصاً في بعض الموضوعات الادبيـة الهامـة ، وتكراراً في ذكر بعض الاحداث والأقوال . لكن هـذا النقص المستدرك ، سنعـالجه في دراسـة لاحقة بـإذنه تعـالى . أمَّا مـأخـذ التكـرار فيـرجـع الى كـون معـظم دراسـات الكتاب ، جاءت على شكل مقالات نُشرت في مجلّات البلاد العـربية وصحفهـا ، وقد أعدنا صياغتها في سياق موضوعي شبه موحّد ، وجمعناها في هذا الكتاب .

والله الموفق .

طرابلس في ١١ شعبان ١٤٠٦ هـ .

٢٠ نيسان ١٩٨٦ م .

منذر معاليقي

مقدّمة

بقلم الدكتور
ياسين الايوبي

كم هي معبِّرةٌ ، الاشياء . . عندما تتشابه في الظروف والمسبِّبات ، وتختلف في المنشأ والطبيعة ! .

فقد عرفت اوروبة نهضة شاملة في القرون الثلاثة التي تلتْ القرون الوسطى ، من القرن الثاني عشر الى مشارف القرن السادس عشر . . . تمثلت في نقل العلوم اليونانية وآدابها عبر المترجمين العرب واليهود الذين أتقنوا اللغات اليونانية والعربية واللاتينية ، كما نقلت علوم العرب من طب ورياضة ، وفلك ، وهندسة ، قام بها عدد من المترجين الاندلسيين والعرب ، وفي مقدمتهم رجل يدعى جرار من أهل « كريمونا » قادم من طليطلة ، وحنين بن اسحق ، يضاف اليهما « بيت الحكمة » الذي أنشأه الخليفة العباسي المأمون . . . [1]

وكان من نتيجة ذلك ظهور المدارس والجامعات ، والنظريات الفلسفية واللاهوتية ، وازدهار علوم الاخلاق والسياسة ، وعلم النفس وعلوم الطب والطاقة والرياضة الى جانب الآداب على انواعها وبخاصة آداب المسرح والقصص ، والملاحم . . . وشعّت اسماء دوّت أصداؤها في أرجاء اوروبة وسائر بلاد الغرب والشرق ، وفي طليعتها الشاعر الايطالي دانتي (١٢٦٥ - ١٣٢١) صاحب الكتابات الفلسفية والادبية ، متوجة بعمله العظيم « الكوميديا الالهية » الذي وصف بأنه

(١) راجع بتوسع « قصة الحضارة » لول ديورانت ، جزء ١٧ ص ١٥ - ٢٢ .

التعبير الحق لانسانية القرون الوسطى المسيحية » .

والاديب الايطالي جيوفاني بوكاشيو (١٣١٣ - ١٣٧٥) صاحب المجموعة القصصية الشهيرة « ديكاميرون » ، و فرنسيسكو بترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤) الشاعر والمؤرخ والأثري وصاحب الفضل الاكبر في احياء التراث اللاتيني وبعث النهضة الايطالية ؛ ولا يفوتنا اسم علم ايطالي آخر ، برز في مضمار الكتابة الادبية الملتزمة من خلال كتابه الشهير ، « الأمير » ، ألا وهو ماكيافيللي (١٤١٩ - ١٥١١)[١].

هذا في ايطاليا ، أما في ما تبقى من بلدان اوروبة فالأمر تأخر بعض الشيء لظروف هذه البلدان وبعدها او قربها من ايطاليا . . . وقد شاركت اسبانيا وفرنسا ، ايطاليا في صنع النهضة ، تلتهما انكلترا فألمانيا . . .

وهكذا . . في دورة زمانية فيها كثير من العبر والتأملات ، ذلك أن تصاعد المد النهضويّ في اوروبا كان يقابله هبوط تدرُّجي في نهضة الشرق العربي ، في مختلف الميادين والعقول . مع فارق جوهري هو أن سقوط الصرح الحضاري ، أو تصدّعه ، في المشرق العربي ، لم يقف عند نقطة زمانية محددة بل استغرقا قروناً عدة ، بدأت من منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، حتى اواسط القرن التاسع عشر . . . وهي مدة طويلة كان الغرب فيها يبني صروح حضارته بخطى حثيثة ، فيعتاض أضعاف ما مني به من جهل واستبداد وإقطاع في القرون الوسطى . .

أما النهضة العربية الحديثة ، فقد شهدت ظروفاً مشابهة للنهضة الاوروبية ، ولكن طبيعتها كانت مختلفة . .

فقد كان التحرر الديني ، أو تصحيح مسار السلوك الديني ، من اهم المسبّبات التي أدت الى النهضتين ؛ في أوروبة ، تحرر من سيطرة رجال الدين واقطاعية أحكامهم وتدخلاتهم . وفي المشرق ، تحرر من طقوس بالية وأفكار

---

(١) شرحنا ذلك بشيء من التوسع في كتابنا « مذاهب الأدب : معالم وانعكاسات » دار العلم للملايين ، طبع ٢ بيروت ١٩٨٤ ، ص ٢٠ .

ومعتقدات ساذجة لا اساس لها في اصل الدين وجوهره . . .

كانت النهضة الاوروبية شاملة ، وكذلك هي النهضة العربية ، التي تجلّت في التعليم والتأليف والسياسة والادب ، وبعض العلوم النظرية والتطبيقية باستثناء الفلسفة التي لم تعرف طريقها الى اعلام النهضة فظلت افكاراً وآراء متفرقة يطرحها المصلحون ورجالات الثورة في خطبهم ومقالاتهم ، ولم تَرْقَ الى المرتبة التي كانت عليها الفلسفة الاوروبية .

وقياساً على ذلك ، غابت عن ادبنا وفكرنا العربي الحديث ، مذاهب الأدب ونظريات السياسة والاقتصاد ، والتشريعات الحقوقية والادارية . . . الا فيما ندر ، لأن الكبوة طويلة والتخلف عميق الجذور في تربة الذات العربية ، وعندما تهيأت الظروف لابتداع المذاهب والنظريات كان المجتمع العربي بمعظمه يرزح تحت نير الاستبداد والتسلط ـ حيث القمع والكبت ومصادرة الحرّيات .

ويمكن القول بثقة وتأكيد ، إن مناخ الحرية الذي نعمت به اوروبا في القرون الثلاثة الاخيرة ، كان وراء ظهور معظم المذاهب الفكرية والفنية التي ظهرت تباعاً في هذا البلد او ذاك ، وشقت طريقها الى التطبيق والممارسة ما شاء لها ذلك ، المنظرون والممارسون ، حتى اذا رأوا ضرورة للتغيير ، او التطوير لم يتأخروا لحظة واحدة . . .

هذا المناخ الفكري والنفسي اللطيف ، شبْه معدوم في المشرق العربي ، وقد لا نكون اليوم احسن حالاً من رجالات النهضة العربية ، لأن المناخ السياسي الذي نعيش فيه ، ظاهرُه بحبوحةُ فكرية وتحرر فنّي ، وحقيقته استلاب وتشتّت وجمود ، أو ترقبٌ وتململ لا يؤديان الى شيء ملموس يحقق طموح المفكر والكاتب والمشرّع ، في التنظير السليم والمتكامل ، والنقد الجريء البنّاء ، والتشريع المطلوب .

ومن المفارقات الشاسعة بين النهضتين الاوروبية والعربية ، أنَّ الاولى أنجبت اعلاماً كباراً او نظريات فكرية كبرى درسها الغرب كله ومارسها ، وانتهت الى مجتمعات حرة راقية سعيدة . . . بينما اكتفت الثانية ، أو توقفت عند حدود الاعلام

الكبار ولم تؤدّ الى النظريات الفكرية العامة ولا الى المجتمعات الحرة الراقية . .

ومرد ذلك، كما اشرنا الى الحريـة ، التي يبدو لنـا أنها ستبقى غائبـة آجالاً طـويلة ما لم تتغير معطيات الـوجود العـربي الراهن ، وتتهيّـأ فرص جـديدة لنهضـة ، في قلب النهضـة ، ويتحول الـرفض الكلامي ، والنفسي ، الى رفض عقـلاني فعـلي ، تسطع آثاره في سماء الانسان العربي المعاصر . .

فـالنهضة التي تعتمـد على حركةالنائم وانتباهـه الحسّي من رقاده هي نهضة هشّة، يصـح معها مـا قالـه مطاع صفـدي : « إنمـا هي انحـطاط مقنّـع ببهـارج النهـوض ، فيصبـح النهوض عـلى طريقـة انبعاث لعـازر (خليل حـاوي) : جثةٌ مخضـرة عفنة ، ولكنها تمشي فوق الارض ، بدل أن يبقيها المسيح مستريحة تحتها »[1] .

إن النهضة التي نفهمها ليست شيئاً بعيداً عـما عناه المعجم العـربي ، حين شـرح معانيها المادية الحسية والمجازية . . حيث قال :

« النهوض » : البَراح من الموضع والقيام منه . . . وانتهض القوم وتناهضوا :

نهضوا للقتال . . وناهضته أي : قاومتُه . وأنْهَضَتِ الـريحُ السحـابَ : ساقتـه وحملته . والنهضة : الطاقة والقوةُ . . . الخ . »[2] .

وجـاء في المعجم ايضاً ، مـا يسمح لنـا بتصور المعـاني الفكريـة والوجـدانيـة ، للنهـوض : « النهضـة ،(بسكون الهـاء) : العَتَبـة من الارض ، تُبْهَـرُ فيهـا الـدابـة او الانسان يصعد فيها من غَمض »[3] .

مما يؤكد حـركيَّة النهـوض وفعليته في الاشيـاء ، سـواء عـلى الصعيـد الفكـري النفسي ام المـادّي . . . وفي كلا المعنييـن هناك انتقـال من حال الى حـال ، وتغيـير في الهيئة والموضع ،وانبهار في حواس المرء وطاقاته وقواه .

هذه هي معاني النهضة ، وهكذا يجب ان تكـون بصرف النـظر عن الكيفية التي

---

(١) من افتتاحية العدد ٣٧ (كانون الأول ١٩٨٥ وكانون الثاني ١٩٨٦) من مجلة : الفكر العربي المعاصر .

(٢) لسان العرب : نهض (دار بيروت مجلد ٧ / ٢٤٥) .

(٣) نفسه . ص ٢٤٦

تتم بهـا ، ثورة كـانت أم ردة فعل أم تـطوراً تاريخياً أم تأثراً واقتباساً. ولكننا نفضـل ان تكـون ثورة نـابعة من صميم حيـاتنا ومجتمعنـا وتقاليـدنا ، لأننـا لا نثق كثيـراً بـردات الفعل ، ولا يمكننا انتـظار التطور التـاريخي ولا مانـع من التأثـر والاقتداء ، شـرط أن يقوم ذلك على وعيٍ حقيقي لثـورات الشعوب ونهضـاتها وتفهُّم لأسبـابها وظـروفها ، فيؤخذ بالمبادىء والمنطلقـات ويعمل بمـا يتلاءم وطبيعـة أمتنا وأجيـالنا في جـدلية اخـذ وعطاء وتأريث وتحديث . أما ان تكـون النهضة زيّـاً يقلد تقليداً ، أو مشـروعاً يصـدر بقـرار سياسي او عسكـري . . . فإن ذلـك يذهب بـذهاب المقـرِّر ، ويتغـير مـع ذوق مصمم الازياء ، . . ونتوهم اننـا في عصر حضاريّ راقٍ ، وليس لنـا من الحضارة الا الاستهلاك المادي والتـأنق المظهـري ، حتى اذا عصفت بنا العـاصفة وأزفت الآزفـة ، وذاب جليـد الحضارة المـوهومـة . . . ظهرت عـورات تخلُّفنـا ، ونتـوءاتُ قصـورنـا ، وفجواتٌ ، وبرازخ تفصلنـا عن موكب الحضـارات الذي لا يتـوقف ولا يلتفت الى ما حوله . . وبعد .

فإن ما قـدمته حتى الآن ليس الا تـوطئة لمعـرفة مـا تضمنه الكتـاب الذي نحن بصدده ، وما اذا كان يشكل إجابة عما طرحناه في الصفحات السابقة .

وأبـادر الى القول ، بـأنه مـا من كتاب أو كتب بعينهـا ، يمكنها جـلاء الضبـاب الكثيف الجـاثم فـوق الجبـاه منـذ زمن طـويـل ، إن هي الا محـاولات اختـراقٍ واستكشافٍ يقوم بها بعض الاقلام النيِّرة التي أُعِدَّت لمثل هذه المهمـات ، فيخطفـون من زمـانهم لحظاتٍ ، يـطلّون فيها عـلى الضفاف ، فيـرون تـدافـع الامـواه وصبيب الزبد المتطاير من بعيد ، يتمتعون بـذلك قليـلاً ويمتّعوننـا ، ثم نعود الى حيث كنّـا ، يكسونا الضباب ويساورنا القلق والاضطراب . .

ربمـا كان منـذر معاليقي واحـداً ممن اخترقـوا الحجب ، وحطَّت بـه عينـاه عـلى واقعي أمَّته المتصارعَيْن : في ساحة التاريـخ ، من الخارج ؛ وفي دوامـة أحاسيسـه من الداخل . .

وربمـا تمكن في فصـول كتـابـه الخمسـة عشر ، ان يقـول مـا لم يقله غيـره من المُعرقين في معاناة الكتابة والنشر . . .

إن استعانتي « بربما » ليست الا من قبيل الابتعاد عن غلو الاطراء وهشاشة المجاملة ، اللذين لا يصلحان ههنا ولا يليق بنا استخدامهما في معرض الكتابة الموضوعية الرصينة . .

إننا أمام كتاب لا يكتفي بتأريخ النهضة ومعالمها ، بل يدرسها بعناية ، ويشرح مضامينها وبواعثها ، ومقوماتها . . ويتخطى ذلك الى طرح معايير نقدية يَسبرُ فيها غورَ الاحداث التي رافقتها ، ويشكك في مسلَّماتٍ دأبْنا على الاخذ بها ، وهي في الحقيقة ، احدى علل الانحراف التاريخي في مسيرة النهضة .

لهذا ، رأينا تسليط الاضواء على بعض ما في هذا الكتاب ، مُلْمِحين الى ابرز موضوعاته وشروحه ، وإشاراته ، متوخين التحريض على القراءة من جهة،وتقديم عيِّنات من العرض والدراسة ، من جهة ثانية . .

تناول المؤلف ثلاثة محاور ، تشكل المنافذ الرئيسة لموضوعة النهضة ، وهي :

١) عوامل النهضة .

٢) النهضة : والمعتقدات الفكرية الحديثة ، كالوطنية والقومية والحرية . .

٣) الاسلام والنهضة ، وتيارات الغرب الحديثة ، ولا سيما الاستشراق والعلمانية . . .

تضمَّن كل محور عدداً من الفصول ، يعرض كل واحد منها مسألةً أو ناحيةً من نواحي المحور العام ، وقد استهلك المحور الأول نصف الفصول ، لكثرة المسائل والمقومات التي تؤلف العناصر الاولية والاساسية التي قامت عليها النهضة العربية . .

ومما جاء في الفصل الأول من الكتاب : « النهضة العربية بواعثها ومنطلقاتها »

« أن الحملة الفرنسية لم تكن الا عاملاً منشطاً دفع بالنهضة قدماً وعجَّل في عملية الاصلاح والبناء ، وهي وإن كانت سبباً مباشراً لليقظة ، فإن الفترات السابقة هي بمثابة الارهاصات » رداً على من قال ويقول بأن حملة نابوليون هي السبب المباشر للنهضة العربية ص ٢٧

وجاء في الفصل الثاني كلام جدير بالتأمل والاعتبار، يتعلق بإسلام نابوليون والفرنسيين معاً . قال نابوليون ، مخاطباً المصريين :

● « قولوا للمفترين ، انني ما قدمت إليكم الاّ لأخلّص حقكم من يد الظالمين ، وإنني أكثر من المماليك ، اعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيّه والقرآن العظيم ص ٦٢

قولوا لائمتكم انَّ الفرنساوية هم ايضاً مسلمون مخلصون . . واثباتاً لذلك إنهم قد نزلوا في رومية الكبرى ، وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الاسلام ، (انظر : الحملة الفرنسية على مصر ص ٦٢

وفي الفصل الثاني نفسه ، أن نابوليون عاد عن هذه الادعاءات ، بعد ان تعكرت الاجواء وساءت علاقاته مع المصريين ، وانكشفت اراجيفه الواهية . . وخاصة بعد ثورة القاهرة التي دعا اليها المؤذنون والائمة ، فأقدم نابوليون على التنكيل بالثائرين ، وعاقب مشايخ البلاد وصادر ممتلكاتهم . وبلغ عدد ضحاياه يومذاك ألفين وخمسمائة ضحية (الحملة الفرنسية ص ٦٢

فتأمل وداعة المحتل في اول عهده بالاحتلال ، وشراسته بعد أن يستتب له الامر ويمسك جيداً بزمام الحكم !! . .

● وفي فصل آخر (المؤسسات التعليمية - او المدارس في مصر) إشارة مفيدة الى أيادي محمد علي الكبير ، حيث عهد الى الطبيب الفرنسي كلوت بك ، إدارة مدرسة الطب التي أنشأها عام ١٨٢٧ في أبي زعبل ، لتخريج الاطباء المصريين ، وقد حفظت النهضة له ولمدرسته أكبر الاثر في تقدم الامة ، والاجيال العلمية الطالعة على الرغم من اشكالات اللغة التي تستخدم المصطلحات الطبية الاجنبية ، .

● والقول نفسه ، عن مدرسة دار الالسن أو مدرسة الادارة والالسن ، التي خرَّجت حقوقيي مصر في العصر الحديث ، وفيها قال عبد الرحمن الرافعي : إن النهضة الادبية والسياسية مدينة لهذه المدرسة . . (المدارس في مصر)

● أما مدحت باشا (ابو الدستور) فقد شجَّع تأسيس الجمعيات وانشاء المدارس ، فبنى ثماني مدارس ابتدائية للذكور والاناث ، ودار صنائع ، ووضع

عقوبة لولي أمر الطفل ، اذا امتنع عن ارسال ابنه في سن السادسة الى المدرسة .

وكان هذا الوالي احد المجاهدين لبناء شخصية الانسان الحرة ، المستقلة والعادلة ، عندما الف في بغداد ، مجلساً للشورى ، لكي تمارس فيه الارادة الحرة ، ويؤخذ القرار المستقل في أمر الولاية .(المدارس في سوريا . . .) ص ١٠٢

وفي لبنان ، نهضت المدارس نهضة كبيرة ، في شتى الحقول والاختصاصات ، ومن هذه المدارس ، ما أقدم عليه الاجانب من انشاء مدارس للنساء ، وخاصة بعد حرب ١٨٦٠ المذهبية ، حيث فقدت النساء أزواجهن وآباءهن ، فأسسوا المدرسة الانكليزية التي أنشأتها المسز طمسون ١٨٦٠ والتي عرفت باسم « مسز موط » ، ومدرسة الانجيلية الاميركية للبنات ١٨٦١ ، وكان للطائفة الكاثوليكية السبق في تشييد مدارس البنات ، والتي أقامتها ١٨٤٥ تحت اسم راهبات مار يوسف (نفسه . .) ص ١١٠

وندخل الى المحور الثاني . فنقع على معانٍ ومعلومات ، غاية في الاهمية ، إن في الوطنية او في القومية ، او في العروبة والاسلام مما لا نطالعه ولا نعرفه كثيراً في أدب النهضة . . .

● قال مصطفى كامل معرّفاً الوطنية :

« إنَّ الوطنية هي اشرف الروابط للأفراد ، والأساس المتين الذي تُبنى عليه الدول القوية والممالك الشامخة . وكل ما ترونه في اوروبة من آثار العمران والمدنية ، ما هو الا ثمار الوطنية » . ص ١٦٠

ثم قال في خطبة القاها في الاسكندرية ١٩٠٠ : ص ١٦٠

« قد يظنُّ بعض الناس أنّ الدين ينافي الوطنية ، أو أنّ الدعوة الى الدين ليست من الوطنية في شيء . ولكنّي ارى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان ، وأنّ الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده ، يُحب وطنه حباً صادقاً ، ويفديه بروحه وما تملك يداه » (الوطنية : منطلقاتها وتياراتها في عصر النهضة) .

● ومن المعلومات المفاجئة ، ما عرض له المؤلف من حقيقة المشاعر التركية ، في عصر النهضة ، حيال العرب . . . وهي مشاعر تحقير لا حدود له ، وصلت بيعض المتعصبين من الاتراك ، الى نزع اسماء النبي والصحابة والائمة المسلمين ، من المساجد ، وتعليق اسماء ملوكهم وقوّادهم السفاحين ، كجنكيزخان ، وهولاكو وتيمورلنك ، وإرداف ذلك بكلمات (صلعم) و (رض) و (ع) الخ . . (القومية العربية والطوائف الدينية . . .) ص ١٧٩

● وكذلك ، طرحُهُ مسائل القومية والاسلام والعروبة ، بجرأة ودقة ، من غير التواء أو مداورة ، مما يؤكد اطّلاعه الواسع وقدرته على المناقشة والتحليل . . .

وأهمية البحث لا تكمن ههنا ، في نوعية المعالجة ، وحسب ، بل في تنويع الموضوعات والطروح ، كأسباب تأخر التيار القومي ، والجذور التاريخية للعروبة ، وعلاقة العروبة بالدين (الاسلام بخاصة) وبالعلمانية . . وأمور اخرى اتُّخذت جوانب هامة من العرض والتحليل . . . (القومية العربية والطوائف الدينية)

أما المحور الثالث ، فهو أكثر المحاور فائدة وإثارة ، لأن الكتابة فيه اتخذت منحى المواجهة والتقصّي النقدي الذي يقلب الصورة فيستقرىء ما وراءها . .

● ونبدأ بالفصل الاول : (الجامعة الاسلامية) فنجد المؤلف يدافع بحماسة عن رواد النهضة العربية ، ولا سيما مواقفهم الاسلامية التي اساء تفسيرها بعض النقاد والدارسين ، كما فعلوا مع جمال الدين الافغاني ، بسبب استخدامه سلاح « الجامعة الاسلامية » في معاركه ضد الاستعمار ، من دون أن يستوعبوا نظريته الكاملة، ويتفهموا الظروف التي أملت عليه مواقف سياسيّة محددة ، جعلته يقاتل الاستعمار أينما وجد .

« إن فكر الافغاني ومواقفه المبدئية ـ يقول المؤلف ـ تُغْنينا عن مختلف التفسيرات والتأويلات التي تحاول ان تحط من قدر هذا الثائر ، وتضعه في خانة السياسيين الانهزاميين الذين استغلوا هذه « الرابطة » لمآربهم الشخصية » ص ٢٧١

وقد لفت المؤلف الانظار الى التهم التي تلصق بكبار رجال النهضة الاسلامية ، وفي مقدمتهم الامام محمد عبده والسيد أحمد خان ، أحد قادة حركة الاصلاح المدنية والتعليمية في الهند ـ من خلال سلخ اقوالهم من سياقها الموضوعي والتاريخي ، من أجل تشويه مواقفهم واستغلالها ، فيقول :

« الحقيقة أنَّ هذين العلمين لم يهادنا الاستعمار . . . كل ما في الامر أن الامام عبده والسيد خان ، صاغا نظرية واقعية اخذت بعين الاعتبار ، واقع المحتل الانكليزي الجاثم ، على ارض الوطن ، فأقبلا على العلم وعملا على رفع مجتمعهما ، واصلاح أحوال العامة بالتربية الحديثة والعلوم الجديدة ؛ وتجنّبا السياسة ورأيا ضرورة مسالمة الانكليز والتفاهم معهم ، لا من باب الخضوع والاستسلام ، بل من باب أخذ ما يستطاع منهم ، تدريجياً لخير الشعب . حتى اذا نضجت الامة ، أمكنها الحصول على حقائقها كاملة » ٢١٧. ، ٢١٨

ويُضيف المؤلف ـ متحدثاً عن نزاهة هؤلاء الاعلام :

« إنَّه ، من غير الجائز ، لسعة علمهم ومبادئهم الانسانية والاصلاحية ، ان يقوموا بلعب أدوار مزدوجة ، وهم الحريصون على كلمة الحق ، وقضية حرية الانسان وتقدمه » (الجامعة الاسلامية : موقف ومضمون . .) ص ٢١٨

وننتقل الى الفصل الثاني ، فنجد المؤلف ، يعرض مواقف الامام محمد عبده وأقواله المشهورة ، ومن هذه الاقوال : تحديده لثوابت الاسلام التاريخية . وهي ثلاثة :

١ ـ ليس في الاسلام سلطة دينية . .

٢ ـ له فقط سلطة الموعظة والارشاد والدعوة الى الخير ، والنهي عن المنكر والاعمال الشريرة .

٣ ـ جاء الاسلام لتأكيد السلطة المدنية ، ومَنْع اي سلطان على عقيدة الانسان (إشكالية الدولة الاسلامية) ص ٢٣٣

● وفي الفصل نفسه ، تأكيد على مبدأ الشورى ، والاخذ بها والقول بالاشتراكية الاسلامية ، ذات النظام الاشتراكي القومي الديموقراطي ، الذي لا يفوقه نظام آخر لتحقيق العدالة بين الناس . .

ويطرح المؤلف فصلاً ثالثاً ، خاصاً « بالعلمانية والفكر الاسلامي » فيثير نقاطاً حسَّاسة ، ويوضح اموراً تعوَّدنا تقبُّلها والاخذ بها في محاوراتنا الاجتماعية ، فيظهر بطلانها من خلال معالجة هادئة ومواجهة الحقائق من غير مواربة أو تحيّز ؛ وهو في ذلك كله لا يتردد في ابداء آرائه التي يؤمن بها ويرى انها ضرورية لإزالة جانب التردد او الالتباس . .

● أما الفصل الذي حفل بالإثارة والاهتمام أكثر من غيره فهو الفصل الاخير ، وكان بعنوان : «الاستشراق وموقفه من العروبة والاسلام » .

وفيه موقفان مترابطان : موقف الشارح الموضوعي ، وموقف الناقد المصحّح . فقد صنَّف الاستشراق الى فئتين :

« الأولى طائفة اخلصت للحقائق العلمية والتاريخية ، من دون زوغ او هوى ، وهي ، مع قلة عدد عناصرها وضآلة نتاجها استطاعت ان تنصف شخصيات تاريخية بارزة ، وتنزِّه الدين الاسلامي وتاريخه على الخصوص ، من الافتراءات المردودة والمغالطات الضعيفة التي قصد منها تثبيط الهمم عند المؤيدين ، وإضعاف معتقدهم .

وكان على رأس هذه المجموعة المستشرق ليوبولد ڤايس المعروف باسم محمد اسد الذي أنصف الاسلام ورسوله ، وكتب بموضوعية عن منهجية الحكم الاسلامي ونظامه ، الذي هدف الى اقامة الدولة الدستورية المقيّدة التي تحمي المواطن وتصون الكرامة .

وكذلك المستشرق والمبشر ابراهيم خليل احمد الذي أكَّد - بعد ان هداه الله الى الاسلام - أنَّ التبشير والاستشراق دعامتان من دعائم الاستعمار ، وأنهما تقاسما الاعمال المقررة لغزو البلاد الاسلامية .

الثانية : طائفة ، تعمّدت الدسّ والتشويه ، وتقصّت الهنات والهفوات التي عرفتها المجتمعات الاسلامية في مختلف المراحل ، فضخّمتها ، مُحاولة ان تجعل من التفاصيل والجزئيات قضايا عامة » .

ويكشف المؤلف عن أمور هامة تفاجيء القارىء ، وربما تصدمه .. عندما يصف ما تتضمنه « دائرة المعارف الاسلامية » من معلومات ودوافع ، بالخطورة ، قائلاً :

«إنّ اخطر ما اتى به المستشرقون حتى الآن : إصدار دائرة المعارف الاسلامية » المترجمة الى عدة لغات ، ومصدر الخطر هو التحريف في النصوص الدينية والاحداث التاريخية التي توافقت مع رغبة المستشرقين وتصوراتهم الغربيّة ، والادهى في الامر ، أن هذه « الدائرة » كانت ولا تزال حجّة علمية ومرجعاً هاماً لكثير من الدارسين والمثقفين » (الاستشراق ومواقفه من العروبة والاسلام)- ص ٢٥٣

وهذا لا يعني الامتناع عن استخدام هذه الموسوعة ، بل الحذر والتحفظ مما تقدمه من معلومات وشروح لأن مرجعية هذا السفر الكبير لا تكمن فقط في المستشرقين ، بل في العشرات والمئات من المراجع والمصادر العربية منذ اقدم العصور حتى اليوم ..

ومهما يكن فإن المسائل التي يطرحها الدكتور معاليقي لا تكتسب اهميتها من المعلومات الجديدة او المفيدة التي تقدّمها بل من المنظار الذي تطرح منه والاطار الذي يحيط بها ... فالمنظار مراجعةٌ ونقدٌ وغربلة ، والاطارُ : الواقعُ السياسي والديني الذي تحياه العربية والاسلام في العصر الحديث .. وهو إطار يلفّه القلق والاضطراب .. فلئن لم يوفّق الكاتب في الوصول الى نتائج ثابتة وملموسة ، فحسبُهُ التنبيهُ والمراجعة ..

ولئن لم يؤت السّداد في كل ما رأى وانتهى اليه . فلأنّ الميدان واسع ، وعناصره متداخلة ومتشعبة ما بين سياسية واجتماعية وأدبية وفكرية وعمرانية ودينية وايديولوجية من كل الملل والاجناس .. وأنّى لكتاب صغير ومحدّد ، كهذا الكتاب

أن يقوم بهذه المهمة الدقيقة والشائكة . . .

وفي الختام ، لا يسعني إلّا أن أحيّي فيه روح العلم والتواضع ، التي تمتّع بها اثناء مراجعتي لفصول هذا الكتاب ، والعمل بالإقتراحات والتصويبات التي لقيت منه كلّ تجاوب .

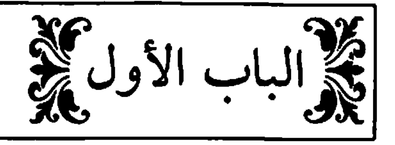
وهو إن دلَّ على شيء ، فعلى قابلية علمية راسخة ، قوامها الأخذ والإفادة من تجارب الآخرين ، تمهيداً لعطاء فكري مميَّز .

فالمجد لمن تابع الطريق ، وتجلْبب برداء التقوى ، وارتفع الى ينابيع العطاء !!

ولله الحمد أوّلاً وآخراً

ياسين الأيوبي

٨ رجب ١٤٠٦ هـ
١٨ آذار ١٩٨٦



عوامل النهضة

الفصـل الأول

النهضة العربية : بواعثها ومنطلقاتها

تحدّث كثير من مفكري النهضة العربية الحديثة وادبائها ، عن عوامل اليقظة والانبعاث الأدبي والسياسي ، وتناولوا مختلف موضوعات العصر الحديث ، لكنهم اختلفوا في تحديد بواعث النهضة ، وتعليل منطلقاتها .

رأى بعضهم ان النهضة وليدة الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ ، وما تبعها من اتصال الشرق العربي بالغرب الأوروبي ، وتعرف المصريين إلى حياة جديدة ، وثقافة جديدة . ومال آخرون الى انها ثمرة الإرهاصات الفكرية والتحركات الداخلية ، التي عرفتها مصر قبل هذه الحملة .

لكننا نعتقد ان هذه النهضة هي نتيجة لمختلف التفاعلات والمؤثرات الخارجية من جهة ، والتحولات الداخلية والاجتماعية والسياسية ، التي حدثت في مصر وبعض أقطار المشرق العربي خلال القرن التاسع عشر من جهة اخرى . فقد استاعت هذه التفاعلات على الرغم من مخاضها العسير ، أن تخلق تباشير حياة جديدة ، كان لها في مراحل لاحقة دورها في تنمية الوعي العام ، والانبعاث الشامل . ونحن اذ نميل الى هذا الرأي ، فلإيماننا بأن التاريخ حلقة متصلة ، وان النهضة تلزمها مراحل متعاقبة ، تكون في البدء ضعيفة ، ثم يصلب عودها ، فيحدث الاصلاح والتغيير .

واذا كانت اوروبة قد توّجت نهضتها ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر ،

بالقضاء على مقومات التخلف ، واستحدثت نظريات علمية ، أقامت سلطة العقل والمنطق . . فإن النهضة العربية الحديثة ، التي عرفت ما بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين ، قامت على إحياء اللغة العربية ، وبعث التراث العربي ، وادخال مفاهيم العصر الى المجتمعات العربية . . . بالإضافة إلى معارضة سياسة الحكام الأتراك الذين نالوا من حرية الشعوب العربية، وكَبْت اقلامها المتحررة .

لقد شقت النهضة طريقها وسط اشواك ومصاعب متنوعة ، واستطاعت بفعل دوافع تاريخية وبواعث انسانية ان ترى النور، وتحدث الاصلاح والتغيير ، في مختلف جوانب الحياة الدينية والثقافية والسياسية . وهذا التغيير لم يحدث بسبب اتصال الشرق وبالغرب ، اثر الحملة الفرنسية ، كما يرى معظم الباحثين ، وانما هو متأصل في واقع امتنا التي شهدت حركات اصلاحية وانتفاضات في شؤون الفكر والمجتمع . دليلنا على ذلك ، ان ما حدث في ريف مصر من التصدي لنظام الاقطاع القائم آنذاك، وهو ما سنعالجه بالتفصيل فيما بعد ، انما حدث قبل حملة نابليون بمدة تزيد على ثلاثين سنة .

واذا كان رواد النهضة بعد الحملة ، قد تأثروا بمفاهيم الحضارة الغربية ، وطالبوا بالاصلاحات الدينية والسياسية والاجتماعية ، فإن الانتفاضات الفلاحية التي عرفها ريف مصر وصعيدها ، جعل ابناء البلاد ، يعرفون هذه الاصلاحات مبكراً .

فعلى الصعيد السياسي ، إن طروح عبد الرحمن الكواكبي وأديب اسحق وبطرس البستاني الذين تحدثوا عن عن المفاهيم الديمقراطية ، وهاجموا السلطات الفردية والنزعات الاستبدادية ، وانكروا التعصب الديني والعرقي ، لم تكن بعيدة عن روحية الثورات المتلاحقة التي عرفتها مصر قبل الحملة ، واستطاعت ان تحقق حرية المواطن ولو الى فترة ، وتبني دولة ديمقراطية .

وعلى الصعيد الديني والاجتماعي ، لم تعدم البلاد رجالاً عملوا ـ قبل الحملة وبعدها ـ على تنقية الدين ومؤسساته التربوية من عقلية القرون الوسطى ، والعودة به الى صفائه . ومن هؤلاء محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ ـ ١٧٩٢) زعيم الحركة الوهابية ، الذي ظهر قبل الحملة ، واحدث اصلاحاً عاماً في المفاهيم الدينية . فكان هو وحركته « مصدر إلهام » للحركات والدعوات الاسلامية اللاحقة . واصبح

عمله لا يقل شأناً عن اخوانه رواد النهضة ، الذين تابعوا دعوته لصد الحملة ، بنظرة اشمل وفهم أنضج ، لمعتقدات الدين : عبادات وفروضاً : واكدوا ديناميكيته واستيعابه مختلف معطيات العصر .

ووهكذا يتبين ان الحملة الفرنسية لم تكن الا عاملاً منشطاً لحركة الوعي . دفع بالنهضة قدماً ، وعجّل في عملية الإصلاح والبناء . وهي وإن كانت سبباً مباشراً لليقظة ، فإن الفترات السابقة هي بمثابة الإرهاصات .

وفي هذا الكتاب ، سوف نطل على أهم الحركات السياسية والاجتماعية الممهدة للنهضة والتي عرفتها مصر قبل الحملة ، لنؤكد أن هذه النهضة العربية الحديثة ، هي بنت مختلف المراحل والحقب المتداخلة والمتشابكة .

أحداث ما قبل الحملة الفرنسية :

بعد زوال حكم السلاطين العثمانيين الأقوياء ، وتسلم السلطات من قبل رجال ضعفاء ، عرفوا بتغليب المنفعة الخاصة على المنفعة العامة ، شهدت المناطق المشرقية والعربية ، تمردات وانفجارات ضد ظلم ولاة الاتراك وحكامهم الذين ورثوا نفوذ الامبراطورية العثمانية على الشعوب ، وعرضوها الى التفكك والتجزئة .

وفي الواقع ، عرفت الأقطار العربية ، على مر العصور ، حركات وتمردات سياسية ، كادت تؤدي الى اصلاح عام في البلاد ، لولا غياب وسائل التغيير الاساسية ، وبخاصة الأداة التنفيذية . فقد حدثنا الجبرتي ـ قديماً ـ ولويس عوض ـ حديثاً ـ ان البلاد المصرية شهدت في المدة الأخيرة تحركاً فلاحياً ، لم ينقطع أواره . وبات نفوذ الحكم العثماني ، لا يتعدى المدن الكبيرة . ويمكن القول ، انه لم يبق ما يربط الدولة العثمانية بالمناطق الداخلية ، الا الرابطة الدينية والخراج السنوي[١] .

الثورة الهمامية :

تعتبر الحركة الهمامية وثورتها من اهم الحركات السياسية التي تفجرت في القرن الثامن عشر ضد الأقطاع . وكانت على رأس الحركات الاستقلالية التي

---

(١) ذوقان قرقوط : تطور الفكرة العربية في مصر ـ المؤسسة العربية للدراسات : بيروت ١٩٧٢ ص ٥٨ .

طالبت بسلطة الجمهور والديمقراطية. قامت في ريف مصر ، من عرب الهوارة والفلاحين المصريين ، بزعامة شيخ العرب شرف الدولة همام احد كبار الملتزمين الاقطاعيين ، قبل حملة نابليون الفرنسية بعقود ، وذلك بسبب امتناع ابناء الهوارة ، عن دفع الضرائب ، وسائر المكوس الاقطاعية . وقد توجت هذه الثورة باستقلال الصعيد ، وقيام حكم شبه جمهوري ، استطاع ان يلقي الترحيب والتأييد من مختلف ابناء البلاد ، وبخاصة بعد ان اقدم النظام الجديد على توزيع الأراضي على الفلاحين والفقراء .

احدث هذا العمل الجليل ، شرخاً كبيراً في نظام الامبراطورية ، حيث راح رعاياها من ترك وعرب ، يتطلعون بارتياح الى منجزات هذه الحركة التي اعادت الثقة والتفاهم الى ابنائها ، فتزوقوا طعم الحياة الجديدة ، بعد ان اثقلهم النظام البائد بمختلف اشكال الاضطهاد والاذلال . واصبح من الصعوبة ، مقارنة التحولات الجديدة التي افرزتها الثورة على مختلف الصعد ، بحالة البلاد ، زمن الحكم التركي ، الذي ارهقهم بأوامره التعسفية ، وضرائبه المتعددة ، التي استنزفت مواردهم ، وقضت على اقتصادهم ، وجعلتهم لقمة في أيدي أزلام الدولة ، ومنتفعيها من الحكام السياسيين . وقد ظلّ أبناء الصعيد لفترة طويلة ، يتحدثون باعجاب واحترام عن هذه الإنتفاضة ، التي أثنى عليها المهندس الفرنسي جيرار - أحد اعضاء الحملة الفرنسية - اثناء وصفه لحالة مصر السعيدة في عهد قائدها همام ، فقال : « لا يزال الأعيان والقضاة والسكان جميعاً ، سواء منهم المسلمون والمسيحيون ، يبجلون ذكراه ويتأسفون لإنتهاء عهد الشرطة ، التي اقامها والرعاية التي كان يوليها للأعمال العامة والزراعة ، حتى اصبحت زاهرة »[1].

وكثيراً ما تغنى عبد الرحمن الجبرتي بخصال هذا الأمير ومزاياه ، فرأى فيه « ملجأ الفقراء والأمراء ، ومحط رحال الفضلاء والكبراء . . ، وعظيم بلاد الصعيد . . . خيره وبره يعم القريب والبعيد »[2].

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٩ .

(٢) عبد الرحمن الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار في التراجم والاخبار . دار الجيل . بيروت . جـ١ ص ٣٨٤ .

وهذا ما جعل الدولة العثمانية تقلق من وجود هذه « الجمهورية » الفريدة من نوعها في ذلك العصر ، وتعمل جاهدة للتخلص منها والقضاء عليها . فألّبت عليها الأعداء ، ونجحت في مقاومتها ، واسقطتها بعيد سنوات اربع من نشوئها عام ١٧٦٩ ، بقيادة المملوك علي بك الكبير .

ومن يدرس غرض الانتفاضة الهمامية ، يرى ان هدفها الأساسي يقوم على سببين : وطني واجتماعي . وطني وذلك بانقاذ مصر من الحكم العثماني ، واقامة نظام جمهوري وديمقراطي ، مبني على تحالف العناصر الوطنية والمنتجة فيه : الفلاح والبدو المصري ، وازالة حكم الفئة المتسلطة من العثمانيين والمماليك ، الذين عاثوا فساداً ، واشاعوا الفقر والرشوة في البلاد . واجتماعي بتحقيق توازن اقتصادي بين الجميع ، وإقامة عدالة اجتماعية ، تتيح فرص العمل ، وتؤمن حياة مستقرة ، وعيشة سعيدة . وهي بالإضافة الى ذلك كانت مشعل هداية ، وتذكاراً تاريخياً لرجال النهضة ، الذين اتحفوها من خلال كتاباتهم المتنوعة ، بأبهى آيات التقدير . من هؤلاء رفاعة رافع الطهطاوي الذي نشأ في مركز تجربة هذا النظام « الجمهوري » ، والذي تعرف اثناء اقامته في فرنسا ، على نظريات وفلسفات متعددة ، إذ تحدث عن هذه الثورة ، اثناء تحليله لثورة لويس فيليب عام ١٨٣٠ ، على شارل العاشر ملك فرنسا ووريث اسرة البوربون ، وبيّن ميزات النظام الملكي والنظام الجمهوري ، ومدى الفوارق بينهما مؤكداً في الوقت نفسه ، وجود طائفة ، تفهم معنى الديمقراطية واهميتها في الحياة وتعمل جاهدة من اجل تقييد السلطة والمسؤولين في الحكومة ، بدستور جمهوري ، يحمي الرعايا من الغطرسة الفردية ، ويصونهم من الاستبداد : « لما كانت الرعية ، لا تصلح ان تكون حاكمة ومحكومة ، وجب ان توكل عنها من تختاره فيها للحكم . . . وهذا مثل مصر ، زمن حكم الهمامية ، حيث كانت امارة الصعيد ، جمهورية التزامية »[1] .

واذا لابس هذا النظام الجمهوري الجديد بعض الغموض ، في خطوطه السياسية العامة ، فهذا لا يقلل من شأنه لأنه قفزة نوعية في حياة الأمم ، ومرحلة

---

(١) الاعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي : دراسة وتحقيق محمد عمارة ، المؤسسة العربية ، بيروت ١٩٧٣ جـ ٢ ص ٢٠١

متقدمة على النظام الاقطاعي ، والملكية المطلقة ، وبخاصة بعد ان وصف الطهطاوي نفسه ، سياسة امارة الهوارة « بالجمهورية الالتزامية » وأوضح انها على اقل تقدير ، تعني مرحلة وسطاً بين الالتزام الاقطاعي والتوكيل الديمقراطي ، او بعبارة أدق ، جمهورية تحافظ على علاقات اقطاعية محدودة(١) ، وتعرف كيف تقيم سياستها على التوازن الدولي ، الذي تجلى ، من موقف امير الحركة همام ، عندما استفاد من النزاع الانلكيزي الفرنسي ، وتقرّب من السياسة الفرنسية ، من اجل تحرير بلاده ، من سلطة المماليك ، بعد ان اقدم كبير مماليكهم علي بك الكبير ، على توقيع معاهدة التعاون مع انكلترا .

لم تكن ثورة همام ، الوحيدة ، في هذه المرحلة ، فقد عرفت البلاد انتفاضات ومناوشات يومية ، وان كانت ضعيفة ، ولم تنجح في تحقيق ما أحرزته الثورة الهمامية بسبب الختل العثماني والمراوغة المملوكية من جهة ، وفقدان القيادة المسؤولة والبرنامج المنظم من جهة اخرى .

تناول مؤرخو هذه المرحلة ، وبخاصة فترة المملوكين ابراهيم بك ومراد بك ، مختلف اوضاع البلاد ، واسهبوا في الحديث عن الاضطرابات والتظاهرات المعارضة لسياسة البلاد ، ولولاتها الذين يقيمون حكمهم على القتل والتهديد ، والسلب . واشاروا بشكل خاص الى محاولات توحيد مصر وسورية ، على يد علي بك الكبير ، المعروف بسعة مطامعه وقوة طموحه ، والذي لمّا آنس من ضعف الولاة العثمانيين ، واطمأن الى قوته المتعاظمة ، أعلن استقلالية السلطة في مصر ، وامتنع عن دفع الخراج ، وجند في الوقت نفسه وللغاية نفسها ، جيشاً الى سورية والجزيرة العربية ، بقيادة صهره أبي الذهب(٢) ، الذي نادى فور دخوله مكة في تموز ١٧٧٠ بشريف من اتباعه عليها ، سرعان ما انعم هذا الاخير على سيده علي بك الكبير ، بلقب سلطان مصر وحاكم البحرين الأحمر والمتوسط .

هذه المحاولة لم تكن أوفر حظاً من ثورة همام ، حيث فشلت بسبب خيانة ابي الذهب ، الذي ما كاد يتم له فتح مدينة دمشق ، حتى انقلب على سيده علي بك ،

---

(١) د . لويس عوض : تاريخ الفكر المصري الحديث . دار الهلال مصر ١٩٦٩ ص ٣٣ .
(٢) دعي بهذه الكنية لأنه كان يعطي سائليه قطعاً من الذهب .

بالاتفاق مع الباب العالي ، وقتله في إحدى المعارك عام ١٧٧٣ . وبذلك قضى على اول محاولة جديّة كما يقول حسن صبحي في تاريخ مصر الحديث للتحرر من الدولة العثمانية[1] .

ولا ننسى الحركات الدينية ، وعلى رأسها الوهابية ، التي عرفت انتشاراً واسعاً في اكثر من بلد عربي ، وكادت تنجح في توحيد جزئي للأمة العربية ، في مناطق الجزيرة العربية كلها ، وبعض الأقطار الأخرى ، كسوريا والعراق ، لولا معارضة الدول الأجنبية ، وتدخلها لدى الدولة العثمانية ، التي تمكنت من القضاء عليها بقيادة محمد علي باشا وابنه ابراهيم عام ١٨١٨ .

وهكذا يتبين ان المنطقة العربية ، عرفت احداثاً وافكاراً اصلاحية ، قبل حملة بونابرت على مصر ، لو قدّر لها النجاح ، لاستطاعت ان تنهض بالبلاد ، وتنشر الوعي والتقدم . وهي في مختلف الظروف والاحوال ، بدايات وطنية وقومية ، وبشائر حسنة للتغيير السياسي والاجتماعي الذي عمّ المنطقة في فترة وجيزة ، وراح رواده يهزون اركان الاستبداد ، ويقضون على معالم الجبروت والاستعباد . وقد اعترف قنصل انكلترا في بغداد جان ريموند ، باثر هذه الحركات على ابناء الضاد عندما شبه محاولات توحيد اجزاء الأمة بأيام الفتح العربي الاسلامي : « ان روح الفتح استأثرت بقلوب الجماهير ، فراحت تستعيد ذكرى تاريخ العرب المجيد ، واخذت الأحلام تراودها برؤية امرائها متربعين على كرسي الحكم » . وهذا القول لم يخرج في روحه ومعناه عن تصريح احد الوهابيين : « لقد اقترب الوقت الذي سنرى فيه عربياً على عرش الخلافة » . وقد تلمس هذه الحقيقة الواقعة نابليون نفسه ، عندما اشار الى رغبة ولايات الدولة العثمانية ، من احداث التغيير . لكنه وهو العسكري والسياسي المغامر ، ربط هذا الواقع المتفجر ، بقدوم القائد البارع (اي هو) الذي يحقق الانطلاقة . وكأنه بهذا الكلام يمهد الطريق أمام حملته لغزو مصر والسيطرة عليها . هذا الكلام يدل على واقع المنطقة الذي اثبت ان العالم العربي كان قبل مجيء الحملة الفرنسية ، بمثابة بركان مكظوم يترقب رجل الأقدار

---

(١) د. حسن صبحي : اليقظة القومية الكبرى . مكتبة الجامعة العربية بيروت ١٩٦٦ ص ٢١ .

الـذي يفتح فـوهبته ، ليقـذف حمم السخط والثورة عـلى الحكـام والسيـاسـة الـظالمـة وبخـاصة بعـد ان أيّد مشـايخ الأزهـر الشريف لـواء المعارضـة ، وأفتى بعضهم بعدم اجـازة طـاعـة الـولاة المماليـك ، ومنـع تـوليهم السلطان عـلى النـاس لأنهم « عبيـد أرقّاء »(١) .

السلطنة والعرب :

اقـامت الدولـة العثمانيـة في البدء ، امبـراطوريتهـا الواسعـة الارجاء في شمـال غرب آسيا الصغـرى عام ١٢٩٩ بعيـداً عن البلاد العـربية ، التي ظلت في منـأى عن سيـطرتهـا مدّة قـرنـين من الـزمـان ، حتى اقتحم الجنـود الاتـراك ارض الشـام عـام ١٥١٦ ، ومصر عام ١٥١٧ بقيـادة السلطان سليم الأول ، الذي ـ بـانتهاء عهـد وليّه السلطان العـاسر سليمـان ـ يكون قـد انتهى عصر السلطنـة وعظمتهـا فضعفت قوتهـا وتـزعزعت مكـانتها في الأقـطار المفتوحـة ، وتقلص نفوذهـا ، وذلـك لأسبـاب كثيـرة أهمها :

اولا : ضعف شخصية السلاطين ، الذين انهمكوا في متع الـدنيا الشخصيـة ، وتركوا امور الدولـة وقضايـاها ، بـأيدي حكـام ضعاف ، همهم الاسـاسي ، الكسب والربح .

ثانياً : حالة البلاد العامة ، وما سـادها من فـوضى ، أدت الى اشاعـة الارهاب والأعمال الانتقامية وفقدان الأمن .

ثـالثاً : المنـافسات الحـادة بين أبنـاء الأسر الحـاكمة ، عـلى المنـاصب العليـا في الأمبـراطوريـة ، والصراع العـدائي والدموي بـين ابناء العـائلة المالكـة نفسها ، حيث اقدم الكثير منهم على اعتقال اخوتهم واضطهادهم وقتلهم .

وهـذا ما حـدث للسلطان محمد الثـالث بن مراد الثـالث ،الذي تجرأ على قتـل اخـوته التسعـة عشر ، دفعـة واحدة ، فـور جلوسه عـلى العرش(٢) . بـالإضـافـة الى

---

(١) د. ابراهيم علي ابو الخشب : تاريخ الادب الغربي في العصرالحاضر ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨ . ص ٥٧

(٢) محمد عزة دروزه : نشأة الحركة العربية الحديثة . المكتبة العصرية . بيـروت ١٩٧١ ص ١٦٣ .

الدسائس المتنوعة والإنقلابات العديدة ، التي كان وراءها غالباً زوجات السلاطين والحكام ، الأجنبيات ، اللواتي ضغطن على ازواجهن للقيام بعلاقات ومعاهدات مشبوهة مع بلادهن مكنت هذه البلدان من ان تفرض شروطها ، وان تتدخل في شؤون الدولة الداخلية وتحقق وجوداً هاماً، دعمته الإمتيازات الاجنبية التي جعلت الدول الأوروبية ـ تحت غطاء ديني ومذهبي ـ تتبنى بعض المجموعات الدينية ، فتعهد إليها ، باتباع قوانينها ومحاكمها . اي ، انه في حال ارتكاب احد رعايا هذه الدول ، جريمة ما ، لا يحق للسلطات العثمانية توقيفه ومحاكمته ، من دون موافقة مسبقة ، من قبل سفير بلاده او قنصلها المعتمد . ويصبح امر الإعتقال ، متعذراً ومستحيلاً ، اذا ما التجأ المذنب ، الى دار السفارة او القنصلية(١) .

ولعل هزائم الأتراك العسكرية المتكررة ، أوجبت ادخال اصلاحات الى داخل الامبراطورية ، وبخاصة في العهود الاخيرة من حياتها ، بعد أن تعاطى جنود الدولة ومرتزقتها الانكشارية ، الأمور السياسية ، ونفذوا ـ تبعاً لنزعاتهم السياسية واغراضهم الشخصية ـ جرائم الاعتقالات التعسفية والاغتيالات السياسية ، حيث بلغ عدد السلاطين العثمانيين الذين قتلوا بأيدي الجنود الانكشارية ، تسعة ، بالاضافة الى عشرات الوزراء ورجالات الدولة الذين لاقوا المصير نفسه .

إتّبع الأتراك نظماً تكفل استمرار تبعية الاقطار العربية للدولة العثمانية . فقسموا البلاد بين فئات متصارعة ومتنافسة ، حتى لا تستطيع الاستقلال بالحكم ، وكي تبقى تلتمس رضى السلطان العثماني ، وترفده باموال جمعت بوسائل الارهاب والضرائب المتنوعة ، فتوقفت المشاريع الإنمائية واغلقت اماكن التعليم ، واهملت الآداب والعلوم ، وجمدت حركة التأليف وقل الانتاج الشعري ، وعاث جنود الحاميات العثمانية في البلاد العربية فساداً ، فاضطرب الأمن وانتشرت الفوضى ، « وانحطت الحركة العلمية والأدبية في مصر ، واصبحت التركية لغة رسمية ، بعد أن كانت العربية « لغة الحكومة حتى مجيء الاتراك الى مصر » (٢) وبلغ الانحطاط مداه حين فتكت الأوبئة بأرواح الوف الناس التي كانت مثار فرح للوالي ، الذي كان يزيد

(١) المصدر نفسه ص ٢٠٦ .

(٢) د. حسن صبحي : اليقظة القومية الكبرى ص ١٩ .

دخله باستيلائه على تركات الموتى الذين لا ورثة لهم .

بداية الإصلاح :

اذا كانت الدولة العثمانية ، عرفت ضموراً وتقلصاً في قوتها ونفوذها ، بفعل وجود حكام ضعاف على رأس السلطة ، فإنها لم تعدم وجود سلاطين حاولوا تعزيز كيانها وادخال اصلاحات اساسية على مرافق الدولة . فمع بداية القرن الثامن عشر ، انبرى بعض المسؤولين في الدولة ، على اصلاح المؤسسة العسكرية التي تفاقم خطرها ، إثر همجية الانكشارية ، الممعنة في السطو على الأماكن العامة ونهب خيراتها .

ابتدأ العمل في اصلاح المؤسسة العسكرية ، في العقد الثالث من القرن الثامن عشر ، عندما شرع السلطان في استحداث قوانين تنظيمية جديدة ، تحدّ من جبروت الانكشارية وتقلّل من سلطتها . فقد رغب السلطان سليم الثالث ، في تحديث الهيكلية العسكرية ، وادخال الاصلاحات الأوروبية ، الى المؤسسة الحربية ، وبنيتها العسكرية ، وباشر في وضع لمساته الأولى في التغيير والبناء عام ١٧٩٢ وبخاصة عندما طلب من المهتمين بالأمر وضع تقارير مدروسة عن حاجات الاصلاح العسكري . غير ان محاولاته هذه ، باءت بالفشل ، لمعارضة المحافظين وتمرد الإنكشارية ، الذين ثاروا عليه في النهاية وخلعوه ، بعد ان استصدروا من شيخ الاسلام فتوى تحظّر على السلطان تبني انظمة الفرنجة وعاداتهم ، واعتبار من يخل بذلك ، غير جدير بالملك[1] .

لكن هذه المحاولات لم تذهب سدى ، اذ سرعان ما استفاد المصلحون منها ، فعملوا على انضاج الظروف واستيعاب المرحلة ، كي لا يكونوا مغامرين ، فيفشلوا . ويعد السلطان محمود الثاني ، اول من فتح باب الاصلاحات الحديثة وانجازاتها التمدنية .

ففي عهده ، قامت اولى محاولات تشييد النظم الأوروبية ، لا على الصعيد

---

(١) د. اسامة عانوتي : الحركة الادبية في بلاد الشام المكتبة الشرقية ، بيروت ١٩٧١ ص ٦ .

العسكري فحسب ، بل على مختلف الصعد ، الدينية منها والمدنية والادارية والتربوية واستطاع بفضل التفاف أبناء الامبراطورية حول فكرة الاصلاح أن يحلّ « الانكشارية » ويستبدلها بقوات نظامية عام ١٨٢٦ ، بعد أن قضى على رؤوس زعمائها ، من دون ان ترتفع اصوات الاحتجاج ، المدافعة عنهم ، ويعود السبب في ذلك ، الى عجز هذه القوات الانكشارية ، عن قمع ثورة اليونان الاستقلالية والقومية عام ١٨٢١ ، والى المضايقات والارتباكات التي سببتها لها الحرب الخاسرة ضد روسيا .

وقد ذكر الاستاذ ساطع الحصري ، الذي علل أسباب البدء باصلاح شؤون المؤسسة العسكرية قبل غيرها من انظمة الدولة المالية والقضائية والإدارية ، الى عاملين اساسين ، وهي :

اولاً : ان الدولة العثمانية ، كانت منذ نشأتها دولة عسكرية ، وأن عزتها المكتسبة من وراء الفتح ، يوم كانت قوية ، تعود في الدرجة الاولى الى هذه المؤسسة .

ثانياً : ان تفوق اوروبة في المرحلة الاخيرة ، يرجع الى انظمتها الحديثة التي ادخلتها على اجهزة الدولة ، وعلى الخصوص البنية العسكرية التي ظهر تفوقها في معارك العثمانيين ، الذين انزلت بهم خسائر فادحة وهزائم متكررة[1] .

الخطوط الهمايونية (خط شريف كولخانة وهمايوني) .

إن اصلاح المؤسسة العسكرية ، لم يغير من واقع الدولة العليّة ، التي بدأت في الهبوط نتيجة الأنظمة الخاطئة والقوانين الجائرة ، التي بدأ تنفيذها في ظل السلاطين الضعاف والحكام الظالمين ، بل زاد الأمر سوءاً انتشار المفاهيم الجديدة ، القائمة على التمييز العنصري ، والنعرات الوطنية والطائفية ، التي اخذ الفكر الغربي الحديث ينميها ، في صفوف الناشئة من المثقفين العثمانيين . الأمر الذي اوجب استحداث قوانين اصلاحية ، ترضي من جهة المثقفين الجدد ، الذين تبوأوا مراكز هامة في الدولة وتعطي من جهة اخرى للرعايا العثمانيين بعض الحقوق المدنية . وقد حدث هذا بفعل رغبة السلطان العثماني عبد المجيد في وضع حد للتسيُّب

(١) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٦٠ .

العسكري ولجميع قطاعات الدولة . فأصدر في عام ١٨٣٩ مرسوم خط شريف كولخانة[1] ، الذي ضمنه تقريراً لحماية الحرية ، والعدالة ، بين مختلف اجناس الدولة ومللها ، وصيانة اموال الناس واعراضهم وارواحهم ، وإلغاء الامتيازات كافة ، واعتبار الجميع ، من دون تمييز سواسية امام القانون والدولة . وقد تضمن المرسوم ايضاً ، نقاطاً اصلاحية اخرى ، اهتمت بالشؤون الادارية والقضائية والمالية والعسكرية .

ويبدو ان هدف السلطان والنخبة المثقفة من هذا المرسوم ، هو حماية الامبراطورية ، من الإضمحلال ، واستعادة السيطرة المركزية على الولايات المستقلة ، التي تمتعت مؤخراً بحكم شبه ذاتي ، بعد ان كثرت التمردات الداخلية والضغوط الخارجية . وما قرار كولخانة ، ونصوصه الاصلاحية ، إلا تأكيد لحالة المجتمع العثماني وتخلفه ، الذي بات يتطلب الإسراع في اتخاذ اجراءات الانقاذ ، تلبية للحياة الجديدة ، والحاجات الإنمائية الحديثة . لكن المؤسف ، ان معظم بنود هذا المرسوم وقوانينه ، ظلت مجمدة ، ومحجوراً عليها في أقبية القصور وادراجها المظلمة ، حتى صدور خط سلطاني آخر ، عام ١٨٥٦ ، عرف باسم خط شريف همايوني ، حيث ثبت مشروعية القرار الأول وانجازاته القليلة ، واعلن من جديد في نصوص وبنود واضحة ، ان سياسة الدولة العامة وتوجهاتها الرئيسة ، ستكون بعيدة عن التفرقة الجنسية ، والتمايز الاجتماعي ، حيث يتساوى الرعايا في التوظيف والتعيين ، وامام مختلف القوانين التشريعية والقضائية .

هذه السياسة الجديدة واصلاحاتها الواسعة ، تركت آثاراً ايجابية عميقة ، في نفوس العثمانيين ، المتعطشين لمفاهيم الحرية والمساواة ، التي دخلت البلاد ، وغزت عقول الشباب ، الذين أيدوا بنود حقوق الإنسان ، ودعموا توجهات كبار الساسة المتنورين ، دعاة الانفتاح على حضارة الغرب الجديدة ومستحدثاته العلمية الحديثة .

ولهذا اضحت فكرة الإصلاح امراً واقعاً ، عني به ادباء النهضة ومفكروها ، الذين نشطوا ـ كل في اختصاصه ـ يبغون تقدم بلادهم ، ورفعها إلى مستوى البلدان

---

(١) نص المرسوم في كتاب تاريخ الدولة العلية العثمانية ، محمد فريد بك المحامي . دار الجيل . بيروت . ١٩٧٧ ص ٢٥٤ . وسمي بهذا الاسم لأنه قرىء في حفل رسمي في قصر الكالخونة .

المتمدنة . فالجيل الأول من المصلحين ، امثال رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي ، رأى وجوب إصلاح الدولة ، وتكيف الشريعة الإسلامية مع الظروف الجديدة ، خاصة وان مبادىء الإسلام واحكامه ، لا تتنافى مع علوم الغرب الحديثة ومكتشفاته العمرانية . وقد بيّن التونسي في كتابه :«اقوم المسالك في احوال الممالك » ، ان انحطاط الدولة العثمانية وتأخرها ، يعودان الى فساد الحاكم وجهله بالأمور الدينية والقضايا الإنسانية . فطالب بالانفتاح على تقدمية العصر ومواكبة معارفه الحضارية ، وأيّد مدنية اوروبة الحديثة ، وأهمية الاقتباس من تنظيماتها العقلانية . والطهطاوي الذي أيد ايضاً سياسة الانفتاح على المجتمعات الغربية المتطورة ، سفّه دعاة العزلة ، واصحاب النزعات السلفية ، التي تضع الدين في زوايا ضيقة ، وترفض مجاراة العصر . وأشار الى اهمية اتصال الشرق النائم بالغرب الناهض ، وقال في معرض حديثه عن المنافع التي تجلبها الدولة العليّة من تقدم الغرب : « ان مخالطة الأغراب ، لا سيما اذا كانوا من أولي الألباب ، تجلب للأوطان المنافع العمومية . . . والبلاد الافرنجية مشحونة بأنواع المعارف والآداب التي لا ينكر الإنسان انها تجلب الأنس وتزين العمران . . . »[1] .

هذه الإشاعات المتقدمة ، عارضتها الفئات الرجعية ، فعمدت الى اغراق البلاد بفتن ومجازر كي تخمد الوعي المتنامي ، وتضرب اهدافه الشريفة ، لكن بذور الإصلاح ، والإرادة القوية التي اظهرها رواد النهضة في التغيير ، عملت على إضعاف هذه الأصوات الناشزة واستطاعت ان تواصل نهجها في بناء مجتمع الإنسان والتقدم ، المتحرر من الظلم والاستبداد . خاصة بعد ان اتخذ ادباء النهضة وكتابها ، من مقالاتهم الأدبية والسياسية ، منبراً للتعبير عن هموم الشعب وقضاياه الحقوقية ، وانتصروا لنهضة البلاد ، والتحرر من أشكال التعسف والتخلف كافة ، اذ لا يجوز للأمة العربية كما يقول الكواكبي : « ان تظل محكومة في عصر انبثقت فيه الحريات ، وشعّت اضواؤها على العالم »[2] .

---

(١) الاعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي . دراسة وتحقيق محمد عمارة ، المؤسسة العربية ، بيروت ١٩٧٣ جـ ١ ص ٩١ .

(٢) سامي الكيالي : الادب العربي المعاصر في سورية دار المعارف . مصر ١٩٦٨.ص ١١٩ .

المصلحون العرب والدستور العثماني :

مع تباشير النهضة ، وتغلغل الأفكار التحررية والديمقراطية الى داخل الأراضي العثمانية ، اخذ الشباب المثقف - اتراك وعرب - المتأثرون بثقافة الغرب وحياته الجديدة ، يدعون إلى مجاراته في نهجه ، وإقامة القاعدة الدستورية التي تصون البلاد والرعايا من التفتت والاستبداد . وخير من عبّر عن هذه الحالة احد زملاء مدحت باشا ، في حديثه عن هؤلاء الشباب الميّالين الى الغرب عندما قال : « انه اذا لم تسر تركيا منذ الآن ، بجد وإخلاص ، على طريق الإصلاح وتقبل المدنيّة الأوروبية بكاملها ، لن تحرر نفسها ابداً من التدخل الأوروبي والوصاية الأوروبية وستفقد هيبتها وحقوقها ، وحتى استقلالها »[1] .

وبالفعل فقد شهدت البلاد العثمانية في منتصف الستينات من القرن التاسع عشر ، حركة اصلاحية ، عرفت باسم « الشباب العثماني » أو « العثمانيون الجدد » . في الأستانة أولاً ثم في باريس ثانياً بعد أن فشل اعضاؤها في حركتهم الانقلابية عام ١٨٧٦ . ويبدو ان هدف الحركة التي انضوى تحت لوائها عناصر مدنية وعسكرية ، تحويل الأمبراطورية ، الى ملكية عثمانية دستورية ، تلغي الحكم المطلق وتضع ضوابط دستورية ، عملاً بروحية الثورة الفرنسية ، التي كان مفكروها في البداية من مونتسكيو إلى فولتير ، لا يرغبون في الغاء الملكية من فرنسا ، بل يودون تقييدها بشروط دستورية محددة . ولذلك طالبت هذه الحركة بصهر الأمم والشعوب في وحدة عثمانية متكافئة ، والقضاء على الحركات الإقليمية ، ونزعاتها الوطنية ، واستصدار قوانين جديدة ، تتلاءم مع حاجات البلاد ، وتطلعات ابنائها . وقد تزعّم هذه الحركة مدحت باشا ، المعروف بـ « أبي الأحرار » ، الذي على الرغم من قرار عزله ، من قبل الباب العالي ، المعارض لخطواته الإصلاحية ، الإدارية والاجتماعية والاقتصادية ، التي احدثها خلال مدة حكمه في بغداد ١٨٦٩ - ١٨٧٢ ، فقد بقي اثره محموداً عند الفئة ، المثقفة التي رأت في تشجيعه للمكتشفات الغربية وحركتها العلمية ، تحرراً لها من اوهامها القديمة ، وقوانينها

---

(١) دزموند ستيوارت : تاريخ الشرق الاوسط الحديث . نقله الى العربية زهدي جار الله ، دار النهار ١٩٧٤ ص ١٢٤ .

الجائرة . ولذلك فقد دعمت موقفه ، وبخاصة حين شـدد على اهمية تربية الناشئة ، على استقلالية الفكر ، وتدريبها على الحرية الشخصية ، محذراً من عوامل الشقاق والفتنة بين الأجناس والأديان[1] . وقد تمكنت هذه الفئة ، بتأييد من مدحت باشا ، المدعوم من اوروبة ، ان تقوم بانقلابها عام ١٨٧٦ على السلطان عبد العزيز ، الذي وجد ميتاً بعد تبلغه خبر الانقلاب بوقت قصير ، وتنصّب اخاه مراد الخامس ـ العصبي والسكير خلفاً له ـ سرعان ما أقيل بعد ثلاثة أشهر ، وتضع مكانه السلطان عبد الحميد الثاني ، بعد ان قبل مرغماً باقامة الدستور ، والعمل بنصوصه التشريعية التي استلهمت فقرات بنوده من الدساتير الأوروبية ، وعلى الخصوص من الدستور البلجيكي ، والتي اعطت الرعايا العثمانيين حقوقاً وواجبات متساوية ، في المناصب الرسمية والوظائف الإدارية من دون تمييز . والواقع ان السلطان عبد الحميد أفاد من تطبيق الدستور خلال فترة وجيزة . فعزّز مركزه ، ووحّد القوى المعارضة له من حوله ، فأقدم في ١٣ شباط ١٨٧٨ على تعطيل الدستور إلى اجل غير مسمى ، بعد أن أعفى ، قبل ذلك بسنة ، مدحت باشا من منصبه ، وعينه والياً في دمشق فبغداد ، قبل أن يغتاله في ١٨٨٣ ، ويتخلص من الديمقراطيين المناوئين لسياسته الفردية ، ظناً منه « ان الشعوب التي وضعها الله تحت جلالته ، لا يمكن تسييرها الا بالقوة »[2] واقام على رأس الدولة مجلسين : « مجلس الأعيان او مجلس الشيوخ » ، وهو يتعلق بالسلطان نفسه ، الذي يعين اعضاءه ، « ومجلس المبعوثان » او مجلس النواب الذي ينتخب اعضاؤه مباشرة من قبل الشعب[3] . ويلاحظ ان البلاد الشامية ، عرفت اول برلمان لها عام ١٨٧٧ ، وكان من اعضائه خالد الأتاسي عن حمص ، وحسين بيهم ونقولا نقاش عن بيروت ، ونوفل نوفل عن طرابلس الشام ، والامير أمين أرسلان عن جبل لبنان .

موقف المصلحين من تعليق الدستور :

لم تدم فرحة الشعب باعلان الدستور ، طويلاً ، اذ سرعان ما عطله السلطان

---

(١) جرجي زيدان : الانقلاب العثماني . المكتبة الادبية ، بيروت ص ١٢٨ .

(٢) انيس المقدسي : الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ـ دار العلم للملايين . بيروت ١٩٧٧ ص ٢٩ .

(٣) د. منير موسى : الفكر العربي في العصر الحديث ـ دار الحقيقة بيروت ١٩٧٣ ص ١٦ .

عبد الحميد ، واقام بدلاً عنه ، نظاماً بوليسياً عرف باسم « الظلم »[1] ، وباتت العيشة في ظله مريرة ، حيث انتعشت الجاسوسية ، وكثرت الوشايات والدسائس والإجراءات القمعية ، وصارت المناصب الكبيرة ، محصورة ببطانة الحكام ، من الأزلام والمحاسيب . بالإضافة الى الفساد المستشري واعمال البطش والقمع التي لحقت بدعاة الإصلاح السياسي ، فاجبرت بعضهم على الهرب من البلاد ، بينما ألف البعض الآخر جمعيات دعت إلى ازالة الإستبداد ، واقامة حياة دستورية . وقد صوّر هذه الحالة المأساوية ، المستشرق البلجيكي هنري لامنس (١٨٦٢ ـ ١٩٣٧) فقال : « لقد جثمت سنوات حكم عبد الحميد الثلاثين ، على صدر سورية ككابوس ، وكانت البلاد قد سحقتها الضرائب ، وعانت من جور السلطان وموظفيه . . . وقد اضعفتها الخصومات الداخلية الناشئة عن دسائس السلطات »[2] . وكان فرح انطون ، خير معبّر عن حالة القلق التي كان يعيشها رجال الفكر والثقافة ، عندما قال ، انه بعد انتهائه من مطالعة كتاب الثورة الفرنسية مثلاً ، كان يعمد الى طمر الكتاب في الحديقة ، خشية حدوث تفتيش مفاجيء ، من جانب عملاء الحكومة[3] . وكذلك فعل جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣ ـ ١٩٣٦) حينما تحدث عن سياسة عبد الحميد ، التي أفرزت نفثات شعرية شاكية ، ندّدت بالظلم ، ودعت الى اليقظة . كقوله :

« إن الرعية اغنام يجدُّ لهم ولاتُك المستبدون السكاكينا »
« يا عدل إن التفاتاً منك يسعدنا يا عدلُ إن ابتساماً منك يكفينا »
« ما جاءنا الشرُّ إلا من تهاوننا وضامنا الظلم إلا من تغاضينا »[4]

أما معروف الرصافي (١٨٧٧ ـ ١٩٤٥) ، وهو من ألمع شواهد العصر ، فقد أطل بشعره السياسي على مظالم الحكومة الحميدية ، فوصفها بالدولة الهمجية المستبدة ، التي تخضع الفكر الحر ، وتصادر التراث العربي ، وهو ما تعبر عنه الأبيات التالية :

(١ ـ ٢) ز. ك . لينين : الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث . ترجمة بشير السباعي . دار ابن خلدون . ١٩٧٨ ص ١٤١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٢٠ .

(٤) محمد عزة دروزة: نشأة الحركة العربية الحديثة ، ص ١٧٠ .

« عجبتُ لقوم يخضعون لدولة يسوسهم بالموبقات عميدها
وأعجب من ذا انهم يرهبونها واموالها منهم ومنهم جنودها . . .
وصارتْ لئام الناس تعلو كرامها وعاب «لبيداً» في النشيد بليدها
فما انت إلا ايها الموت نعمة يعزّ على أهل الحفاظ جحودها »[1]

وهناك مأثورات شعرية كثيرة ، قالها شعراء قاسوا من ظلم عبد الحميد ، فدعوا العرب الى التنديد به والانقضاض عليه ، منهم سليم سركيس (١٨٦٧ ـ ١٩٢٦) ، الذي غالى في موقفه المتعصب ضده ، فرفض المراهنة على صلاح الدولة العثمانية ، واعتقد ان العجب في بقائها :

« نرجو صلاح الترك قد خابتْ امانينا الكواذبْ
هي دولة ظلمت وليس العدل عن ظلم بذاهبْ
فانشد معي قولاً تُردّ دُهُ المشارق والمغارب
ليس العجيبة فقدها بل عيشها احدى العجائب »[2]

وفي موضع آخر ، وبسبب تهجمه العنيف على الدولة العثمانية ، تعرض في مقالته « هل مصر عثمانية » لشعب مصر وعزته ، مبيناً انه لم ير أمة ، « تريد الانتقال من نور الاستقلال الى ظلمات العبودية إلا هذا القسم من الأمة المصرية الذين يريدون التمسك بأذيال العرش العثماني »[3] .

ونسمع نجيب حداد (١٨٦٧ ـ ١٨٩٩) الذي صور أحوال البلاد السيئة في ظل الحكم الاستبدادي الحميدي يقول :

« آن الأوانُ لأن اخاطر بالدم من لم يخاطر بالدما لم يسلم
أجزيرة العرب التي احببتها كم من اكفّ قد رمتك باسهم
لعبت اكف الترك فيك فغادروا في كل قطر منك نهراً من دم

---

(١) معروف الرصافي : حياته وشعره . تأليف قاسم الخطاط ومصطفى عبد اللطيف السحرتي، ومحمد عبد المنعم خفاجي . الهيئة المصرية العامة ١٩٧١ ص ٢٧٠ .
(٢) محمد عزة دروزة نشأة الحركة العربية الحديثة ص ١٦٩ .
(٣) انيس المقدسي : الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ص ٢٢ .

قتلوا رجالك واستذلوا من بقي فبقيت صرعى لليدين وللعم»[1]

أما ابراهيم اليازجي (١٨٤٧ - ١٩٠٦) فقد دعا إلى يقظة العرب القومية ، والتهيؤ لحمل السلاح لتطهير المنطقة من العثمانيين « الغزاة » ، ومما جاء في احدى قصائده النارية :

« فالترك قوم لا يفوز لديهم إلا المشاكس
فاستوقدوا لقتالهم ناراً تروّع كل قابس »

هذه الصيحات الثورية المنطلقة في اكثر من منطقة ، التف حولها كتّاب العربية ، الذين نفخت فيهم العداء « لتركيا الفتاة » المتعصبة ، وجعلتهم يتوقون إلى سيادة الوطن وكيانه المستقل .

تركيا الفتاة والعودة إلى الدستور :

واجهت سياسة السلطان عبد الحميد ، حملة عنيفة ، قادتها القوى المعارضة من الأتراك . وشكلت في عام ١٨٩٤ حزباً سياسياً مناهضاً دعي بحزب تركيا الفتاة ، وعرف فيما بعد بجميعة الإتحاد والترقي ، التي انشأها مثقفون اتراك في سالونيك ، وانضم اليها ضباط عرب . وتعاطف معها الكثير من المثقفين السوريين امثال عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ - ١٩٠٢) واديب اسحق (١٨٥٦ - ١٨٨٥) وشبلي شميل (١٨٦٠ - ١٩١٧) وقد استطاعت المنظمة في تموز ١٩٠٨ ، بقيادة المسؤولين عن السلك العسكري امثال نيازي وجمال باشا ومصطفى كمال (اتاتورك) أن ترغم السلطان عبد الحميد على العودة الى دستور مدحت باشا من جديد ، وإلى تحديد موعد لانتخاب مجلس المبعوثان واطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين .

وكان لإعلان الدستور ، وقع قوي لدى مختلف الشعوب والأمم المؤمنة « بالعثمنة » حيث عمّ الفرح البلاد ، وابتهج العرب والاتراك معاً بهذا العيد ، فعانق المسلم المسيحي واليهودي ، واقاموا الزينات ، وتداعوا الى الحفلات

(١) محمد عزة دروزة : نشأة الحركة العربية الحديثة . ص ١٦٨

والمآدب ». وكان المسلمون يصرّحون على حد قول زين نور الدين زين : « نحن الآن اخوة ، ونستطيع العيش معاً بسلام ، نحن الآن جميعاً مواطنون عثمانيون ، فلتحيا الحرية ، وليحيا الجيش وليحيا السلطان »[1] . وقد كتب احدهم في جريدة « لسان الحال » مقالاً ، يصف فيه شعوره وشعور الناس ، في احدى حفلات الدستور فقال : « هذه اول مرة شعرت فيها بالوطنية التي يشعر بها كل من قدّر الوطنية قدرها . . . اليوم شعر السوريون بطيب الحرية وادركوا سوء مغبة الاستبداد والضغط ، وعرفوا ان التعصب الذي يفرق الكلمة يفرق القلوب . اليوم دروا ان اوروبا لم تستفحل صولتها إلا بالإتحاد ، ولا اتحاد مع التعصب »[2] .

وقد احتفل رشيد رضا بعودة الدستور ، وألقى خطبة من وحي المناسبة في حديقة الأزبكية ، امام حشد كبير من المصريين ، فأشار إلى ان العيد ، عيد المسلمين جميعاً « لأنه عيد بحكومة الشورى التي يتمتع بخيرها العثمانيون كافة من جميع الملل والاجناس »[3] . وحرصاً على الدستور ، أكد أنه لم يعد معقولاً ، ان تعيش الأمة من دون حكومة الشورى ودستورها الذي يصون الأمن ويوفّر العدل ، مبيناً ان الأمة في الماضي ، لم تنل دستورها«باستعداد الجمهور بل باستعداد افراد من نابغي وزرائها »[4] .

وهي اليوم بفضل وعي الجمهور ، قادرة على حمايته والحفاظ عليه ، وسليمان البستاني (١٨٥٦ ـ ١٩٢٥) ، المعجب بافكار مدحت باشا الإصلاحية ، أيّد بدوره عودة الدستور ، وطالب العمل بنصوصه ، محذراً في الوقت نفسه ، من احتمال عودة الاستبداد، خاصةوان المتضررين منه ، يترقبون الفرص للاجهاز عليه[5].

وقد افاض شعراء العربية في مدحهم للسياسة الدستورية الجديدة ، وعدّوها بداية حسنة ، لتحقيق مجتمع الكفاية والمساواة ، وعلى رأسهم احمد شوقي (١٨٦٨ ـ

---

(١) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية . دار النهار ـ بيروت ١٩٧٩ ص ٧٨ .
(٢) أنيس المقدسي : الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ص ٤٦ .
(٣) رشيد رضا : مختارات سياسية ، تقديم ودراسة وجيه كوثراني . دار الطليعة بيروت ١٩٨٠ . ص ١٣٤ .
(٤) المصدر نفسه ١٣٥ .
(٥) علي المحافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة الاهلية للنشر . بيروت ١٩٧٨ ص ١٠٨ .

١٩٣٢) المعروف بولائه للسلطان ، حتى في ادق الفترات واصعبها ، اذ نظم اكثر من قصيدة في مدح السلطان عبد الحميد ونظامه الجديد . وقال في مطلع احدى قصائده :

« بشرى البرية قاصيها ودانيها حاط الخلافة بالدستور حاميها»

وقال في نهاية القصيدة :

« يا شعب عثمان من ترك ومن عرب حيّاك من يبعث الموتى ويحييها
صبرت للحق حين النفس جازعة والله بالصبر عند الحق موصيها»(١)

يليه حافظ ابراهيم (١٨٧١ - ١٩٣٢) في قصيدته « تحية الاخلاص »(٢) التي يمدح فيها السلطان والأمة العثمانية بدستور تموز قائلاً :

« أرضيت ربك اذ جعلت طريقه آمناً وفزت بنعمة الرضوان
وجمعت بالدستور حولك أمة شتى المذاهب جمة الأضغان »

وقد أشاد محمد عبد المطلب بمزايا السلطان عبد الحميد ، وعدّه امثولة للأحرار :

« يا عبدُ حيٌّ وانت خير نهار عبد الحميد بدولة الأحرار
ملك أقام على الخلافة منهم حرساً وقاها صولة الأشرار»

وفي مكان آخر ، صور عبد المطلب تصدي السلطان عبد الحميد - امير المؤمنين - لاطماع الدول الاوروبية ، في تفتيت الامبراطورية الاسلامية ، والسيطرة عليها ، فقال :

« عهد مضى - لاعاد - كل دولة الإ سلام في الاغلال والأصار
فرمت مقاتلها يد الأطماع في دول كلفن بحب الاستعمار
هذي تطالب بالدخول ، وهذه تحتال في وطر من الأوطار

---

(٦) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ص ٧٧ .
(٧) انيس المقدسي : الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ص ٤٩ .

لــولا امــير المــؤمــنــين يحــوطــهــا   لــرأيتهــا خــبراً مــن الأخـــبار»[1]

أما الشاعر علي الغاياتي (١٨٨٥ ـ ١٩٥٦) فقد شرح في قصيدة له ، وجهها الى السلطان عبد الحميد ، حالة مصر البائسة ، التي تنتظر منه ان يرعى حماها ويحافظ على كرامتها فقال :

« أمــير المــؤمــنــين مــضــت قــلوب   إلــيــك يحــثــهــا الحــب المــكــين
تــؤمــل ان تــراك لهــا مــعــيــنــا   وانــت لهــا عــلى الــدهــر المــعــين
فيــا امــل الــقــلوب ، الــيــك مصر   تــســير وبــين جــنــبــيــهــا حــنــين
تحــن الــيــك يــا رب المــعــالي   وقــد حــلت بســاحــتهــا الــشجــون»

ونرى الشاعر وكأنه لا يكتفي بهذه الأوصاف الخاطفة ، فيعمد الى ما ابتلت به مصر زمن المستبدين ، من خطوب واحداث مريرة ، ليبين ان آمال الشعوب العثمانية كافة ، معقودة على دستوره ، الذي اطفأ فتن الماضي التي تكاد لا تنقطع :

« رمــتــهــا الحــادثــات بــشــر قــوم   لهــم في كــل مــظــلمــة شــؤون
قــضت في عــصــرهم مــصــر ، ولــولا   رجــاء فــيــك مــا قــرت عــيــون
فــأعــزز يــا حمى الاســلام شــعــبــاً   بعزك لا يذل ولا يهون»[2] .

لم تدم طويلاً مظاهر الابتهاج بالعهد الجديد ، اذ افتعلت القوى المعارضة للدستور بقيادة احد المشايخ المدعو درويش وحدتي ، احداثاً وفتناً ، بحجة العدوان على مقام الخلافة العظمى متهمة جماعة الاتحاد والترقي بالكفر والالحاد ، وقد ادعى درويش وحدتي ان خليفة المسلمين عبد الحميد ، اعلن المشروطية « الدستور » تحت الضغط والاكراه ، وان الواجب الديني يقضي بإلغائه واعلان الشريعة المحمديَّة بدلاً عنه . وعلى الرغم من ادعاء السلطان وتظاهره بعدم الارتياح لهذه الحركة ، فهو ولا شك وراءها ، غذّاها وقواها ، بدليل قبوله لطلباتها ، وتعطيله الدستور ،

---

(١) د. محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ـ دار الارتشاف : بيروت . ١٩٧٠ ص ٣٩ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٧ .

معلناً ان الشريعة الاسلامية هي الدستور الوحيد ، وان جميع النصوص والقوانين الاخرى ، بدعة وضلال .

حيال هذا الوضع المتفجر ، تحركت مجموعات من قوى الجيش المرابطة ، في مقدونية ، بقيادة محمود شوكت الفاروقي ، الى العاصمة ، واخمدت الحركة المضادة ، وطاردت مثيري الفتنة ، وقرر بعدها مجلس الأمة خلع السلطان عبد الحميد في عام ١٩٠٩ ونفيه مع بعض حريمه وعدد من حاشيته ، الى سالونيكا . وكان للشعر نصيب في تصوير سقوط السلطان عبد الحميد ، من خلال قصائد ، عدّدت، مساويء سياسته التي قضت على الامبراطورية . من هذه القصائد واحدة لخليل الخوري الذي قال :

« الله اكبر فالظلام قد علموا — لأي منقلب - يفضي الألى ظلموا
لقد هوى اليوم صرح الظلم وانتفضت — اركانه وتولت أهله النقم »[1]

إلى ان يقول ، مبّيناً المفارقات الضخمة بين اعماله التخريبية ، وبين عظمة السلاطين الأول الذين عززوا الامبراطورية ورسخوها :

« شادوا لك العزة القعساء من قدم — فجئت تهدم ما شادوا وما رسموا
كانت لهم دولة بالسيف ناهضة — وفي زمانك لا سيف لا قلم
حصدت ما زرعوا فرقت ما جمعوا — هدمت ما رفعوا بعثرت ما نظموا

وعلى غراره فعل معروف الرصافي عندما صور حادثة خلع عبد الحميد ، وهو يصف زحف الجيش على الآستانة ، تأييداً للحرية وحفظاً للدستور فقال :

«لقد سمعوا من الوطن الأنينا — فضجوا بالبكاء له حنينا
وناداهم لنصرته فقاموا — جميعاً للدفاع مسلحينا . . .
هوى عبد الحميد به هوياً — إلى درك الملوك الظالمينا
. . . واسقط ذلك الجبار قهراً — وانبأه بصارمه اليقينا
فقرت اعين الدستور أمناً — وشاهت اوجه المتمردينا»[2]

(١) انيس المقدسي : الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث . ص ٥٢ .
(٢) لمصدر نفسه ص ٥٣ ، ٥٤ .

ويبدو ان الشعر في بلاد الشام والعراق ، قد هلل لسقوط عبد الحيمد ، على عكس الشعر المصري الذي ابتأس لخلعه، وربما أصيب بخيبة . وذلك يعود لسببين :

الأول : ان المصريين لم يكتووا مباشرة من حكم عبد الحميد وسياسته ، ما اكتوى به سائر الأقطار العربية .

ثانياً : ان المصريين بدافع الاحتلال الانكليزي كانوا مضطرين الى التقرب من الدولة العثمانية التي وقفت الى جانبهم وساندتهم في طرد المحتل .

ولذلك رأف أحمد شوقي بعبد الحميد وعطف عليه في قصيدته « سل يلدزا ذات القصور » ، حيث يستغفر له فيها ويقول :

« شيخ الملوك وان تضعضع في الفؤاد وفي الضمير
نستغفر الله له والله يعفو عن كثير
ونراه عند مصابه أولى ببابه او عذير[1]

على عكس ولي الدين يكن (١٨٧٣ - ١٩٢١) الذي ذاق عذاب الاستبداد واهواله ، فنظم قصيدة عارض فيها شوقي فقال :

« ان الثلاثين التي مرت بنا مر العصور
وهبتك تجربة الأمور فعشت في جهل الأمور
من كان يدعوك الخبير فلست عندي بالخبير »[2]

العرب والاستعلاء التركي :

لكن خلع عبد الحميد لم يوفر الأمن والرخاء ، كما ظن بعض الناس ، والعكس هو الصحيح اذ سرعان ما استبدت جمعية تركيا الفتاة بالحكم ، بعد ان نحت السلطان الجديد محمد رشاد ، المعروف بمحمد الخامس ، بسبب كبر سنه ، وضعفه العام ، واقامت حكماً عنصرياً بعيداً عن مبادىء الثورة الفرنسية التي رفعها

(١) أحمد شوقي : الشوقيّات : مجلد ١ ، ٢ ص ١٣٨ .
(٢) أنيس المقدسي : الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ص ٥٦ .

نبهاء الجمعية طيلة السنوات المنصرمة الاخيرة .

وهكذا أخذ الاستعلاء التركي يأخذ مداه في الصحف والكتب . فقد جاء في احدى الصحف الاسطنبولية مقال لأحد رجالات الجمعية ، افتخر فيه على العنصر العربي فقال : « **ان الأمة التركية كانت وستظل هي الأمة الحاكمة ، وان لها الحق في التمتع بحقوق وامتيازات ، أكسبها إياها حق الفتح ، وانه ليس في امكان ولا محل للاعتراف بحقوق متساوية من الدولة للعناصر الاخرى** »[1] . وكأن المغالين من « تركيا الفتاة » لم يكتفوا بتخليهم عن وعودهم التي قطعوها للشعوب العربية والأقليات القومية الاخرى ، فلجأوا الى تهجير السوريين من اوطانهم ، وجعلوا من اللغة التركية لغة القرآن الرسمية ، وهذا ما تجلى في كتاب « قوم جديد » لأحد الأتراك المتشددين ، الذي دعا فيه الى الطورانية ، وتعليق اسماء رجالاتهم امثال (جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك) في المساجد ، بدل اسماء الشخصيات الاسلامية (محمد وابو بكر وعمر وعثمان وعلي) . وكان الكاتب يردف عبارة (صلى الله عليه وسلم) و (رضي الله عنه) أو (عليه السلام) حين ذكر اسماء ملوك التتر والترك .

حيال تفاقم الأوضاع وتخلي تركيا الفتاة نهائياً عن وعودها للعرب ، انتقد رشيد رضا ، موقف الفئة التركية المتعصبة ، الداعية الى ترك الألفاظ العربية ، المستعملة في اللغة التركية ، بتعبير لفظ التطهير ، وكأن العربية نجْسة ، قد تدنست بها التركية[2] ، وأكد تعلق العرب بلغتهم ، كونها لغة القرآن الكريم ، التي يتدارسها المسلمون ، على اختلاف اجناسهم والوانهم . نتيجة لذلك ، عارض ادباء العرب ومفكروهم موقف الاتحاديين تجاه اللغة العربية . فمنهم فؤاد الخطيب الذي فضح هذه السياسة ، وعدّد عواقبها الوخيمة في قوله :

« جاروا على لغة القرآن فانصدعت   له القلوب وضجَّ البيت والحرم
فالقدس باكية والشام شاكية   وفي الحجاز يكاد الركن ينحطم»

---

(١) محمد عزة دروزة ، نشأة الحركة العربية الحديثة . ص ٤٠ .

(٢) رشيد رضا : مختارات سياسية : تقديم ودراسة وجيه كوثراني. ص ١٥٠ .

وفي هذا الشأن كان لعمر حمد قصيدة ، عبّر فيها عن هذا المنحى فقال :

لـغـة الـقـرآن ودّوا محـوهـا ويـل قـوم اغضبـوا البيت الحـرامـا
هـذه نـيّـاتهـم بـانـت فـلا تنخـدع يـا شعبُ واحـذر أن تنـامـا
أخـبـر الـظلام أنّـا أمـة تـكـره الـظُّلم وتـأبى أن تـضـامـا

وهكذا اخذ كتّاب العرب ينددون بمواقف الاتحاديين المتطرفة ويحذرونهم من مغبة هذه السياسة. في حين كانت نداءات الغرب تطالب بالاصلاح واللامركزية ، تغير موقف العرب في غضون العشر سنوات ، اللاحقة ١٩٠٨ ـ ١٩١٨ ، من موقف التأييد الكامل أو المشروط الى القطيعة التامة ، فنادت بالانسلاخ عن الاتراك واقامة الدولة العربية المستقلة .

---

(١) محمد عزة دروزة : نشأة الحركة العربية الحديثة ، ص ٣١٧ .

الفصل الثاني

الحملة الفرنسية على مصر : دوافعها ونتائجها

في الوقت الذي بدأت الشعوب العربية ، تتلمس طريق الحرية والتحرر من الحكم التركي جاءت الحملة الفرنسية ، بقيادة نابليون بونابرت الى مصر عام ١٧٩٨ لتكشف الواقع وتؤثر في بنيته الاجتماعية .

ادعت هذه الحملة أنها أتت الى مصر ، بوحي من مبادىء الثورة الفرنسية التي اوصت بمساندة الشعوب المقهورة ، والتضامن معها ، وذلك من أجل انقاذ مصر من مظالم المماليك ، وخلاصها من سياستهم المتخلفة ، لكن الوقائع المادية ، والحقائق التاريخية ، اثبتت خطل هذه المزاعم ، وأكدت عبر مختلف التقارير والوثائق ، كذب هذه الحجج الواهية ، وانها حملة استعمارية ، كسائر الحملات والغزوات العسكرية التي عرفتها المنطقة العربية في القرون الوسطى .

أسباب الحملة الفرنسية : بيَّنت الدراسات العربية والاجنبية الاخيرة ، ان فكرة غزو مصر من نتاج صاحبها بونابرت ، وقيادة حكومته ـ الادارة الفرنسية ـ بل هي اقدم من ذلك بحيث تعود الى النزعة السلطوية عند حكام فرنسا ، في عهود سابقة ، قبل الثورة الفرنسية وبعدها .

في عام ١٦٧٢ عرض على الملك لويس الرابع عشر ، اقتراح احتلال مصر بدلاً من هولندا بحجة ان امتلاك فرنسا للقطر المصري يؤدي الى استحواذها على متاجر الهند . وكذلك الامر في عهد لويس الخامس عشر والسادس عشر ، حيث تجددت فكرة الاحتلال ، وقدمت تقارير أيَّدت الاحتلال ، ترسيخاً لتجارة فرنسا في

منطقة الشرق ومنافسة انكلترا ، فوزير البحرية دوسارتين De Sartine في حكومة لويس السادس عشر علّل ذلك بقوله : ان احتلال مصر هو الطريقة الوحيدة لحفظ تجارتنا في البحر الابيض[1] ويضيف قائلاً : « متى توطدت قدمنا في مصر صرنا اصحاب السيادة على البحر الاحمر ، وصرنا نستطيع ان نهاجم الانكليز في الهند . . . »[1] وعرفت السنوات الاخيرة قبل الحملة ، تقارير كثيرة ، تؤيد وجهة نظر الاحتلال .

منها رسائل « تاليران » ـ وزير خارجية فرنسا ـ المبعوثة الى حكومة الادارة في باريس ، التي اظهرت ان حالة الامبراطورية العثمانية المفككة ، تسهل عملية الحملة التي وصفها بنزهة سياسية ، وبخاصة عندما اشارت التقارير الى كره المصريين للمماليك الذين اقاموا امتن العلاقات مع انكلترا وجعلوا انفسهم تحت تصرفهم ، والذين لو فكروا بتسليم الأهالي السلاح « لمحاربة السفارة الاجنبية (الفرنسية) » فانهم ولا شك ، سيحاربون طائفة المماليك انفسهم »[2] .

وعلى غرار ذلك جاء وصف الرحالة فرانسوا فولني لحالة مصر ، ولميناء الاسكندرية ، عندما زار المنطقة عام ١٧٨٢ ، وسجل انطباعاته في كتابه (رحلة الى سورية ومصر) الذي اهداه الى قيصرة روسيا كاترين الثانية ، معتبراً ان هذا الميناء ، خال من التحصينات والحاميات . وتقارير شارل مجالون[3] ومذكراته التي عبرت عن شكاويه من سوء معاملة حكام المماليك للتجار الفرنسيين ، واقترحت في الوقت نفسه ، احتلال مصر ، داعمة رأيها بفوائد فرنسا الجمّة ، وبما تناله « من المزايا السياسية والاقتصادية ، باستثمار مواردها ومدّ سلطانها الى البحر الاحمر ، وتهديد انكلترا في بلاد الهند »[4] .

---

(١) ذوقان قرقوط : تطور الفكرة العربية في مصر ص ٨٨ .

(٢) د. لويس عوض : تاريخ الفكر المصري الحديث ص ٧١ .

(٣) تاجر فرنسي اصبح قنصلاً عاماً لفرنسا عام ١٧٩٣ والمشرف على مصالح الفرنسيين في القاهرة .

(٤) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ، دار المعارف القاهرة ١٩٨١ ج ١ ص ٧٩ .

لكن السبب الاساسي للحملة يعود الى المنافسة القوية بين فرنسا وانكلترا على الفتح والاستعمار حيث تأكد لنابليون ، ان احتلال مصر ، هو ميدان الحرب الذي يقهر فيه انكلترا ويستعيض به ما فقدته فرنسا في اميركا في بداية القرن الثامن عشر من مناطق : كأكاديا وحوض الهدسن الغربي وكندا ولويزيانا[1] ، ويقضي على قوة انكلترا ، التي اصبحت سيدة العالم ، يوم اخضعت البحار لمشيئتها ، وستصبح ضحيته ، كما قال أحد المعلقين في مجلس العموم ، في اليوم الذي تفقد ملكيتها[2] ، ولهذا لم يحدد نابليون وجهة سير حملته ، وابقى ذلك سراً عن جنوده ، وكبار معاونيه من الاختصاصيين والتكنولوجيين ، كي يضلل الانكليز . ويتحاشى اسطولهم ، ويخدع تركيا . بدليل ان حكومة الادارة الفرنسية أسمت جيش الحملة بجيش الشرق ، بعد ان اطلقت عليه « اسم الجناح الأيسر لجيش انكلترا » لتوهم انكلترا انها مصممة على غزوها في جزيرتها[3] . واذا كان من كلمة تقال ، قبل ان نتحدث عن ميزات هذه الحملة النهضوية والعمرانية ، فاننا نود أن نشير الى ان فكرة غزو مصر ، لم تتعارض مع مفكري الثورة الفرنسية وفلاسفتها ، الذين تناقضت مواقفهم في كثير من القضايا . فهم تارة ينتقدون نظام الرق، وتارة اخرى يدافعون عن اقامة مستعمرات جديدة : مونتسكيو وافق على احتلال جزر في البحر الكاريبي وفولتير أيد استعمار لويزيانا وامتلاك كورسيكا .

على الرغم من كل ذلك ، يبقى للحملة اثر واضح في دنيا المعرفة والتقدم في مصر ، إذ استطاعت ان تحرك العقول وتعبيء النفوس ، وتشحذ الشعور ضد المحتل، وجميع اشكال التخلف والفساد .وقد عبر شوقي ضيف عن هذه الحملة فقال «وكان مجيء الحملة الفرنسية الى مصر بقيادة بونابرت في اواخر القرن الثامن عشر، وما رآه المصريون رأي العين من ضعف آل عثمان ، سبباً في ان ينتبهوا الى حريتهم وحقوقهم المسلوبة»[4] بعد أن كانت مصر في عزلة عن حضارة العالم ومكتشفاته الحديثة ، تعيش في انقطاع علمي وادبي ، لا تعرف نظم الحياة المتمدنة وقوانينها الجديدة ،

---

(١) د. طلال المهتار : آثار حملة بونابرت على مصر . الجامعة اللبنانية ص ١٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ٤٦ .
(٣) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية ١ ص ٨١ .
(٤) د. ابراهيم علي ابو خشب : تاريخ الادب العربي في العصر الحاضر ص ٦٦ ، ٦٧ .

التي توفر الأمن والسعادة . وهي ان فشلت من الناحية العسكرية والسياسية ، فانها (اي الحملة) أحرزت نصراً في النواحي الاجتماعية والعلمية والفكرية : فمن الناحية العسكرية استطاع المصريون ان يكبدوا الفرنسيين خسائر فادحة . ولسان حالهم يهتف « اذا جاءت جميع الافرنج فلا يقفون في مقابلتنا واننا سندوسهم بخيولنا »[1] اما من الناحية العلمية فلا ريب ان الفرنسيين ، ادخلوا معارف وعلوماً استحسنها اهل مصر واجلّوا منافعها . فالجبرتي ، تحدث طويلاً عن التحسينات المعرفية والمنجزات العصرية التي شهدتها مصر ، ابان الحملة ، كالمعهد العلمي ومختبراته ومكتشفاته .وكرجال الاختصاص الذين عملوا على تحبيب المصريين بالعلوم ، وتنوير بصائرهم وتعريفهم على الحياة الجديدة ، مما حدا بعض الكتاب ان يطلق على تاريخ الحملة في مصر ، نهاية القرون المظلمة ، وبداية العصر الحديث ، خصوصاً اذا علمنا ان المؤثرات الاجنبية السابقة على الحملة ، لم تكن فعالة ، فاذا هاجر أحد مثلاً الى اوروبا بدافع تجاري او علمي ، لم يكن لاغترابه اثر في حياة مصر العقلية او السياسية ، واذا قامت جالية اجنبية في مصر ، كان همها استغلال الأهلين وتحقيق اقصى درجات الربح المادي ، لا تنوير المصريين وتثقيفهم . لذلك بقيت فرص الاقتباس الفكري والاجتماعي شبه معدومة ، بسبب عدم توافر الألفة والمعاشرة بين المصريين والاجانب ، وقد تحدثت الدراسات عن حالة مصر زمن الحملة الفرنسية فتكلمت على حالات الجهل والفوضى ، التي أصابت المجتمع والانسان ، فاكدت من خلال فرانسوا فولني ، ان الجهل العام في البلاد ، تناول كل الطبقات والفئات المهنية - الحرفية والفنية ، ومختلف الأنواع الادبية ، والمعارف الانسانية .

معالم الحملة الفرنسية : اراد نابليون ان لا يدخل مصر ، غازياً وفاتحاً على طريقة الحروب الكلاسيكية ، فلجأ من أجل تحقيق اهدافه التوسعية والاستعمارية ، الى وسيلة ذكية ، اعتمدت اسلوب المودة والمساعدة والمداهنة . فمن جهة المودة اظهر في اكثر من مناسبة انه لم يأت مصر ، الا لانقاذها من الجهلة المماليك ، ولتعريفها بنظم الحياة الجديدة وحضارتها الحديثة ، ومن جهة المداهنة ، فقد اصطنع

---

(١) البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة . دار النهار . بيروت ١٩٧٧ ص ٧٠ .

الاسلام ، وادعى انه يقوم باحكامه الدنيوية والاخروية ، ويحترم السلطان العثماني - خليفة المسلمين - ويطمح الى تخليص البلاد من حكم المماليك وتسليمها الى المصريين ، الذين - حسب قوله - يجب ان يتبوأوا أعلى المناصب ويصلوا الى اكبر مراكز الدولة . لهذه الأسباب وغيرها ، جهّز نابليون حملة ، زوّدها بمختلف ادوات النهضة . فقد اصطحب في حملته فريقاً من علماء فرنسا ونوابغها المتخصصين في الرياضيات والهندسة والجغرافيا والفلسفة والطب والآثار ، وجماعة من الرسامين والموسيقيين والمصورين وغيرهم من رجال العلوم والآداب والتكنولوجيا . بلغ عددهم / ١٤٦ / مائة وستة واربعين ، امثال مونج **Monge** العالم الرياضي وبرتوليه **Bertholet** العالم الكيميائي ، ممن غرسوا بذور الحضارة الحديثة في مصر ، وفتحوا عيون ابنائها على ثقافة جديدة ضربت القيود الوهمية والتقاليد البالية ورفضت الجمود وتعرضت للأساليب الكلاسيكية التقليدية فزعزعت طرق التعليم والتلقين الببغاوي ، الذي يحبس البشر في نظريات ضيقة ، وتصورات محدودة لا يجوز الخروج عليها. اضافة الى اختياره افضل العناصر العسكرية المشهود لها بخبرتها في حروب ايطاليا وحرب الرين ، امثال برتييه **Berthier** رئيس اركان الحملة ، وكليبر **Kleber** ورينييه **Regnier** وكافريللي **Caffarelli** رئيس فرقة المهندسين ، وافضل أطباء فرنسا وجراحيها امثال لاري **Larrey** كبير الجراحين وديجنت **Deigenette** كبير اطباء الحملة .

وقد أقدم نابليون فور دخوله الأراضي المصرية على إنشاء مسرح للتمثيل ومدرستين وصحيفتين ومطبعتين ، احداهما فرنسية والاخرى عربية ، واقام مراصد فلكية ومصانع ومعامل كيميائية جعلت الكثير من المصريين يعجبون بعملية التحولات الكيميائية التي تراءت لهم وكأنها سحر .

وقد أعطى الجبرتي دراسة وافية لمثل هذه الحالات ، وعرض بتفصيل لكثير من تجارب العلماء التي بيّن فيها دهشة الاهالي ، كذهول الناس من جراء تجربة احد العلماء الذين اخذ شيئاً قليلاً من غبار أبيض ، ووضعه على سندال (سندان) وضربه بالمطرقة بلطف . فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة (نوع من البنادق) وقال ان الناس استغربوا هذه الحالة وانزعجوا خوفاً وذعراً ، بينما الأجانب سخروا

منا وضحكوا علينا[1] .

وانشأ الفرنسيون ايضاً دوراً للبحوث العلمية والنقش والتصوير ، واسسوا مكتبة عامة ، فرنسية وعربية ، جمعت معظم الكتب العربية من مساجد مصر ، أما الفرنسية منها ، فقد احضرها نابليون نفسه مع الحملة . وكان القائمون بأمرها يرحبون بمن يدخلها من المصريين . وقد أشار الجبرتي الى المعاملة الحسنة التي تلقاها المصريون ، تشجيعاً لهم على زيارة هذه المؤسسة الثقافية فقال : « اذا حضر اليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول الى اعز اماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك واظهار السرور بمجيئه ، خصوصاً اذا رأوا فيه قابلية للمعرفة او تطلعاً للنظر في المعارف ، بذلوا له مودتهم ومحبتهم . . »[2] .

أما المشاريع الانشائية والأعمال الأنمائية ، فقد ركزت حملة نابليون ، على الجوانب التنظيمية والعلمية والعسكرية والدينية ، التي اثرت كثيراً في تطوير مصر ، وكانت نقطة تحول هامة ، ليس على الصعيد الاقليمي فحسب ، بل في تاريخ بلاد الشرق الأوسط كافة :

أ ـ آثار الحملة على الصعيد التنظيمي والإداري : اجرى نابليون فور دخوله البلاد المصرية اتصالات ومفاوضات مع زعماء مصر : علماء الأزهر ومشايخها ، لتأليف حكومة دميقراطية ، تنسجم مع الطروح التي كان قد اعلنها زمن الحملة ، والتي اشار فيها الى انه جاء لانقاذ البلاد من حكم المماليك الفاسد وتسليم البلاد لأهلها الأصليين ـ المصريين ـ فأقدم فور دخوله القاهرة في ٢٥ تموز ١٧٩٨ على اصدار مرسوم بتأليف أول وزارة مصرية من تسعة اعضاء اختارهم بونابرت من مشايخ الأزهر واعيانه ، انتخبوا من بينهم رئيساً واختاروا سكرتيراً من غيرهم ، وعينوا اثنين للكتابة والترجمة يعرفان الفرنسية والعربية[3] .

---

(١) د. عبد الكريم الأشتر : نصوص مختارة من النثر العربي الحديث . دار الفكر . بيروت ١٩٦٩ ص ٦١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٧ .

(٣) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية ، ج ١ ص ٩٨ .

حدّد مرسوم بونابرت اختصاص الديوان ـ مجلس الوزراء ـ بثلاثة امور هي : الامن العام والتموين والصحة . وكانت هذه الحكومة استشارية ومقيدة، تنقضي صلاحياتها عندما تتعارض مع توجهات الفرنسيين وتصوراتهم . فهي عملياً حكومة دمى ، حالها كحال اية وزارة في ظل سلطة عسكرية اجنبية ، لأن الرأي الأخير في مختلف الأمور ، وصانع القرار ،للسلطة المحتلة ، التي تتدخل في شؤون الدولة وتوجهاتها العامة وتفرض موظفيها ومسؤوليها ، من دون استشارة الحكومة ، وذلك من اجل مراقبة السلطة ، ورصد تطلعاتها والحؤول دون الخروج على الخط المرسوم مسبقاً ، وهذا ما يفسره تعيين بونابرت للجنرال بوفوازان Peauvoisins قوميسيراً لدى الديوان ، ليكون عيناً ساهرة لتحركات الوزراء ، يسجل ما يدور في الجلسات من مناقشات وآراء ثم يرفعها اليه بطريقة منتظمة، يعرفه على نوايا المسؤولين حيال السلطات المحتلة .

ونظراً لتعميم الحكم الديمقراطي الشوري اصدر نابليون في ٢٧ تموز من السنة ذاتها أي بعد يومين على صدور المرسوم الأول ، مرسوماً آخر ، قضى بانشاء دواوين الأقاليم او مجالس المديريات للسهر على مصالح المنطقة وحفظ الأمن العام وتأمين جباية اموال الميري والضرائب ، والشيء الجديد الهام في هذا المرسوم ، ما جاء في مادته الثانية التي نصت على تعيين قوة مسلحة من ستين رجلاً من الأهالي المصريين ، تكون في عهدة الآغا ـ رئيس الانكشارية ـ بعد ان كان حمل السلاح محظوراً على المصريين ايام الترك والمماليك[١] .

لكن اثر نابليون في اعادة بناء مصر ، ؛ على اسس حضارية حديثة كان في تأليفه « للديوان العام » الذي انشأه في ٤ أيلول ١٧٩٨ ، من اعيان البلاد وعلمائها وفعالياتها الاقتصادية والتجارية والدينية)،لاشراكها في تأسيس النظام الجديد وابداء رأيها في شؤون البلاد الادارية والمالية والقضائية .

وقد اعتبر « الديوان » في مفهومنا السياسي ، بمثابة جمعية استشارية او مجلس نواب اختير مندوبوه من مديريات القطر المصري كافة ، بنسب متفاوتة وبطريقة لم

---

(١) د. لويس عوض : تاريخ الفكر المصري الحديث . ص ١٠٥ .

نعرفها تحديداً ، « اذا كانت مجرد تعيينات فرنسية ، او أنها قامت على نوع من الانتخاب الفئوي ، او شيء قريب من البيعة »[1] . . على ان هذه الجمعية ليست تشريعية ، بالمعنى المتعارف عليه اليوم ، بل هي اشبه بمجلس شورى ، يؤخذ رأيه في الأمور التي يهم نابليون ان يبدي اعضاؤه رأيهم فيها ، من قبل ان يتخذ قراره النهائي والمستقل .

ومما يؤكد ذلك التعليمات التي اصدرها الى « قوميسري الديوان » مونج و برتوليه اذ قال : « قولوا لهم اني دعوتهم لاستشارتهم وتلقي آرائهم ، فيما يعود على الشعب بالسعادة والرفاهية »[2] . .

ويبدو من النقاط الأربع ، التي وردت في تعليماته ، ان صلاحيات الديوان لا تتعدى شكليات الأمور المتعلقة بكيفية تأليف الديوان ، والمرتب المتوجب دفعه للاعضاء ، والنظام القضائي ، المدني والجنائي ، وكذلك التشريع الذي يكفل ضبط المواريث بالاضافة الى اهتمامه بايجاد قوانين لاثبات ملكية العقارات وجباية الضرائب ، التي سرعان ما تعددت وتنوعت في فترة الاحتلال . فعلى سبيل المثال ، دفع اصحاب الدكاكين والحوانيت ضريبة عقارية جديدة ، لم تكن تدفع في عهد المماليك ، تسببت في اشعال ثورة القاهرة وفي تعطيل الديوان العام الذي إنفضّ في ٢٠ تشرين اول ١٧٩٨ ، لكن نابليون الذي قضى على مدبّري الثورة ومخططيها لم يشأ ان يحرم مصر من إنجازها الاداري والتنظيمي فشكل مجلساً جديداً من ستين عضواً ، إضافة الى المندوب الفرنسي الاستشاري الذي يطلعه على اعمال الديوان واتخذ تدابير وقائية تفادياً لوقوع ثورة اخرى ، فاقام التحصينات ـ قلاع وحصون ـ تحكمت بمداخل البلد واحيائه الداخلية .

هذا الوضع الجديد ايقظ عقول المصريين الذين ادركوا معنى الديمقراطية والنظام الشوري فعارضوا الحكم الاستبدادي الذي عرفوه سابقاً في عهد المماليك ، ومارسوا اللعبة السياسية التي خولتهم في مدة قليلة ، ان يحكموا بلادهم بانفسهم ويضعوا قرارها السياسي المستقل الذي ظلّ لفترة طويلة معطلاً ، ويعملوا على تطوير

---

(١) (٢) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية ، ص ١٠٥ .

بلادهم وتقدمها . وقد تجلى أثر الديوان من خلال إستشارته للشعور المصري القومي ، وعزته الوطنية ، وخاصة بعد أن أظهر نابليون مثلاً ، في رسالته المبعوثة الى مجلس الديوان ، عظمة مصر ومجد حضارتها القديمة ومركزها المميز في العالم ، واعترف بان مصر كانت معلمة الأمم وحاملة لواء المعرفة . كل ذلك جعل المصري يتحسر على ماضيه ويتشوق للنهوض ، ويتطلع الى احياء منزلة مصر القديمة ولعب دورها الحضاري في العالم .

ب ـ آثار الحملة على الصعيد العلمي : اذا كانت معركة « ابي قير » خسارة لنابليون وهزيمة له لأنها حاصرته وجيشه في الديار المصرية ، وقطعت اتصالاته بفرنسا ، واوقفت الامدادات الخارجية ، فانها كانت مغنماً للمصريين ومكسباً لهم . فنابليون اثر تلقيه انباء هذه الكارثة ، اقدم في ٢٢ آب ١٧٩٨ على تأسيس المجمع العلمي المصري برئاسة العالم الرياضي مونج الذي نفع اهل البلاد وعرفهم على مخزونات بلادهم الاقتصادية،وفتح عيونهم على اهمية التخطيط في البلدان النامية . وكان المجمع على غرار المجمع العلمي الفرنسي الذي انشىء عام ١٧٩٥،وانتخب نابليون عضواً فيه عام ١٧٩٧ . وقد تألف المجمع المصري من ثمانية واربعين عضواً في شتى الاختصاصات ، للانتفاع بمواهبهم المتنوعة،الاّ ان اغراضه الرئيسة ، تجلت في النقاط الثلاث الآتية :

١ ـ نشر المدنية الأوروبية وبعث علومها ومعارفها في مصر .

٢ ـ تقديم دراسات تتعلق بتاريخ مصر وطبيعتها وصناعتها ونشرها في ابحاث وموضوعات مبوبة .

٣ ـ ابداء رأي المجمع في الأمور التي تستشيره الحكومة فيها .

وقد عمل اعضاؤه في الأقسام الأربعة : قسم الرياضيات وقسم الطبيعيات وقسم الاقتصاد السياسي وقسم الآداب والفنون ، فبحثوا في مسائل وقضايا متنوعة ، نشّطت حركة العمران في البلاد، فتمكن المجمع على الصعيد الزراعي مثلاً من استخدام افضل طرق زراعة القمح والعنب ، وعلى الصعيد الجغرافي استطاع ان يضع مصر في مكانتها الطبيعية اللائقة بها ، من خلال تقديم رسم جغرافي واضح

لها وخرائط مفصّلة لمناطقها ، ازاحت الستار عن عظمة نيلها وجمال ساحلها .

اقام المجمع العلمي في مصر مشاريع انمائية ونهضوية كان لها افضل الأثر في انفتاح مصر على حضارة العالم المتمدن واخذها بمكتشفاته الحديثة . فعرّف المصريين على فن المطابع عندما انشأ مطبعة عربية وفرنسية بادارة المستشرق مارسيل - احد اعضاء الحملة - وهي أولى مطابع مصر في العصر الحديث ، وقد عرفت بتسميات عدة : فاطلق عليها في الاسكندرية اسم « مطبعة جيش الشرق » وعرفت في القاهرة باسم « المطبعة الأهلية » ، وتعليلنا لاختلاف هذه التسميات أنه يعود الى رغبة نابليون في تضليل الانكليز عن هدفه .

وسواء تركها نابليون بعد رحيله من مصر او أخذها معه ، فقد اختفت ولم تظهر الا في أيام الخديوي محمد علي باشا الذي اعتلى الحكم في ١٨٠٥ . وأصدر المجمع ايضاً جريدتين أخريين ، الأولى سياسية دعيت « بريد مصر le Courrier De L,Egypte كانت تصدر بالفرنسية كل اربعة أيام ،وتوقفت في حزيران ١٨٠١ قبيل جلاء الفرنسيين بمدة وجيزة ، والثانية « العشارية المصرية » La Decade Egytinn.e كانت تصدر مرة كل عشرة ايام وهي جريدة علمية واقتصادية اهتمت بمناقشات المجمع العلمي ونشرت ابحاث اعضائه القيمة . بالاضافة الى ذلك شيّد اعضاء هذا المجمع ، محاجر صحية ومستشفيات ، أنشئت في باديء الامر للجنود الفرنسيين ثم ما لبثت ان عمت وشملت ابناء مصر كافة ، ويبدو ان مصر قبل الحملة ، عرفت هذا النوع من المستشفيات تحت اسم آخر . فقد ذكر المهندس جومار انه وجد في القاهرة ، مستشفى للنساء ، كان يطلق عليه اسم (تكية) وتكايا اخرى للمرضى[1] وانشأ الفرنسيون مصانع للجوخ والقبعات والجلود والنجارة ، واخرى لصناعة البيرة ، وأقاموا مسرحاً لتمثيل الروايات وهو الذي سماه الجبرتي « كمدي - Comedie » .

أفاد المجمع العلمي البلاد المصرية وبذل اعضاؤه جهوداً في تعريف اهلها بمنجزات فرنسا وحياتها المعاصرة ، وفي بعث نهضتها الوطنية التي تبلورت في نقطتين

---

(١) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية . ص ١٤٢ .

رئيستين ، الاولى احياء امجاد مصر القديمة والثانية مواكبة الحضارة الحديثة ومعاصرة العلوم الجديدة ، وبخاصة بعد أن أرسل أحد اعضائه رسالة الى المجمع العلمي الفرنسي ، يطلب فيها اقامة اتصال مباشر بين المجمعين ، لتبادل وجهات النظر والتعرف على احدث المبتكرات العلمية، مؤكداً ان جلسات المجمع العلمي المصري في نشاط دائم ، وهي لا تقل اهمية عن جلسات المجمع الفرنسي ، وقد تمنى في نهاية الرسالة ان يأخذ مجمعهم قراراً بالمساهمة في الدراسات العلمية والاطلاع على النتائج الجديدة[1] التي تدفع حركة العلوم الى الأمام .

ونظرا لأهمية هذا المجمع ،رأى كثير من الدارسين لأحوال مصر في هذه المرحلة انه الأثر الوحيد الباقي من ايجابيات الحملة الفرنسية ، وبخاصة بعد ان اعيد انشاؤه عام ١٨٥٩ في الاسكندرية ثم في القاهرة عام ١٨٨٠ وكان قد توقف عام ١٨٠١ بسبب مغادرة الحملة الأراضي المصرية .

ج ـ آثار الحملة على الصعيد الديني : مارس نابليون مرونة ذكية في شتى مواقفه للوصول الى هدفه السياسي والاستعماري ، تارة يدّعي ان مباديء الثورة الفرنسية واهدافها الانسانية ، كانت وراء تجشمه مشقة السفر الى مشرق الأرض ومغربها لانقاذ شعوبها المضطهدة من مظالم الحكام والسلاطين ، وتارة يزعم ان ظلم المماليك للمصريين واعتداءاتهم المتكررة على التجار الفرنسيين المقيمين في مصر ، كان الدافع لمجيئه الى مصر ، من اجل تأديبهم من جهة ، وتسليم اهل البلاد الاصليين السلطة والحكم من جهة اخرى .

فعلى الصعيد الديني : ادعى نابليون انه آمن بالاسلام وتعاليمه وبرسوله وتقرب من مشايخ الأزهر وعلمائه وطلب ودّهم ومشاركتهم له في انهاض مصر وتقدمها ، معتقداً انه بتركيزه على الأزهر ، وتحويله الى منارة علمية ، يتمكن من بسط السيطرة على المنطقة . وهذا ما يفسر تقربه من رجال الدين والثناء عليهم واعتماده سياسة احترام الشعائر الدينية ، والاشتراك في الاحتفالات الدينية . ولم يكتف نابليون بذلك بل ضمّن منشوراته الموجهة الى جنوده وضباطه ، تقديره الكبير للاسلام فاصدر منشوراً من على ظهر بارجته (الاوريان) ، قبل وصوله الى مصر ،

---

(١) د . طلال المهتار : اثار حملة بونابرت على مصر ـ ص ١٠٥ .

بينّ فيه عادات شعب مصر ، وطرق تعاملهم في الحياة ، واوصاهم باحترام شرائعها ، وتقدير مشايخها وائمتها ، والاشتراك باحتفالات الاعياد والابتهالات الدينية . وأصدر نابليون بمناسبة انشاء الديوان منشوراً آخر ، افتتحه بالدعاء الاسلامي (البسملة) ، خاطب فيه المصريين مؤكداً خطل ادعاءات الحكام المماليك الذين زعموا ـ حسب قوله ـ أنه جاء لازالة دينهم الاسلامي وضرب معتقدهم وطمس حضارتهم الاسلامية ، فقال : « **قولوا للمفترين انني ما قدمت إلاّ لأخلص حقكم من يد الظالمين ، وانني اكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيّه والقرآن العظيم** »[1] . وأضاف موجهاً كلامه الى المشايخ والقضاة والأئمة واعيان البلد : « **قولوا لأئمتكم ان الفرنساوية هم ايضاً مسلمون مخلصون ، واثبات ذلك ، انهم قد نزلوا في رومية الكبرى وضربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الاسلام**[2] .

ونابليون في المنشور نفسه ، تقرب من السلطان العثماني ، ومدح صفاته ، وصرح بان الفرنساوية « محبون لحضرة السلطان العثماني واعداء اعدائه »[2] ، ـ لكنه بعد ان تدهورت علاقاته مع العثمانيين وتغيرت السياسة الفرنسية تجاههم ، لم يتردد اطلاقاً في الوقيعة بين السلطان العثماني والمصريين ، وبث التفرقة والخلاف بينهما ، خصوصاً حين حاول التشكيك بمواقف السلطان واظهاره بعدم الاهتمام بالمصلحة الدينية ، بدليل ان السلطان اقام علاقات ودية مع فرنسا ، يوم كانت تجهر بمسيحيتها وبعدائها للاسلام والمسلمين ، في حين انه نبذ صداقتها يوم اعتنقت الاسلام، وتفهمت عقيدته الاسلامية . لكن تودد نابليون السياسي والديني لم يدم طويلاً ، اذ سرعان ما تعكرت الاجواء وساءت علاقاته مع المصريين ، وانكشفت اراجيفه الواهية ، وبخاصة بعد ثورة القاهرة التي دعا اليها الأئمة والمؤذنون ـ وغيرهم من رؤساء الدين ، واقدام نابليون على التنكيل بالثائرين ، الذين بلغت خسائرهم الفين وخمسمائة ضحية ، فضلاً عن معاقبته مشايخ البلد ، المؤيدين للثورة ومصادرة ممتلكاتهم . وهكذا استطاعت البلاد المصرية ان تتعرف الى نمط

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٤ .

(٢) (٢) البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ـ ص ٧١ .

حياة جديدة ، ونظام سياسي جديـد ، في ظل الحملة الفـرنسية ، التي على الـرغم من سياستها الاستعمارية ، ظلت معلماً ايجابياً في يقظة مصر .

ألم تتمكن خـطب نابليـون ، التي تحـدثت عن عـظمـة مصـر ـ ام الـدنيـا ـ ان تدغدغ عقـول المثقفين من اهـل مصر ، وتبعث في نفـوس ابنائهـا روح العزة الـوطنية والقومية ؟

الم يكن تأسيس الديوان خطوة هامة في حياة المصريين ؟

اثبتت الـوقائـع التي شهـدتهـا المرحلة آنـذاك ، ان التحـركـات والانتفـاضـات المصـرية كـانـت بمثابـة ردود على الحملة الفـرنسية ، التي عـرَّفت الشعب المصري إلى الروح الوطنية ، وجعلته يرفض الاذعان لحكم اجنبي وسلطة سياسية ظـالمة ، فـدفعته الى احيـاء تراث هـذه المنطقـة ، وبعث مجدهـا الحضاري الـذي رفرف اشعـاعـاً فـوق أصقاع المعمورة قـاطبة. ولا نبـالغ اذا قلنـا ان المصريـين تعرفـوا من جراء هـذه الحملة عـلى نـظام ديمقـراطي ، اخـذ برأي ممثليـه في وقت ضـربت فيـه حـريـة التعبـير ، واضطهدت الكلمة ، وعم الظلم والاستبداد . .

الفصل الثالث

الثورة الفرنسية
وآثارها على فكر النهضة وأدبها

استطاعت مبادىء الثورة الفرنسية ، أت تتغلغل في شعوب الامبراطورية العثمانية عامة ، والاقطار العربية خاصة ، وأن تطور اسلوب بناء الدولة الحديثة ، من خلال الاصلاحات والتنظيمات والقوانين الاجرائية الجديدة ، التي فتحت باب المؤسسات والجمعيات واسعاً ، وأولت الاهتمام بالافكار الاصلاحية ، المتوافقة مع حاجات البلاد وتطلعات أبنائها . هذه المفاهيم الجديدة قدر لها بفعل تغيير نمط علاقات الانتاج ، وبفعل نشوء ونمو طبقات صاعدة ، أن تؤثر في تقدم الأنظمة السياسية والاجتماعية ، والاقتصادية ، وتحقق انجازات ضخمة ، ومنافع عديدة ، لغالبية الناس .

استطاعت هذه الثورة في عام ١٧٨٩ أن تقضي على قوى الظلم والطغيان ، وتبني الحياة الجديدة ، المسترشدة بالشعارات الرئيسة حرية ـ مساواة ـ اخاء ـ والمقتبسة من نصوص مبادىء حقوق الانسان التي اعلنها الرئيس جورج واشنطن (١٧٣٢ ـ ١٧٩٩) عقب انتصار الثورة الاميركية ، التي كان للمفكرين الفرنسيين وفلاسفتهم اكبر الدور في التمهيد لها . وبهذا تقدم الغرب على الشرق الذي ظل لسنوات عديدة ، يكتوي بجبروت السياسة الغاشمة ، وبقي حبيس الجهل والتخلف ، يعاني من صنوف العبودية والاستبداد . بينما خطت أوروبة في الحضارة والتقدم خطوات انسانية رائعة ، فأضحت رائدة الفكر الانساني ، ومنارة الشعوب المضطهدة ، والقدر المحبب الى جميع المستضعفين والمعذبين في الأرض .

لكن هذه الثورة التي اقامت الجمهورية لم تتمكن من المحافظة عليها . اذ سرعان ما سقطت .بمناداة نابليون بونابرت امبراطوراً عاماً سنة ١٨٠٤ ولسبب عدم ايمان مفكري الثورة ورسلها امثال مونتسكيو وفولتير وميرابو ، بهذا النظام الجديد . فقد كانوا يرمون الى تغيير الملكية وليس الى الغائها ، أي جعلها ملكية دستورية ، تحدّ من سلطة الملك ، وتستمد قوتها من القوانين والتشريعات البرلمانية الديمقراطية ، لأن الموكلين بالسلطة التنفيذية كما يقول : جان جاك روسو (١٧١٢ـ ١٧٧٨) ليسوا اسياد الشعب ولكنهم خدامه يستطيع الشعب الذي ينصبهم أن يسقطهم كلما شاء[١] .

أقطار المشرق ومباديء الثورة الفرنسية :

تسرَّبت مباديء الثورة الى شعوب المشرق العربي ، بعد مخاض طويل من القهر والعبودية ، وتعطش الى الحرية والعدالة وتقرير المصير .

وكان للحملة الفرنسية على مصر ، دور كبير في تفتيح العقول المصرية على هذه الثورة ، ومنجزاتها. فكتب عنها الكثير ، ولم تستطع الأقلام العربية المعاصرة أن تقلل من ايجابياتها . فعبد الرحمن الجبرتي (١٧٥٤ ـ ١٨٢٢) مؤرخ الحملة ، تحدث عن أخلاق الفرنسيين وتقاليدهم ، واعترف بفضلهم في الأمور الادارية والمفاهيم التنظيمية ، وفي كثير من العلوم والفنون . ومحمد علي خديوي مصر، أعجب بالادارة الفرنسية المنظمة ، وسعى فور تسلمه سلطة القيادة ١٨٠٥ الى جعل مصر دولة حديثة ، تماثل دول اوروبة المتمدنة ، قوة وعمراناً ، فاستعاض عن اللغة الايطالية لغة المشرق انذاك باللغة الفونسية ، التي حملت معها أفكار الثورة الفرنسية .

ولم تقف مباديء الثورة (حرية ـ مساواة ـ اخاء) عند حدود الشرق العربي ، بل تخطته الى سائر مناطق النفوذ العثماني، تغزو عقول الناشئة ، في فترات الازدهار السياسي ، وفي عهود بعض الولاة المنفتحين على الغرب ، والمؤمنين بالحركة النهضوية ، الذين اوصلوا بعض القادة من المفكرين والمصلحين الى مصارعة العبودية ومقارعة الأنظمة الاوتوقراطية . على هدى مباديء هذه الثورة ، ثار اعلام

---

(١) رئيف خوري الفكر العربي الحديث . دار المكشوف . بيروت ١٩٧٣ ص ٨٠ .

النهضة العربية الحديثة على القوانين الجائرة ، والمفاهيم القديمة ، وطالبوا باقامة النظام الدستوري والقوانين الديمقراطية العادلة ، التي تساوي بين مختلف الفئات والطبقات ، وتجعل القانون فوق الجميع ، لا فرق بين غني وفقير ، وبين أمير ووضيع ، فكانوا بمثابة النسائم والبشائر للحياة العربية الجديدة .

ويعد رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) أول كاتب مصري ، حاول ايقاظ الوعي الوطني ، وتنبيه الأذهان الى المضامين الفكرية والانسانية ، التي توفر حياة الاستقرار والطمأنينة . كان الطهطاوي وزملاؤه - اعلام النهضة - قد اكتسبوا معرفة وثيقة للحياة الأوروبية المعاصرة ، وخبروا موضوعاتها وقوانينها التي تتوافق مع ابتكارات الانسان الجديد واكتشافاته المعاصرة ، والتي تنسجم مع تطلعاته وأمانيه في اقانيم الحرية والمساواة والعدالة . . . إضافة الى تعرفهم الى المؤسسات الرسمية ، العلمية والتعليمية والادارية ، والبنى العامة لأنظمة الدول الغربية الحديثة ، التي أسهمت بدخول الاصلاحات التربوية والسياسية إلى الحياة العربية .

أعجب هؤلاء الأعلام بشعارات الثورة ومفاهيمها الجديدة فأفادوا منها ، وأخذوا بإنجازات الغرب الضخمة ومشاريعه الحديثة ، لأن الحوادث علمتهم « **ان المقلدين في كل امة ، المنتحلين أطوار غيرها من الأمم ، يكونون منافذ لتطرق الأعداء اليها . . . حتى يمحي أثر الشهامة ، وتخمد حرارة الغيرة ، ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين** »[1] . . . كما انها لم تعتقهم من ثقافتهم العربية والاسلامية أو تفصلهم عن حضارتهم وتراثهم ، بل استطاعوا بعد أن أوسعوها درساً وبحثاً ، ان يمازجوا ويزاوجوا بينها وبين مباديء الاسلام ، مؤكدين انها لا تتنافى مطلقاً مع روح الدين الاسلامي ، والرؤى الصحيحة التي سار عليها المؤمنون الصالحون ، بناة الدولة الاسلامية العادلة ، ونجحوا في وضع الخطوط العامة لمعالم الحياة الكريمة ، وأضافوا بتجرد وموضوعية موقفاً نقدياً نابعاً من الوجدان الشرقي ، وقناعات المجتمع الاسلامي غير المتعصب حيال الكثير من مفاهيم اوروبة وقيمها الاجتماعية[2] .

---

(١) الافغاني وعبده : العروة الوثقى . الكتاب العربي . لبنان ص ٥٩ .

(٢) البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة . دار النهار . بيروت ١٩٧٧ ص ٩٣ .

أدرك مصلحو النهضة العربية ، أن شعارات الثورة الفرنسية ، تتفق وتعاليم الاسلام في القضايا المركزية ، خاصة في نظامه السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، الذي آخى بين الجميع ، ورفع الجور والحيف عن المستضعفين والفقراء، وسوّى بين أبناء المجتمع الواحد ، في الحقوق والواجبات ، وجعل غاية الحكم ، تعميم الخير ، وتغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، والمنافع العمومية على الفردية والشخصية .

أثر اتصال الغرب بالشرق العربي :

تسربت مبادىء الثورة الفرنسية الى الديار العثمانية ، في أوائل القرن الماضي ، اثر الحملة الفرنسية على مصر ، وما تبعها من اتصال مباشر بالثقافة الغربية وافكارها الاصلاحية الليبرالية ، التي ظهرت بشائرها في فترة والي مصر محمد علي ، الذي قوّى الترابط الثقافي والعمراني بين البلدين ، وبخاصة اثر إرساله البعثات العلمية والوفود المتخصصة الى الخارج ، واستقدامه الخبراء والمفكرين الاجانب ، الذين اضطلعوا بمسؤولية انقاذ البلاد من حالتها المتخلفة ، وتعريفها الى حضارة الغرب ونظمه المتقدمة .

وربما تعرّف اللبنانيون الى اخبار الثورة عن طريق التجارة والعلاقة المتبادلة بين البلدين ، ومن المسافرين اللبنانيين ، الذين كانوا في مصر ، زمن الحملة ، وعرفوا جنود نابليون ، وما اشاعه من مفاهيم اصلاحية ومبادىء ديمقراطية ، فتأثرت بها وبالثورة الفرنسية، عاميتا انطلياس ولحفد عام ١٨٢٠ و ١٨٢١ ، والثورة على ابراهيم باشا عام ١٨٤٠ ومنشورها : « فليرقد بسلام رفات اخواننا المصريين ، الذين ماتوا في سبيل الحرية ، فانهم ضاهوا بشجاعتهم الفرنسيين ، الذين عندما هددوا بالاستئصال لم يستسلموافضلوا الموت »[1] وكذلك ثورة طانيوس شاهين على الحكم الاقطاعي ١٨٥٨ ، التي طالبت بالجمهورية ، مستندة الى مبادئها وعلى رأسها الحرية . إلا أن الأثر الفعلي والمادي لهذه الثورة لم يظهر الا مع بدء الحكم الحميدي في ١٨٧٦ ، عندما أعلن ولو عن خبث ، النظام البرلماني ،

---

(١) رئيف خوري الفكر العربي الحديث ـ ص ١٠٣ .

والحكومة الدستورية المقيدة ، التي ما لبث أن أطاح بها . . . لكنه أرغم تحت ضربات الفئات المثقفة من اهل الاصلاح ، على الرضوخ لرغباتهم ، والتنازل عن السلطة ، وعودة النظام الديمقراطي المقيد بدستور مدحت باشا ، أحد اكبر المتعمقين في مباديء الثورة الفرنسية الذي يقول : « الحرية تحدد للإنسان حدوده ، وتعرّفه موقفه في الهيئة الاجتماعية . وهي التي أوصلت الحكومات المتمدنة الى درجة الرقي . . . »[1] مما ادى الى سقوط السلطان سليم الثالث في عام ١٨٠٧ . وما تهجم احد وزرائه على اعمال أدباء الثورة ومفكريها الا تأكيد على ما نقول : « ان جان جاك روسو وغيره قد قاموا بتأليف الكتب الالحادية المفسدة في سب الأنبياء ، وابطال الاديان وذم الملوك والاشراف . . . حتى يفهم الناس ، ويتذوقوا طعم المساواة والجمهورية ، وينبذوا نظام الاقطاع »[2] .

وهكذا وقف المصلحون العرب ، على عقائد هذه الثورة وآدابها ، وأخذت مداميك الاصلاح تنتقل من الغرب الى الشرق ، وبات من الصعب على الحكم الاستبدادي ، وحماته العتاة أن يقفوا حائلاً بينه وبين العلوم والمشاعر الانسانية .

بدأ أدباؤنا ومفكرونا الأوائل ينقلون ، ويترجمون ، ويعلقون ، وينتقدون حضّاً على العدالة ، والحرية . وهبّت الجماعات المظلومة ، في مختلف الاقطار العربية والاسلامية ، تناصر أدباءها ، وتتمسك بمباديء الاصلاح والتقدم ، وأخذ ظل الاستبداد يتقلص تدريجياً . فأديب اسحق (١٨٥٦ - ١٨٨٥) الذي ينتسب الى مدرستين : مدرسة الفكر الاصلاحي الاسلامي ، ومدرسة البورجوازية الفرنسية[3] . تمرد على الاذلال والخنوع ، بعد ملاحقته في مصر ، ورحل الى باريس فأصدر جريدة « مصر القاهرة » وذيلها بشعارات الثورة الفرنسية . وقال عنها : « تلك ثورة الفرنسيس برزت الى عالم العقل عام ١٧٨٩ ، وصدمت قوة الاستبداد فضعضعتها ، ورفعت عن العيون نقابها ، وعن النفوس حجابها ، فآنست في

---

(١) رئيف خوري : نفسه ١١٣ .

(٢) رئيف خوري : نفسه ١٠٥ .

(٣) د. منير موسى : الفكر العربي في العصر الحديث . دار الحقيقة . بيروت ١٩٧٣ ص ٧١ .

جانبها روح الحرية ، وخلعت جلابيب الرق والعبودية »[1] ويضيف في مكان آخر ، مهاجماً المتآمرين عليها والمتكالبين على وأدها في مهدها قبل ان تطيح بأعمدة الظلم والاستعباد . فيقول : هذه الثورة « ترى الموت في الحرية حياة ، والحياة في الرق موتاً ... رسخت في عالم الوجود قدماً ، وكثر الملأ من حولها ، وأدهشت الدنيا »[2] .

ومن أعلام النهضة احمد فارس الشدياق (١٨٠٤ ـ ١٨٨٨) الذي وعى ما أحدثته الثورة في تغيير عام في الحياة الفرنسية ، وأدرك عملية تحويل نظامها من حالة الضعف والاستبداد الى حالة القوة والعدالة . هذا النظام أضحى بغية المرتجي ، وملاذ المضطهد الملهوف ، وكعبة الملتجي . بينما بلاد الشرق لا تزال خاضعة للسياسة الظالمة ، يتحدث عنها بتحسر فيراها : بقراتٍ سمان تأكل البقرات العجاف : ولذلك يطالب نبهاء الشرق ، ويقسم بحرمة المجد القديم ، والذل الجديد ، ان يقاوم الظالمين ، ويضرم النار في قلوب الجشعين المستبدين :

ولا عز للوطن الا بالامة ولا وجدان للأمة الا بالحرية[3]

لقد اهتم الكثير من ادباء العرب ومفكريهم ، في بداية النهضة الحديثة ، بمفاهيم هذه الثورة ، فانكبوا على قوانينها يدرسونها ، ويقتبسون النصوص ، التي تصون حقوق الانسان ، وتكفل له حياة حرة . فالطهطاوي يتحدث عن بواعث الثورة ودواعيها ، واسباب اندلاعها ويراها الإبنة العاق للنظام الملكي الذي لا يهدأ لها بال ، إلا بعد الانقضاض عليه واسترداد الارادة المسلوبة والشخصية المهدورة والحرية المراقة .

والأفغاني (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧) درس حالة البلاد قبل الثورة ، فرآها تعج بالمحن والمصائب والمظالم ، وشاهدها بعد الثورة فاذا هي منارة للعدل ، وكعبة لرواد

---

(١) أنيس المقدسي : الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث . دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٧ ص ٢٣٨ .

(٢) رئيف خوري ـ الفكر العربي الحديث ص ٢٦٦ .

(٣) أديب اسحق : الكتابات السياسية والاجتماعية . دار الطليعة بيروت ١٩٧٨ ص ١٣٥ .

الحرية . « الدعوة لطلب الحرية في فرنسا ، دعوة حق ومطلب حق ، كم صادف أهلها من المحن ، وكيف استمر فيهم القتل وسالت الدماء ،واليوم فالعالم يقدرهم ولسوف يقتدي بهم »[1] .

كان الأفغاني من اكبر الدعاة الى هذه الثورة ، التي امتلكت تفكيره ، وجعلته يقارع الظلم والطغيان أينما حل فيقول : « أول ما شوّقني للعمل في بناية الاحرار ، عنوان كبير خطير : حرية ـ مساواة ـ اخاء . غرض منفعة الانسان ، سعي وراء دك صروح الظلم ، وتشييد معالم العدل المطلق »[2] .

وولي الدين يكن (١٨٧٣ ـ ١٩٢١) اتصل اتصالا عميقاً بالثورة الفرنسية ومفكريها ، الذين فرشوا أرضها بالنياشين ، واصبح يراعه يخافه كل طاغ ومستبد وقد خاطب السلطان عبد الحميد قائلا : « لأهزن بقلمي اركان قصرك هزاً » وكأني به متأثر بقول ساخر فرنسا فولتير لملك بروسيا فريدريك الكبير : « ليس لي صولجان ولكن لي يراع[3] .

أما أديب اسحق الذي اصبح بالثورة الفرنسية نصير الانسانية ، فقد طلب من بني قومه الثورة على التخلف ، والقضاء على النظم الجائرة ، وازالة الطقوس البالية ، التي تعلم الاستسلام ، وتقضي على الحرية ، مقارناً هذه الحالة بقول روسو عن واضعي الاصفاد والسلاسل قيوداً في اعناق الشعب . « ان عنف الامهات في شد ولدهم باللفائف والأقمطة ، يضعف منهم الاعصاب ، فهن على ذلك ملومات ، واين هذا العنف مما يرتكب الذين يشدون العقول بلفائف الاوهام حتى تضعف بل تتلف اعصاب الأذهان والافهام »[4] .

لكن فريقاً من المفكرين في العصر الحديث ، نظر اليها نظرة عالمية ، لتعاطيها مع حقوق الانسان في مختلف البلدان والاصقاع ، فزعيم الاتحاد السوفياتي لينين

(١) محمد باشا المخزومي : خاطرات جمال الدين الافغاني . دار الحقيقة . بيروت ١٩٨٠ ص ٢١١ .

(٢) رئيف خوري الفكر العربي الحديث ص ١١٦ .

(٣) نفسه ١٢٣ .

(٤) أديب اسحق : الكتابات السياسية ص ٨٦ .

(١٨٧٠ ـ ١٩٢٤) يبين هذه الصورة بقوله : « ان القرن التاسع عشر بأكمله ، ذلك القرن الذي قدّم المدنية والثقافة البشرية كلها هو قرن موسوم بسمة الثورة الفرنسية »[1] وهكذا كانت الثورة ومبادئها بشير خير وصلاح للامم جميعاً ، حتى ليصدق القول : انها ثورة انسانية عالمية ، بقدر ما هي ثورة فرنسية وطنية .

المتنورون العرب والموضوعات الاصلاحية :

في خضم هذه المعمعة الفكرية ، ومن قلب الانتفاضات والتململات ، اندلع لهيب الفكر الغربي ، ليصيب الجماهير العربية ، فينبري المتنورون الى التعبير عن طموحات الجماهير العطشى الى الحرية والعدالة . فسطروا اروع المقالات الاجتماعية والسياسية ، وكتبوا في موضوعات هامة ومفاهيم عصرية ، يفرضون البدائل العلمية ويعلون من قيمة الانسان وحقوقه ، ويرفضون الادعاءات والأراجيف التي تجوّز ابتلاع حقوق الجموع ، وتسوّغ تقدم المنافع الخصوصية والطبيعية على العمومية .

هذه الافكار الاصلاحية سرت في شريان المنطقة العربية والشرقية ، سريان النار في الهشيم، واستطاعت ان تصور ، النفثات الشاكية ، المتألمة امام جبروت الواقع الظالم للحكم الاستبدادي الملكي وحيال عتو النظام الاجتماعي المدعوم من فكر الطبقات الرجعية .

تأثر كتابنا بتعاليم الثورة الفرنسية ومبادئها وواصلوا على الأرض العربية ، نضال زملائهم الفرنسيين وقدموا للانسانية قيماً وافكاراً ، لا يزال يقتدى بها حتى الآن . فتحملوا المسؤولية بكاملها ، واضطلعوا بتبعات افعالهم ، على الرغم من صرامة النظام وشدة وطأته .

وقد تمثلت موضوعات كتابنا ، في الدفاع عن الشعوب المظلومة ، التي سامها حكامها الفقر والارهاق ، وعن الحرية والديمقراطية والعدالة ، التي حاول المسؤولون

---

(١) ز. ك ليفين : الفكر الإجتماعي والسياسي الحديث . ترجمة بشير السباعي ـ بيروت ١٩٧٨ ص ٥٦ .

طمسها ، عن طريق ضرب الحريات ، وذوبان معالم الشخصية العربية وافشاء الجهل ، ونبذ العلم ومؤسساته ، لأن الحكام يخشون ديمقراطية التعليم ، ويعملون على إبعاد الأكثرية الساحقة من المواطنين ، عن المشاركة في صنع الحياة الحديثة ، وعن تجديد الدورة الاجتماعية ، لمعرفتهم ان الشعب الجاهل أسلس قياداً من الشعب المتعلم[1] . وبهذا بدأ الادباء المعاصرون يرسمون الطريق الجديدة ، ويشرعون في مناقشة الحكام ومراجعاتهم ، وتوجيه أصابع الاتهام اليهم . ويفهمون الجماهير أن الحياة ، ليست حكراً لفرد أو فئة أو طبقة ، وأن الحاكم بشر يخطيء ويصيب ، وأن من حق الشعب ، ان يمارس حقوقه في الحرية الشخصية والاجتماعية .

هذه الحرية وقف امامها اعلامنا الكبار ، فأمعنوا في بحثها وشرح تعابيرها ، ونوعوا في تعريفها ، مسلطين شتى الاضواء . فالطهطاوي رأى ، ان من أولى حقوق المواطنية ، التلذذ في الحرية ، التي من شأنها خلق مجتمع العدل والكرامة .

والشدياق تبحر في معنى الحرية ومفهومها فرأى أن تكون مقيدة ، يرعاها القانون ، ويصونها الوعي والانضباط الاجتماعي ، الذي يرفض الطرح الديماغوجي للكلمة ، المترتب عنه ، الفوضى والانفلاش ، واصابة الضرر بمصالح الآخرين ، تحت ما يسمى بالحرية .

وهذا ما يدعوا اليه عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤ - ١٩٠٢) الذي اتسم مفهومه للحرية بالمفهوم الليبرالي ، الذي يعادي تقييدها من قبل السلطات . وقد عبر عن ذلك بقوله : « لقد اطلقت الامم الحرة . حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات ، مستثنية القذف فقط ، ورأت أن تحمل مضرة الفوضى في ذلك خير من التحديد ، لأنه لا ضامن للحكام ان يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد ، يخنقون بها عدوتهم الطبيعية ، الحرية »[2] لكن اديب اسحق انتقد هذه الضالة المنشودة ، واعتبرها مصدر كل امر جليل في الأرض ، ولا نجاح ولا سعادة

---

(١) ذوقان قرقوط : تطور الفكرة العربية في مصر .المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت ١٩٧٢ ص ٢٢٧ .

(٢) د. محمد عمارة : عبد الرحمن الكواكبي شهيد الحرية ومجدد الإسلام، دار الوحدة ، بيروت ١٩٨٤ ص ٨٨ .

الا بها . وأشار الى ورودها في قوله تعالى : ﴿ ولا يضار كاتب ولا شهيد ﴾ البقرة آية ٢٨٢ حماية لها من الاضطهاد . وفي بيان حقوق الانسان الذي جاء فيه : « حد الحرية ، انه يباح للمرء عمل كل ما يريد شرط ان لا يؤذي غيره »[١] .

وقد أصبحت عنده ثالوثاً موحد الذات ، متلازم الصفات ، يكون بمظهر الوجود فيقال له الحرية الطبيعية ، وبمظهر الاجتماع ، فيعرف بالحرية المدنية ، وبمظهر العلائق الجامعة ، فيسمى بالحرية السياسية[٢] . وأديب اسحق كبقية زملائه الكتاب ، وعى سلطة القوانين الوضعية التي تحاول ان تفرغ الحرية من مضمونها ، وتطمس دورها في بناء المجتمع المتمدن ، فأكد ان الحرية والمساواة متلازمان ، فلا حرية مع الامتياز والاستغلال والتعالي[٣] .

وإذا كان اسحق احد اكبر الدعاة الى المساواة والحرية ، فانه ظل مصلحاً متقدماً لا ثورياً بالمعنى المألوف للكلمة لأنه ظل أميناً على المعنى التراثي للفظة ، معارضاً الطرح المثالي والخيالي ، الذي طفق يجتذب الاغرار من الناشئة ، التي تمسكت بحرفية الكلمة ، واعتمدت فكرة المساواة المطلقة ، لاغية التمايز الطبقي والاجتماعي الناتج عن الطموحات والدرجات المترتبة عن السعي والعمل ، مستفيضاً في حديثه عن المساواة ، التي ـ حسب زعمه ـ لا تلغي الدرجات والتمايز الاجتماعي ، لأن المقصود كما يتصور ، أن يكون الجميع سواسية امام القانون وان تكون الاحكام والنصوص القانونية على السواء ، تنصف المظلوم ، وتقتص من الظالم ، الذي كثيراً ما يتلاعب بالقوانين ، فيأتي بها منسجمة مع مصالحه ومنافعه السياسية والاقتصادية . ولهذا وقف اعلام النهضة يقارعون الاحتكار ، ويناضلون ضد استئثار القلة من الشعب ، بخيرات البلاد وثرواتها . فالافغاني يثور على الاستغلال ، وعلى المستغلين (بكسر الغين) ، ويرفع صوته طالباً من الفلاح الثورة على من يمتصون دمه ، وينهبون ثروته : « أنت أيها الفلاح المسكين ، تشق قلب الأرض لتستنبت منها ما تسد به الرمق ، وتقوم بأود العيال ، فلماذا لا تشق قلب

---

(١) رئيف خوري : الفكر العربي الحديث ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) منير موسى : الفكر العربي الحديث ص ٤٩ .

(٣) منير موسى : نفسه ص ٥١ .

ظـالمك ، ولمـاذا لا تشق قلب الذين يـأكلون ثمرة اتعابك »[1] . إتخـذ الافغاني موقفـاً واضحاً من الاغنياء وانضم الى صفوف الشغيلة والجماهـير البسيطة ضـد القلة الغنية ، التي عـدها في مصـاف اعداء حـركة تقـدم المجتمـع ونهوضـه : « مـا أقعـد الهمم عن النهـوض الا اولئك المتـرفون ، يحـرصون عـلى طيب في المطعم ، ولـين في المضجع ، وتـطاول في البنيان . . . اولئـك صـاروا في اعنـاق المسلمـين سـلاسـل وأغـلالاً »[1] ونـادى بحتمية سيـادة الاشتراكيـة ، وذوبان التمـايز الاقتصـادي، لأنه من غير الجائز ان يبقى الارستقراطي يتمتع . بمباهج الحيـاة ، على حسـاب الزراع والصنـاع والشغيلة ـ صـانعي الحياة والحضـارة . وهذا مـا أسـر بـه شخصيـاً لشـاه ايـران ، عنـدمـا رفض الاستجابة لدستور البـلاد ، الذي وضعـه له الافغـاني ، مستعظماً ان يصبـح ـ الشاه ـ امام القانون ، كأحد افراد الـرعية . لكن ايمـان الافغاني بسلطة الشعب جعله ينتفض في وجهـه قائـلاً : « الفلاح والعـامل والصـانع في المملكـة يا حضـرة الشاه انفـع من عـظمتك ومن امـرائك . . . لا شـك يا عـظمة الشـاه انك رأيت وقـرأت عن امة ، استطاعت ان تعيش دون ان يكون عـلى رأسها ملك ، ولكن هـل رأيت ملكاً عـاش دون أمة ورعية »[2] اما الكواكبي الـذي حارب الاستبـداد ، بكل انـواعه وصـوره ، فقد خطا شوطاً أبعد من الافغاني ، عنـدما طـالب ملكية الأمـة للأراضي الـزراعية ، تستنبتهـا وتتمتـع بخيـراتهـا[3] . هـذا المـوقف المتـطرف قـابله مـوقف آخـر لكتّـاب معتـدلـين ، دعـوا الى اغـاثـة المحتـاج ، ومسـاعـدتـه ، وانصـاف المـظلوم بـالـطرق الاصلاحية ، البعيـدة عن العنف والقوة . كـما فعل نجيب حـداد عندمـا قال : « فـما ضر الاغنياء الذين ينفقون امـوالهم على سبـل لا تذكـر ، وفي مذاهب لا تشكـر ، لو صرفوا بعض المـال في تأليف مؤسسـات خيريـة ، ينفقون عليهـا فضلة المال ؟ بـل ما ضر الغني ، الذي يتكبر على الفقير ، والموسـر الذي يحتقـر الفقير العـامل والاجـير ، لـو علم ان المذلـة لا تكون في لبس الكتـان ، والعظمـة لا تـأتي من وراء الحـريـر ، وان الفقير اشد لزوماً في مجتمع الانسان »[4] .

---

(١) جمـال الدين الأفغـاني : الله والعالم والانسـان . دراسـة وتحقيق محمـد عمـارة ، المؤسسـة العـربيـة للدراسات . بيروت ج أول ١٩٧٩ ص ١٠٧ .

(٢) جمال الدين الأفغاني : المصدر نفسه ص ١٠٨ .

(٣) محمد عمارة : مسلمون ثوار . المؤسسة العربية ، بيروت ١٩٧٤ ص ٢٢٧ .

(٤) أنيس المقدسي : الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ، ص ٢٢٦ .

وهكـذا تسـاءل رواد النهضـة عن مشكلة الفقـر والغنى ، وعن التفـاوت الـذي يجعـل القلة تملك الملايـين ، والأكثريـة لا تملك شيئاً ، وانسـاناً يـظن نفسـه من الغنى والكبـر إلهاً ، وانسـاناً يحسب أنـه من الفقر والضعـة بهيم . هذه التسـاؤلات وغيرهـا العـديدة ، التي رأى كتـاب النهضة العـربية الحـديثة ، بعض ايضـاحاتهـا في نصـوص الثـورة الفرنسيـة وشعاراتهـا ، إلا انهم أيقنـوا أنها ليست غـريبـة عن تـاريخهم العـربي والاسلامي ، الحافل بالمواقف الانسانيـة والتعاليم الـديمقراطيـة ، والمفاهيم التي تحض على العدل والمساواة . فمثلاً موضوع الشـورى والنصوص الـدستوريـة ، التي انشأتهـا المجتمعات الأوروبية الحـديثة مبثـوثة في كتـابات وسـير المسلمين الأوائـل . والأفغاني الذي عمل من اجل قيام الدستور ومجلس الشورى ، قد استنـد الى الغرب والاسـلام معـاً . وها هـو رشيد رضـا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥) في سجال مـع قـاريء، يـرد عـلى من يـزعم أن الاصلاح في المـنطقة أوروبي . فيؤكـد أنه أوروبي وإسـلامي ، لأن الاسلام اصـلاح وانقلاب وثـورة . في ثنايـاه وفي سطوره ، تتـراءى بوضـوح جميع الاصـول والنظم الاجتمـاعيـة الحـديثـة . ولهـذا اعتبـر رشيـد رضـا ، ان حـركـة الاصـلاح الأوروبية ، لم تكن الا نذيراً وتنبيهاً لبلاد الشرق ، لقـوله تعـالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ﴾[1] وهنا اعتراف صريـح منه بـأن اوروبة نبهتنـا الى حكم الشورى : « فلولا اختـلاطنا بـالأوروبيـين ، لما تنبهنا من حيث نحن امة أو أمم ، الى هذا الأمـر العظيم ، وان كـان صريحاً جلياً في القـرآن الحكيم »[2] والأقـوال المنقولـة عن الخلفـاء الـراشـدين ، وافعـالهم السمحاء، تؤكـد من دون لبس ومـرية ، عـدم تعصبهم لرأيهم ، اذا مـا ظهـر لهم بـطلهـا وخـطلهـا . فمن عمـر بن الخـطاب مثلا الـذي خطأتـه امرأة في مسـألة فقـال عـلى المـنبـر : امـرأة اصـابت وأخطأ عمر ، وهو القائل : من رأى منكم فيَّ اعـوجـاجاً فليقـومه ، الى قـول أبي بكر بعـد مبايعتـه : وليت عليكم ولست بخيركم ، فـاذا استقمت فاعينـوني » واذا زغت فقوموني .

إن الدين الحنيف والاحاديث النبوية تصر على مبـدأ المشورة . وقـد أفاض عبـد

---

(١) سورة فصلت الآية ٥٣ .

(٢) رشيـد رضا : مختـارات سياسيـة تقديم ودراسـة وجيه كـوثراني . دار الحقيقـة بيروت ١٩٨٠ ص ٢٣ .

الله النديم (١٨٤٥ ـ ١٨٩٦) في حديثه عن الشورى في الاسلام ، فأبان ان الرسول قد لحق بربه من دون ان ينص على نوع الدولة ، او شكل الحكومة ، التي تسوس المسلمين من بعده ، مع العلم انه لم يترك شيئاً من امور المسلمين الا وتناوله . وذلك من اجل غرض رئيس ، وحكمة ارادها الرسول ، وهي ترك الأمر شورى بين المسلمين ، يختارون بأنفسهم ، نظام الحكم الذي يناسب احوالهم ، ويوافق طباعهم وينسجم مع اصولهم وتعاليمهم . وقد استدل النديم ، من خلال اهمية موضوع الشورى ، على لزوم اسقاط الأنظمة الديكتاتورية والحكومات الاستبدادية . ورأى إقامة النظام الديمقراطي البرلماني ، المقيد بسلطة الشعب وبالقوانين العادلة .

والطهطاوي : لم يخرج عن نهج رفاقه المصلحين ، بل شحذ قلمه ليدافع عن الشورى في الاسلام ، وليدحض منتقدي المفاهيم الاسلامية ، بالأدلة والقرائن الثابتة ، التي تنقض اقوالهم ، وتظهر خطأها ، مستشهداً ، لاثبات كل مسألة بالنبي وبالصحابة . ففكرة سلطة الشعب وحكومة الشعب ، مثيلة لحكومة الاسلام الشورية ، وسلطة الحاكم عنده ، يقيدها احترامه للشريعة والقوانين . اما الحكام الاوتوقراطيون المتربعون على عروشهم الذهبية ، المتخمة بطونهم من سرقات الفئات الكادحة واستغلالها . . . انما هم وباء الجنس البشري[٣] .

والطهطاوي على الرغم من اعجابه بمونتسكيو لدرجة أنه وصفه بابن خلدون الافرنج . الا انه تنكر لأفكاره ، ودحض ما جاء في كتابه « روح الشرائع » بأن الاستبداد صفة ملازمة للدين الاسلامي[٢] ، وان الحكم الفردي والحكومة المستبدة ، اكثر ملاءمة للاسلام ، وان الاسلام امتد وانتشر ، بفعل القوة والبطش والغنيمة . وقل نفس الشيء عن المستشرق الفرنسي رينان (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢) الذي لم يكن اقل وطأة على الطهطاوي من مونتسكيو ، عندما ادعى ، في محاضرة القاها في السوربون عام ١٨٨٣ ، ان الاسلام والعلم لا يتفقان ، وأن : « كل من كان مطلعاً بعض الاطلاع على احوال زماننا ، يشاهد بوضوح انحطاط البلدان الاسلامية الحالي ، وتقهقر الدول الخاضعة لحكم الإسلام ، وانعدام معالم الفكر لدى

---

(١) البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ص ٩٧ .

(٢) د. فاروق أبو زيد : عصر التنوير العربي . المؤسسة العربية . بيروت ١٩٧٨ ص ٤٥ .

الشعوب ، التي اقتبست عن هذا الدين ، وحدة ثقافتها وتربيتها »[1] .

والجواب لم يكن على لسان الطهطاوي فقط ، بل جاء عبر مختلف اقلام رواد النهضة ـ من مسلمين ومسيحيين ـ الذين شددوا على اهمية العلم وضرورة تأمين المؤسسات التعليمية ، واعلنوا أن الأديان السماوية ، والدين الاسلامي بالذات ، قد ركزت على العلم ، واستغربوا جهل هؤلاء المستشرقين ، أو تجاهلهم للآيات والأحاديث النبوية العديدة : العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، اطلب العلم ولو في الصين . وما الأوصاف الحسنة ، التي نعت الكواكبي بها العلم في المجتمع ، الا تدليل على صحة موقف رواد النهضة ، وخذل للمغرضين الأوروبيين : « لا يخفى على المستبد أن لا استعباد ولا اعتساف ما لم تكن الرعية حمقاء ، تخبط في ظلامة جهل وتيه عمياء . . . العلم قبسة من نور الله ، وقد خلق الله النور كشافاً مبصراً ، ولاداً للحرارة والقوة وجعل العلم مثله وضاحاً للخير ، فضاحاً للشر ، يولّد في النفوس حرارة ، وفي الرؤوس شهامة»[2] . ويقول في مقام آخر : فالأقوام كالآجام ان تركت مهملة تزاحمت اشجارها ، وسقم اكثرها ، وتغلب قويها على ضعيفها فأهلكه ،وهذا مثل القبائل المتوحشة[3] .

لقد ابان رواد النهضة العربية الحديثة ، ان الحكومات الاسلامية مقيدة اكثر من انظمة اوروبة الليبرالية ، لأن الحاكم الاسلامي ، لا يخرج عن الاحكام الشرعية ، التي هي اساس القوانين الوضعية . فاذا كان روسو اطلق كلمة ان الانسان يولد حراً ، فان عمر بن الخطاب قد أعلن قبله : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً ؟ وصرح ايضاً ما أنا بملك فاستعبدكم ، لقوله تعالى في الملوك : ﴿ ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ النمل آية ٣٤ . وما قوله المأثور ، كلكم راع وكلكم مسؤول ، وجوابه الشهير للبدوي : « الحمد لله الذي جعل فيكم من يقوّم اعوجاج عمر» ، إلا تأكيد واصرار على أن للأمة والقوم كل الحق في محاسبة حكامها ومراقبة اعمالهم .

---

(١) البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ص ١٥١ .

(٢) (٣) رئيف خوري : الفكر العربي الحديث ص ٢٥٥ و ص ٢٥٩ .

وهكذا يتبين ان لا فرق بين مبادىء الشرع الاسلامي ومبادىء القوانين السياسية التي ترتكز إليها انظمة الحكم الحديثة في اوروبة والعالم الليبرالي ، خاصة اذا استطاع فقهاء المسلمين ، تفسير الشرع الاسلامي ، تفسيراً يتفق مع حاجات العصر والبيئة ، ويأتي متطابقاً مع الدروس والعلوم التي ولدها العقل البشري . لذلك انكب اعلام النهضة ، يستلهمون الماضي الحافل بالقيم والدراسات المفيدة ، ويستقرئون الحياة المعاصرة ، عبر المواقف والمآثر الأصيلة ، فمازجوا بين الاثنتين ، ليعطوا مفاهيم وحكماً ، جديرة بالأخذ والاهتمام . من أولى هذه المفاهيم ، ان الحرية ، التي يحققها الشعب ، بعد صراعات ومعاناة مريرة ، تؤخذ ولا تعطى ، مثلها كمثل الاستقلال ، الذي يؤخذ ايضاً ، ولا يعطى . ولربما ادرك هؤلاء ان الثورة الحقيقية ، المنبثقة من الجماهير الشعبية ، يجب ان تواصل كفاحها في خدمة الطبقات والفئات الاجتماعية ، وان تصون حقوقها ومصالحها ، وتحفظ دورها الريادي في بناء الأمة والمجتمع . محترسة من الاعيب الزعماء والحكام ، الذين يتربصون بها الدوائر ، وينتهزون كل الفرص للإنقضاض عليها وافتراسها . فثورة « الاتحاد والترقي » مثلاً ، التي شبهها أحدهم بالحمَّام للانسان ، تنبه فيه الدم ، وتوقظ عنده النشاط ، والتي جيرت لقائد او زعيم ، خرقت حقوق الاكثرية . وهذا ما حدث للثورة العملاقة الفرنسية يوم ابتعدت عن مبادئها ، وانحرفت عن شعاراتها ، فوقف الكتَّاب ينتقدونها ويؤلبون الرأي العام ضد الممارسات اللاديمقراطية ، مستأنفين النضال ضد شتى انواع الاستبداد ، الذي تحدث عنه الكواكبي في كتابه طبائع الاستبداد فقال : « الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان ، التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء ، بلا خشية حساب ولا عقاب»[1] وقد أجمل الكواكبي مساوىء الاستبداد والاضرار التي تلحقه بالأمة ، فحمل عليها حملة شعواء فقال : « لو كان الاستبداد رجلاً ، وأراد أن يحتسب وينتسب لقال : « انا الشر وأبي الظلم ، وامي الاساءة ، واخي القدر ، وخالي الذل ، وابي الفقر ، وبنتي البطالة ، وعشيرتي الجهالة ووطني الخراب »[2] .

---

(١) (٢) علي المحافظة : الإتجاهات الفكرية عند العرب . الأهلية للنشر بيروت ١٩٧٨ ص ١٧١ و ص ١٧٤ .

بهـذا يتبين ان كتـاب النهضة العـربية الحـديثـة سلطوا الأضـواء عـلى شعـارات الثورة الفرنسية ، يمحصونها ويغربلونها ، يتفاعلون مع ايجابيـاتها وينقـدون سلبياتهـا ، لثقتهم ان لا وطن في حـالة الاستبـداد ، ولا حريـة في وطن الاستعباد ، ولا حيـاة في دولة الظلم والاستغلال .

الفصل الرابع

الطباعة والوجه الحضاري في عصر النهضة

تعتبر الطباعة في العصور الحديثة من أهم أسس الحضارة والنهضة. فهي عماد العلوم والمعارف الانسانية . بفضلها تمكن الانسان من الاطلاع على أقدم حالات الأمم ، ومعرفة ما طرأ عليها من تبدلات . كانت على مدى الأزمنة ، احدى الوسائل الهامة ، لنقل المعارف والعلوم ، والاقتباس بالنظم الحديثة وبخاصة بعد تلاشي الوسائل التقليدية القديمة ، التي كانت تلجأ الى المآذن والمنابر والمنادين والرسل ، لاعلان الأخبار السياسية وغيرها في القضايا والأمور الحياتية[1] .

ونعتقد أننا لا نتبين قيمة الفن المطبعي ، إلا إذا أدركنا مدى الصعوبة التي كان يلاقيها نقلة الأخبار والآداب في الزمن القديم . فعلى سبيل المثال ، اعتمد الكتّاب والأدباء ، على نسخ مؤلفاتهم وكتاباتهم المتنوعة ، باليد ، التي كانت تستدعي قضية أيام بل وأسابيع لإنجاز هذه المهمة . وهذا بالطبع عمل شاق ومتعب ، وهو بالإضافة الى تكاليفه المضنية ، ذو مردود ضئيل على الناس لأن الغالبية العظمى لا تستطيع شراء النسخ المحدودة لغلاء ثمنها . وهو فوق ذلك قد أوجد شرخاً فكرياً وثقافياً بين أبناء البلد الواحد . وأصبح الوعي مقتصراً على فئة معينة ، قلما تجاوزها الى القطاع العام الذي ظل بأكثريته جاهلاً أفانين الحضارة

---

(١) ذوقان قرقوط : تطور الفكرة العربية في مصر ، المؤسسة العربية للدراسات، لبنان ١٩٧٢ ص ١٤٩ .

المدونة في مخطوطات محدَّدة . لكن ظهور المطبعة قد بدّل من واقع الحياة ، وجعل النسخ ضرباً من المحال ، خاصة بعد أن طبع من الكتاب الواحد مئات وألوف النسخ ، التي وضعت بين أيدي الناس للاطلاع عليها والإفادة منها ، واصبحت الدراسات العلمية والأدبية والفنية وغيرها في فترة وجيزة ، ملك الجميع من دون تفرقة وتمييز[1] : تعمل على توعيتهم والنهوض بهم إلى مصاف ارقى الدول . ويرجح المؤرخون لفنّ الطباعة العربية ، ان الحروف العربية ظهرت للمرة الأولى ، في مدينة نانو في ايطاليا عام ١٥١٤ . ويعتقد أن الكتاب العربي الأول ، الذي تناقلته أيدي الناس ، كان كتاب الأورلوجيون ، المعروف بكتاب (السواعتية) ، نظراً لأهمية معرفة رجال الدين المسيحي ـ اتباع الكنيسة البيزنطية ـ لأوقات الصلاة[2] . وطبع في المرحلة نفسها في حدود ١٥٩٣ ، كتاب القانون لابن سينا ، في مجلد ضخم .

والطباعة كأي وسيلة اخرى من وسائل نشر المعرفة والوعي ، تعرضت لهزات من قبل المحافظين المتضررين منها . فعاداها المحافظون التقليديون ، الذين رفضوا خروج الناس من حالات الجهل والتخلف ، خوفاً على سلطتهم ومصالحهم ، ووقف منها بعض ابناء الجيل الجديد ، وللأسباب نفسها ـ المصلحة والتحكم والاستبداد ـ ليفرض رأيه ومعتقده ويبرر مظالمه . فنابليون بونابرت عندما غزا مصر عام ١٧٩٨ ، جلب معه مطبعة ، استخدمها سلاحاً من جملة اسلحته التي تؤمن له النفوذ والهيمنة . ويظهر ان الشرق كان سباقاً في معرفة هذا الفن ، فقد عثر رجال الآثار في بابل القديمة ، على قوالب حروف ناتئة ، تعود الى ما قبل المسيح بقرون عدة ، وأن الكلدانيين كانوا يطبعونها على الآجر[3] . وان بلاد الصين وكورية عرفت هذا الفن أيضاً بحروفه المتنوعة في اواسط القرن الحادي عشر الميلادي . في حين أن اوروبة لم تعرف هذا الفن إلا في منتصف القرن الخامس عشر ، بالألواح الخشبية **La Xylagraphie** ، عندما طبع حفارو الخشب فيها عام ١٤٠٠ أوراق الخشب والصور المقدسة . وقد رجّح المؤرخون اختفاء هذا النوع من الطباعة الى عام ١٤٩٠ وذلك بسبب استخدام طرق عملية اخرى ، اكثر فائدة توّجتها مطبعة يوحنا غوتنبرغ

---

(١) شوقي ضيف : الأدب العربي المعاصر في مصر . دار المعارف ـ مصر ١٩٧٤ ص ٣٣ .

(٢) حنا فاخوري : تاريخ الأدب العربي ، ص ٩٠٧ .

(٣) د. علي شلق : الأدب العربي الحديث . منشورات عويدات لبنان ١٩٦٩ ص ٤٤ .

الذي صنع حروفها النحاسية عام ١٤٣٦ ووضعها موضع التنفيذ عام ١٤٥٠ ، وقد عرفت المطبعة آنذاك صعوبات جمّة. ابرزها قيام المسؤولين في الدولة بحظر طبع المؤلفات العلمية والدينية ، ومعارضة النساخ لها وخاصة المتنفذين منهم ، لتشابهها بالمخطوطات التي كانت تباع بأسعار عالية جداً ، لكن مثل هذه المعوقات وغيرها الكثير ، لم تؤثر في التقدم الاجتماعي فسرعان ما تداعى النظام الإقطاعي القديم ، ونشأ مجتمع المدنية ، وظهرت فئات جديدة دعت الى توسيع الوحدات السكانية والجغرافية ، واعلنت اهمية ايصال المعارف اليها والانفتاح على حضارة الآخرين . والعمل على تأسيس المطابع التي اخذت نتائجها تغزو بلاد العالم .

أسباب تأخر الطباعة في البلاد العربية :

أكّد كثير من الدارسين لفن المطابع في المناطق العربية ، ان تركيا ، بمنعها دخول هذه الآلة الى داخل امبراطوريتها بحجة الحفاظ على الكتب المقدسة ، والحرص على عدم تحريفها ، لم تكن في الحقيقة تهدف إلّا إلى حماية مصالحها ، والخوف من فضح سياسة التجهيل والتوهيم التي تتبعها لاستمرار تحكمها وبقاء سلطتها . والواقع ان تركيا ، ومنذ زمن مبكر وعت النتائج السلبية التي ستعود عليها من خلال تبادل الأفكار ، والاطلاع على حياة الآخرين ، وأدركت تماماً أن الأمة المتعلمة التي ترفض الخنوع والاستبداد ، وتأبى الذل والضيم ، يصبح من الصعب اخضاعها والسيطرة عليها . وهذا ما عبّرت عنه عند اقدامها على اقصاء مطبعة ابراهيم باشا عن ولاية سورية المخصصة لطباعة المنشورات والأوامر العسكرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، عقب خروج جيشه المصري منها عام ١٨٤٠[١] .

ويعود فضل ادخال الطباعة إلى الأراضي العثمانية ، إلى الطائفة اليهودية ، عندما أحضر أحد علمائها المدعو اسحق جرسون مطبعة بالحروف العبرية ، لنشر العقيدة اليهودية وتعاليمها الدينية . فقد اصدرت المطبعة أكثر من مائة كتاب ادبي وتاريخي وطبي ، على الرغم من قرارات السلطان العثماني آنذاك ، القاضية بالمنع

(١) د. اسكندر لوقا : الحركة الأدبية في دمشق . دمشق سنة ١٩٧٦ ص ٥٢ .

والرفض . اما المطبعة بالحروف العربية ، فقد ظهرت في تركيا في السنوات الأولى من القرن الثامن عشر ، وذلك اثر اتفاق ابن سفير تركيا في باريس المدعو سعيد الحلبي مع المجري ابراهيم افندي ، على تزويده بمطبعة عربية ، بعد أن أجرى اتصالات عديدة ومراجعات مع السلطان العثماني احمد الثالث ، الذي اصدر فرمان الموافقة المبدئية ، بعد أن أجاز مفتي الإسلام عبد الله أفندي عام ١٧١٦ طباعة الكتب المدرسية واللغوية مشترطاً عدم التعرض الى الكتب الدينية والأحاديث النبوية . وبوفاة هذا السلطان، توقف الفن المطبعي لسنوات ، ثم عادت من جديد ، بزخم اكبر في عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧) الذي عرف بحبه للآداب والمعارف وانفتاحه على حضارة الآخرين وبخاصة بعد أن وافقه رجال الدين، ومفتي الاسلام بجواز طبع كتب الشرع والدين استناداً الى القول المأثور بها : « الأمور بمقاصدها » .

والحقيقة ان قانون نظام المطابع الذي صدر في عام ١٨٥٧ لم يكن يهدف برأينا الى تنظيم وجود المطابع في اراضي الامبراطورية العثمانية ، كما تراءى لبعض الدارسين ، بقدر ما كان محاولة جديدة من قبل الدولة لتحديد صلاحيتها ، ووضع الرقابة الشديدة عليها . ودليلنا هو اقدام الحكومة في السنة نفسها على انشاء مطبعتها « السلطانية » تمريراً لمخططها والالتفاف حول سياستها . فاهتمت بطباعة الكتب المدرسية والدينية ، وطبعت جريدة « الجوائب » الاسبوعية لأحمد فارس الشدياق حتى ١٨٧٠ عندما انشأ مطبعة « الجوائب » المزوَّدة بأحدث أدوات الطباعة[1] . والتي يرجع اليها الفضل في تعريف الناس ، بالثروة الأدبية الضخمة ، المخزونة في اماكن متفرقة من العاصمة التركية .

الطباعة في لبنان :

اكدت معظم دراسات تاريخ الفن المطبعي في لبنان ان الهدف الاساسي من وجود هذا الفن كان دينياً ، يعود الى الكنيسة المسيحية الغربية ، التي سعت في اواخر القرن السادس عشر إلى ضم الكنيسة الشرقية وأكبر عدد من الاتباع

---

(١) عماد الصلح : أحمد فارس الشدياق ـ دار النهار، بيروت ١٩٨٠ ص ١١٠ .

والمريدين . وذلك عندما أرسل بابا روما ، راهبَيْن يسوعيين إلى لبنان ، بقيا فيه سنة كاملة ، درسا فيها حالة البلاد من الناحية الاجتماعية والدينية ، واتصلا بالطائفة المارونية فيه ، وقوّما الاختلافات الشكلية العالقة بينها . ولما عادا الى روما بصحبة تلميذَيْن احدهما من لبنان ، اقترحا على بابا روما ، قبول الطلاب لمهمة الكهنوت من جهة ، وتأسيس مطبعة لنشر الكتب الدينية التي تحتاجها الكنيسة المارونية من جهة اخرى[1] .

وهكذا ازداد الاهتمام بهذا الفن ، واصبحنا نسمع بين الحين والآخر بالكتب المطبوعة كالنص العربي من كتاب التعليم المسيحي الذي طُبع عام ١٥٨٠ ، وكتاب خدمة القداس باللغة السريانية لعام ١٥٩٤[2] .

ويرى الدارس لتاريخ نشأة الطباعة في لبنان ، دور الإرساليات الأجنبية والطوائف الدينية في ارساء الفن المطبعي وتعزيزه .: من خلال إقناع البابا نفسه ، وكبار المسؤولين الدينيين في روما ، بفائدة تأسيس مطبعة في لبنان ، تضمن وسائل التبشير من كتب ومنشورات وكراريس ، وتؤمن اطلاع اللبنانيين على مختلف أنواع العلوم والمعارف .

وبالفعل ، وبإيعاز من البابا الماروني ، تم تأسيس اول مطبعة في لبنان عام ١٦١٠ في دير قزحيا ، شمال قرية اهدن ، وطبعت كتاب « المزامير » باللغة السريانية واللغة العربية المكتوبة بالحرف الكرشوني[3] ، وعدداً من المؤلفات القديمة . وهي لا تزال موجودة حتى اليوم[4] ، على الرغم من أقاويل شككت بوجودها مدّعية انه من غير المنطقي ان يبعث الكرسي الرسولي مطبعة الى بلد غالبية أهلها جهلة ، لا يقرأون ولا يكتبون ، وفقاً لأقوالهم ، في حين كان الأجدر به ، وبمصلحة الكنيسة بقاء هذه الآلة الطابعة في مركزها الأصلي (روما) لمراقبة جميع

---

(١) د. خليل صابات : تاريخ الطباعة في الشرق العربي . دار المعارف مصر ، ١٩٦٦ ص ٥٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٥ .

(٣) أسامة عانوتي : الحركة الأدبية في بلاد الشام . المكتبة الشرقية . بيروت ، ١٩٧١ ص ٤٥ .

(٤) أكد لي ذلك احد ابناء اهدن وجاءني بصور تثبت وجودها الحالي .

الكتب الدينية التي يراد طبعها وترويجها بين ابناء الطوائف الشرقية .

ويظهر ان لبنان الذي عرف اول مطبعة في أراضيه (دير قزحيا) على يد رجال الدين الأجانب ، سرعان ما ادرك ابناؤه أهمية هذا الفن في نشر الأفكار وتوعية الناشئة . فأقدموا على تأسيس مطابعهم كالشماس السوري عبد الله زاخر ، الذي درس العلوم الكنسية ، على يد كبار القساوسة ، وأخذ العربية على يد الشيخ سليمان النحوي ، فأنشأ مطبعته عام ١٧٣٣ دير ماريوحنا ، اثر لجوئه الى لبنان عام ١٧٢٨ ، بعد الخلاف الحاد ، الذي حدث عام ١٧٢٠ بين المذهب الكاثوليكي والمذهب الأرثوذكسي ، والذي اصدرت كنيسته الأرثوذكسية قراراً بتجريم وملاحقة أتباع المذهب الكاثوليكي ، وأمراً بقتل الشماس زاخر المذكور ، لما تبيّنت خطورة مواقفه الهجومية ضدها ، ودفاعه المستميت عن الكثلكة .

والواقع ان الشماس زاخر ، استطاع ان يطبع كتب معتقده الديني ، وينشر تعاليمه ويدعو الى الايمان به ، واتّباع طريقته . فصدر عن هذه المطبعة ، التي أمّن لها كل ما يلزم من حروف وآلات وتجهيزات ، ما يقارب اربعة وثلاثين مؤلفاً ، معظمها دينية وهو ما أضفى على هذا الدير شهرة كبيرة .

وقد أتى الرحالة فولني على ذكرها ، وأشار الى ان اهمية الدير ترجع الى المطبعة العربية ، وهي « الوحيدة التي صادفت نجاحاً في الامبراطورية العثمانية »[1] إلا أنها لم تعمّر بعد ذلك طويلاً ، إذ عرّج رحالة آخر ، على المنطقة بعد سنوات فوجد المطبعة متوقفة ، بسبب قلة وجود الورق ، وانصراف الناس عن القراءة والمطالعة [2] .

في هذه الفترة ، طرأ على علم الطباعة ، حدث هام ، ادخل تعديلات على نوعية المؤلفات وكميتها المطبوعة ، غيّرت من نظرة الناس الى دور مؤسسة الطباعة ، وجعلتهم يدركون قيمتها في بناء الحركة الفكرية والنهضة العربية الحديثة . وهذا

---

(١) جبران مسعود : لبنان والنهضة العربية الحديثة ـ بيت الحكمة بيروت سنة ١٩٦٧ ص ٤٨ .

(٢) أسامة عانوتي : الحركة الأدبية ص ٤٧ .

الحدث هو تأسيس المطبعة الأميركية في بيروت[1] عام ١٨٣٤ حيث كثرت الكتب المدرسية والمؤلفات العلمية التي نهل من ينابيعها ، كتّاب النهضة الحديثة ومفكروها ، ومساهمتها في مساعدة المؤسسات الأهلية ، على اقتناء المطابع ، واستكمال المعدات ، وتدريب العمال على معرفة أصول العمل المطبعي . وقد عبّر عن ذلك مديرها أسعد خير الله في حفلة اليوبيل المئوي لها عام ١٩٢٢ بقوله : « ان **المطبعة الاميركية ، بقيت منفردة بتجهيز المدارس بالكتب المدرسية ، مدة أربعين سنة ، إلى أن ظهرت مطابع أخرى ، استعملت حروفها وساهمت معها في هذا العمل . . .** »[2]، وهي على الرغم من توقفها ، اثناء الحرب المصرية العثمانية الأوروبية عام ١٨٤٠ فإنها استطاعت في السنوات اللاحقة ان تعوِّض ما فاتها ، وتطبع عشرات الآلاف من الكتب الأدبية والعلمية ، المترجمة والمؤلفة ، وبخاصة بعد ظهور المطبعة الكاثوليكية ، واشتداد الخلاف بين الطائفتين المذكورتين . حيث رأينا ان الهدف الاساسي لإنشاء مطبعة الطائفة الكاثوليكية ، يعود من جهة ، الى منافسة الطائفة الاورثوذكسية ، والحد من نفوذ مطبعتها التي اخذت مؤلفاتها الضخمة ودعايتها الواسعة تغزو نفوس اللبنانيين ، ومن جهة أخرى الى الرد عليها ، ودحض اقوالها وبث تعاليمها بغية جذب المؤيدين . وقد أدت هذه المنافسة الى تنشيط حركة الوعي في طول البلاد وعرضها ، وساهمت في تبلور عوامل النهضة من صحافة ومدارس . . . وان كانت هذه الأخيرة قد انحصرت مهمتها ، في بداية نشأتها ، بالتعليم الديني والتبشير به .

ومما زاد في نشاط المطبعة الكاثوليكية وتدعيم وجودها ، كون المسؤولين عن هذه المطبعة على علاقة طيبة مع الحكومة العثمانية ، التي على ما يبدو ، سهّلت عملها وقدمت لها المساعدة ، من خلال تعزيز مكانتها بمطبعة جديدة كاملة المعدات سنة ١٨٥٤ . وخير دليل نقدمه في هذا الشأن هو موقف السلطات العثمانية في الآستانة ، من سؤال متصرف لبنان الذي استوضحها سراً وبصفة رسمية ، عن موقفها الرسمي تجاه المطبعة ، والمنشورات غير المرخصة ، فأجيب بحديث مقتضب (يُطلب

(١) وكانت قد اسست قبل ذلك في مالطا عام ١٨٢٢ .

(٢) الشيخ ابراهيم الحوراني : في فجر النهضة الحديثة، القاها د كمال يازجي ـ مطبعة الرسالة ١٩٦٠ ص ٣٢ .

إليه اعتبار المطبعة ومنشوراتها قانونية مرخصة) .

لكن هذه الحركة المطبعية ، لم تقتصر على رجال الدين ، بل سرعان ما استقطبت كبار كتّاب النهضة ومفكّريها ، الذين عملوا في التصحيح والتأليف والترجمة ، وقيام المطابع التي طبعت مختلف أنواع الكتب ، كمطبعة « الجوائب » لأحمد فارس الشدياق ، التي ظهرت عام ١٨٧٠ ، ومطبعة المعارف عام ١٨٦٧ لبطرس البستاني .

مرت الطباعة ، في دورين او مرحلتين رئيستين سواء بالنسبة الى نوعية الانتاج او الى قدرتها الفنية . على صعيد النوعية ، وهي الفترة التي سبقت تأسيس المطبعتين الاميركية واليسوعية ، الكاثوليكية ، حيث كانت المطابع قليلة العدد ناقصة التجهيز ، قلَّ نتاجها عموماً ، واقتصر عملها على المؤلفات الدينية . اما على صعيد القدرة الفنية ، وهي الفترة التي تحددت آفاقها الجديدة بعد تأسيس هاتين المطبعتين ، فقد اصبحت المطابع اكثر عدداً ، واكمل تجهيزاً ، واكثر تنوعاً وانتاجاً ، خدمت الحركة العلمية والأدبية والفنية خدمة جلى[١] .

وعملت على توالي صدور المطابع وخاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، كالمطبعة السورية التي أنشأها خليل خوري في بيروت عام ١٨٥٧ ، والمطبعة الشرقية عام ١٨٥٨ لصاحبها ابراهيم النجار ، والمطبعة الوطنية لعام ١٨٦٥ لصاحبها جرجس شاهين ، ومطبعة المعارف عام ١٨٦٧ لبطرس البستاني وخليل سركيس .

هذه الحركة المطبعية لم تقتصر على مدينة بيروت فقط ، بل تعدتها إلى مختلف المناطق اللبنانية، فعرفت بلدة بيت الدين عام ١٨٥٢ أول مطبعة لها ، لصاحبها حنا الأسعد المعروف آنذاك بأبي صعب . وتأسست في أهدن عام ١٨٥٩ مطبعة لرومانوس يمينْ ويوسف الدبس ، وقل مثل ذلك في مناطق اخرى، ساهمت كلها في تفتيح عقول الناس وايقاظ النهضة الحديثة .

---

(١) نفس المصدر ص ٣٠ .

الطباعة في سوريا :

أظهرت مختلف الدراسات المهتمة بتاريخ نشأة الطباعة في الديار السورية ، أن الدولة العثمانية ، عمدت الى منع ادخال هذا الفن الى هذه المنطقة العربية بالذات ، خوفاً من ان يطّلع الناس على ما يجري في العالم ، فيدركوا ابعاد السياسة العثمانية ، التي تهدف الى منع تقدم البلاد ، والى ابقاء الجهل والتخلف .

لكنّ هذه السياسة لم يكتب لها النجاح ، فقد ظهرت بواعث عدة ، فرضت على الدولة العليّة ، إجراء تعديلات في سياستها الداخلية ، وإصدار قرارات اصلاحية كي تحد من الضغوط التي بدأت تتجلى معالمها في تدخل قناصل الدول الأجنبية من خلال التذرع بحماية حركات التبشير والطوائف الدينية . حيث رضخت الدولة فعلاً الى رغبات رجال الدين المسيحي واليهودي ، وقبلت بإدخال المطبعة الى سورية ، خوفاً من ان تتهم بالتعصب . وان كنّا نعتقد ، انها حاولت اقصاء هذه الآلة عن رعايا العرب المسلمين وتعريفهم بها ، عندما وضعت فيها بعد شروطاً قاسية على نوعية الكتب المطبوعة .

ويرجح ان تكون مدينة حلب هي أسبق المناطق السورية ، لمعرفة هذا الفن : فقد تأسست اولى المطابع فيها بالحروف العربية عام ١٧٠٢ ومنهم من يقول ١٧٠٦ لصاحبها البطريرك الانطاكي اثناسيوس الرابع دباس ، الذي رحل في ١٦٨٩ إلى بوخارست واطلع على مطبعة حاكم قسطنطين سيناجوفو ـ احدى مقاطعات ولاية الافلاق في رومانيا ـ الذي بسبب علاقته الودية والقوية مع البطريرك دباس، وايثاره لرجال الكنيسة الشرقية ، وتزودهم بالكتب الدينية ، خلّف شكوكاً حول أصل هذه المطبعة . فقد اعتقد بعضهم انها نفس مطبعة ولاية الأفلاق ، وذهب آخرون الى أن الشماس عبد الله زاخر ـ صاحب الفضل في اعداد حروف المطبعة العربية ـ نقش أمهات حروفها وسكها بمؤازرة قسطنطين . وقد أيد هذا القول البطريرك دباس نفسه في مقدمة كتاب « المزامير » حين قال : « حيث انّ الله وفقنا الى عمل طبع الحرف العربي . . . »[1] على كل حال ، لم تعمر هذه المطبعة طويلاً ، اذ توقفت في

---

(١) أسامة عانوتي : الحركة الأدبية . ص ٤٦ .

سنة ١١٧١ لاسباب ارجعها بعضهم الى تكاليفها الباهظة وأجواء البلاد غير المشجعة لنموها وتقدمها . وبقيت حلب بلا مطبعة ، زهاء مائة واربعين سنة ، الى حين انشأ المدعو بلفنطي من بلدة سردينيا في ايطاليا مطبعته التي اخرجت ديوان ابن الفارض في سنة ١٨٤١ ، والتي اغلقت ايضاً بسبب عجزها عن تغطية نفقاتها .

هذا في حلب ، اما في دمشق فقد تأخر وجودها الى عام ١٨٥٥ ، حيث استقدم حنا الدوماني اول مطبعة حروف ، عرفت باسم « مطبعة الدوماني » او « مطبعة الدومانية »[1] اصدرت عدة كتب ادبية ودينية قبل ان تتوقف عام ١٨٨٥ . والطابعة الثانية في دمشق ، تعود الى عام ١٨٦٤ ، عندما اقدمت الدولة العثمانية على انشاء اول مطبعة لها ، بالعربية والتركية باسم « مطبعة ولاية سورية » وذلك لطبع جريدتها الاولى ايضاً « سورية » ، دعاية لها وامتصاصاً لنقمة المصلحين الذين كانوا ينعتون سياستها بالتجهيل . ثم اسست أيضاً مطبعة اخرى عرفت « بالمطبعة العسكرية » ، اهتمت بمطبوعات الجيش ونشر التقاويم واللوائح العسكرية . لكنها لم تعش طويلا اذ توقفت عن العمل ، وحوّلت اعمالها الى « مطبعة ولاية سورية » .

ان دراسة نشأة المطبعة السورية وما صدر عنها من اعمال اظهرت بوضوح عجزها عن مواكبة نهضة بلاد مصر ولبنان الطباعية ، وذلك بسبب وضعها الخاص المميز عن بقية الأقطار العربية ، باستقلال شبه ذاتي ، مكّنها في زمن قصير من نشر مؤلفات كثيرة ، من ضمنها كتب دمشقية . في حين قلّلت رقابة المطبوعات السورية من نتاج الكتب المطبوعة ، وفرضت قيوداً شديدة على كل كتاب مطبوع، اقلهارخصة من المسؤولين ، تستغرق سنة كاملة للحصول عليها . وهذا ما يفسِّر سبب قلة عدد المطابع فيها ، حيث نرى ان ثلاثاً أسست قبل تولية السلطان عبد الحميد في ١٨٧٦ ، وان خمساً اقيمت في عهده ، توقف معظمها عن العمل ، وتسعاً فور صدور دستور ١٩٠٨ وتسلم جمعية الاتحاد والترقي التي راحت تروّج للطباعة ، بهدف تدجين العرب ، واقناع الواعين منهم بموقفها المعارض لسياسة التجهيل

---

(٢) عرفت دمشق المطبعة الحجرية كما ذكرنا آنفاً في زمن ابراهيم باشا .

المفروضة من قبل حكومة عبد الحميد البائدة(١) .

وعلى العموم ، بقيت الكتب وخاصة النافعة منها قليلة ، لأن الطابعين كانوا ينظرون الى ارباحهم الشخصية ، وليس الى نوعية الكتاب وقيمته الأدبية او التراثية . ولولا الكتب المطبوعة في مصر واوروبة كما يقول محمد كرد علي ، « لما وجدنا بين أيدينا من تركة السلف الصالح ما فيه الغناء في العلوم والآلات القديمة»(٢) على الرغم من ألوف المخطوطات والكتابات القديمة التي لا تزال محفوظة في مختلف الأقطار العربية والغربية ، والتي يبقى الأمل معقوداً على ابناء العربية ، ليسدّوا النقص الذي خلّفه الآباء .

الطباعة في مصر :

عهدت مصر المطبعة ، لأول مرة ، زمن الحملة الفرنسية ، على يد قائدها بونابرت الذي رأى لأسباب سياسية واعلامية ، اهمية وجود مطبعة بحروف عربية ، تعينه من جهة في التقرب من المصريين ، وتعريفهم بأفكار ومبادىء الثورة الفرنسية ، وتساعده من جهة اخرى ، في توضيح سبب الحملة ، التي جاءت كما يدّعي لنشر الوعي بين المصريين وانقاذهم من حكم المماليك العثمانيين الجهلة ، ونعتقد ان نابليون بحملته على مصر ، وبالصورة التي تمّت فيها ، لم يكن يهدف الى احتلال مصر بقوة السلاح والحرب فقط ، بقدر ما كان يطمح الى غزوها بقوة العلم والمعرفة ، ليُضفي عليها صفة الانقاذ ، وليكون له مجدان : مجد السيف ومجد العرفان ، فهو من خلال مطبعته هذه ، استطاع ان يعرف جنوده وضباطه بأوامره وتعليماته ، كما استطاع في خلالها ايضاً ان يصل الى المصريين ويوزع منشوراته ، ويحضهم على مساعدته وتقديم المعونة لرجاله ، وقد تحدث بعض من أرّخ لهذه الحملة ، فقال ان هذه المطبعة ، عرفت اثناء اجتيازها البحر المتوسط ، بمطبعة الجيش البحرية ، وحين حطّت في ثغر الاسكندرية ، دعيت بالمطبعة الشرقية الفرنسية ، ولما استقرت في القاهرة عرفت بالمطبعة الأهلية . على أن نابليون أرجعها معه ، عندما اضطرته مقاومة المصريين الى الانسحاب في ١٨٠١ ، بالرغم من تحفظ

---

(١) د. اسكندر لوقا : الحركة الأدبية في دمشق ص ٥٨ .

(٢) محمد كرد علي : خطط الشام ج ٤ مكتبة الحياة - دمشق سنة ١٩٨٣ ص ٨٧ .

البعض ازاءها ، وزعمهم ان الفرنسيين تركوها في الأراضي المصرية .

ويبدو من وقائع احداث هذه الفترة ، ان مصر ظلت حوالي عشرين سنة من دون مطبعة ، بسبب سوء أحوال البلد العامة ، والجهل بالمستحدثات العلمية والآلات الجديدة ، التي اخذ كثير من المصريين يعدونها من مخلفات الفرنسيين الاستعماريين . وفي الوقت نفسه بسبب الأوضاع الأمنية التي صاحبت تنازع القوة المنهارة في مصر، من مماليك واتراك، على السلطة ، حتى اعتلى الحكم فيها ، الخديوي محمد علي باشا الذي ارسل في البعثة العلمية الاولى لعام ١٨١٥ ، الطالب نقولا مسابكي ، السوري الجنسية ، للتخصص في سبك الحروف ودرس فن المطابع ، والذي اصبح مديراً لمطبعة بولاق الشهيرة التي اشتراها محمد علي واقامها في بولاق عام ١٨٢١ . وقد طرأ على هذه المطبعة تقدم ملموس . فخلال السنوات اللاحقة، وخاصة في عهد الخديوي اسماعيل باشا تطورت ادوات المطبعة وزادت معداتها ، وتضاعف عدد عمّالها ، حتى اصبحت من كبريات المطابع العربية في العالم ، ومن ارقى مطابع الشرق وبخاصة بعد أن اسّست مصنعاً للورق ، كاد يسد كل ما يرد من أوروبة ، وعرفت ادارة بولاق بعد وفاة المسابكي عام ١٨٣٠ رجالاً عظاماً ، اشهرهم حسين حسني باشا ، احد نوابغ مصر الكبار ، في علم الرياضيات . وكان آخر من تولّى من الوطنيين ادارتها، التي انتقلت في ثمانينات القرن الماضي الى الأجانب من خارج ابناء البلاد[١] .

اقتصر نتاج المطبعة وبخاصة في عهد محمد علي باشا ، على طبع الكتابات والمؤلفات العلمية من طب ورياضيات ، وغيرها من دون اهتمام يذكر بالنواحي الأدبية ، على عكس عهد اسماعيل باشا الذي شجّع النهضة الفكرية ، واهتم بالنواحي الأدبية ، حيث طبعت « بولاق اثناء حكمه ، العديد من الكتب المفيدة ، ككتاب تاريخ مصر للطهطاوي مثلاً ، الذي طلب اسماعيل طبع خمسمائة نسخة منه »[٢] .

---

(١) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية،مكتبة الحياة سنة ١٩٧٨ ج ٢ ص ٤٠٨ .

(٢) عمر الدسوقي : في الأدب الحديث،مطبعة الرسالة سنة ١٩٦٤ج ١ ص ٤١

أدرك محمد علي ان نهضة البلاد المصرية تتطلب اكثر من مطبعة ، ولذلك عمد بعد ست سنوات من تأسس « مطبعة بولاق » الى ادخال هذه الآلة ، الى مختلف مؤسسات الدولة ومعاهدها الحديثة ، فكانت مطبعة مدرسة الطب في ابي زعبل لعام ١٨٢٧ ، باشراف د . كلوت بك ، والتي اغلقت عام ١٨٣٥ ، ومنهم من يقول عام ١٨٣٧ ، بسبب نقلها الى قصر العيني . فأحيلت جميع موادها واشغالها الى مطبعة بولاق ، وقامت هذه المطبعة بطبع أجود المؤلفات الطبية المترجمة ، ومطبعة الديوان التي انشأها عام ١٨٣٤ لطبع المستندات والاوراق الخاصة بديوان الخديوي . وغيرها من المطابع التي ساهمت في نهضة مصر .

وعلى الرغم من توقيف هذه الآلات وغيرها في عهدي عباس وسعيد ، اللذين وقفا ضد العلم وكل مبادرات الإصلاح ، فقد انطلقت الحركة المطبعية والنهضوية في عهد اسماعيل باشا الذي شجع العلم وعمل على اصلاح مصر وتقدمها . فأسس علي مبارك مطبعته سنة ١٨٦٨ ، وهو ناظر ديوان المدارس آنذاك ، وأحد اركان النهضة العلمية والعمرانية في مصر . تولى ادارتها علي فهمي نجل رفاعة رافع الطهطاوي . وقد طَبعَت اعداداً كبيرة من الكتب المدرسية . وكذلك مطبعة الأهرام للبنانيين سليم وبشارة تقلا في الاسكندرية عام ١٨٧٥ ، من اجل طباعة جريدة الأهرام والكتب الأدبية واللغوية والعلمية والتاريخية . عمل الشقيقان بهمّة عالية على تعزيز المطبعة بتجهيزات حديثة ، فحسّنا من حروفها وأحجامها وانواعها واضافا الى اقسامها فرعاً لتجليد الكتب ، اعلنت عنه جريدة الأهرام نفسها فقالت : « ان ادارة الأهرام قد استحضرت على مجلد لتجليد الكتب متقن هذه الحرفة حق الاتقان ، ويأتي حسب ارادة الطلب سواء كان المطلوب تذهيباً او كتابة وما شاكل ذلك . . »[١] .

ومطبعة الاهرام هي الاولى من نوعها التي عملت ليلاً نهاراً . واصدرت بعض صحف مصر مثل جريدة صدى الاهرام اليومية لسليم وبشارة تقلا في عام ١٨٧٦ ، ومجلة حديقة الأخبار لبشارة تقلا في عام ١٨٧٨ الذي نشر فيها تفاصيل اخبار الحرب الروسية التركية ، ويظهر ان مطبعة الأهرام توقفت عن العمل ، اثر

---

(١) نفس المصدر ص ٢٠٨ .

قيام الثورة العرابية عام ١٨٨٢ وذهاب صاحبيها الى لبنان ، ثم عادا إلى مصر وتابعا عمل المطبعة . ومع وفاة سليم تقلا عام ١٨٩٢ انتقلت مطابع الاهرام عام ١٨٩٩ الى القاهرة واستأنفت نشاطها في طريقها المرسوم ، بهمة ونشاط .

وهكذا بعد دراسة اهم مطابع البلاد العربية في مصر وسورية ولبنان ، وما قدمته من إشعاعات في طريق النهضة والتقدم ، نستطيع بثقة تبيان بعض النقاط التي رافقت نشأة الطباعة .

اولا : كان للعنصر الديني والعامل التبشيري دور بارز في نشأة الطباعة وبخاصة في لبنان ، حيث ادى تعدد المذاهب المسيحية فيه ، وتنافسها في النفوذ ، إلى ادخال الطباعة من اجل نشر افكارها وتعاليمها الدينية .

ثانياً : وعلى عكس ما حدث في لبنان ، فقد عرفت المناطق الإسلامية ، وخاصة مصر اهتماماً بالمؤلفات العلمية والأدبية والتاريخية اكثر من الكتب الدينية ، وذلك بسبب موقف الدولة العثمانية ، المعارض لطباعة اي كتاب ديني ، عملاً بالفرمان السلطاني الصادر عام ١٧١٢ ، والقاضي بإجازة الطبع، عدا كتب الدين والتفسير والحديث والنقد .

ثالثاً : فان نسبة الكتب المطبوعة باللغة العربية في مواد الطب والرياضيات والعلوم الطبيعية ، تزيد كثيراً عما طبع في التركية والفارسية ، بسبب عجز هذه اللغات عن استيعاب لغة العصر ، في حين ان اللغة العربية غنية بمفرداتها واشتقاقاتها ، سبقت اللغات الاخرى في معرفة هذه العلوم ومواكبة تقدمها ، وكانت في فترة ما قبل الانبعاث الأوروبي ، لغة هذه العلوم الوحيدة ، حيث كانت كتبها العربية العلمية ، أوّل منشورات روما في القرن السادس عشر[٢] .

جميع هذه النقاط وغيرها من العوامل المنشطة ، ساعدت في نمو الحركة المطبعية التي أمّنت كتباً عربية تراثية ، في الأدب ، والتاريخ والحضارة والعلوم ، وانصهرت في خلق نهضة شاملة في البلاد ، تمكّنت من خلال كتابتها الحديثة ايضا : العربية

---

(١) ذوقان قرقوط : تطور الفكرة العربية في مصر ص ١٥٣ .

والأجنبيـة المترجمـة من اللغات الأخـرى ، من اثارة دعـوات اصـلاحيـة ، واتجـاهـات فكـرية ، حفلت بهـا اقلام اعـلام العـرب ، الـذين راحـوا يـرسمـون معـالم النهضـة والتقدم ، سواء من جهة التأكيد على أهمية انشاء مـدارس ومؤسسات علميـة ، او من جهة دراسات مختلفة ، تعالج قضايا العصر وتواكب تطوره .

وهكـذا تجلى بـوضـوح اثـر المـطابـع في تعليم النـاس وتثقيفهم ، بعـد ان كـان الكتاب يكلف صاحبه ، في العصور القديمة ، المشقّات الكبرى للحصـول على نسخـة مخطوطة . . . بينـما حرمت منـه الطبقـات الفقيرة ، وبقيت تـرزح تحت جهل المعـارف والعلوم ، حتى كان العصر الحديث ، فازدهـرت المطابـع وانتشرت الكتب وعمّ العلم والثقافة .

الفصل الخامس

المؤسسات العلمية والتعلمية في سوريا ولبنان

«ليس كالمدرسة للعقول رحب تتجادل فيه ، ففيها للنابه بثٌّ متجدد، وفيها للخامل حافز وتحد ، وفيها خصوصا احتكاك الاضداد في الشخصيات الفكرية وما يولده من اشعاع ، ولذا فإن المدارس ، صغيرة كانت او كبيرة ، غرفة في دار او صرحاً منيعاً ، حمى معابد او حمى بيوتات ، اولى دعائم النهضة وابعدها اثرا »[1] .

بهذه الكلمة الجامعة للاستاذ جبران مسعود نستطيع ان نؤكد ، ومنذ البدء ، ان للمدرسة والمؤسسة التعليمية ، الوطنية منها والخاصة ، اكبر الدور في عملية النهوض التربوي والانبعاث الحضاري ..انها الملجأ الذي تستقر فيه النفوس ، واليها تهدأ الأفئدة . هي باختصار ملاذ لطلاب العلم والمعرفة الذين يتوقون الى اقامة حياة عادلة ومستقبل كريم ، والصرح الاكاديمي الذي يرتكز على دعائم العقل ، ويميِّز بين الجهالة والتقدم .

يقول الاديب الحلبي عبد الرحمن الكواكبي : « ان بين الاستبداد والعلم حربا دائمة وطراداً مستمرا ، يسعى العلماء في نشر العلم ويجتهد المستبد في اطفاء نوره»[2] .

واذا كان المطلوب من المؤسسة التعليمية بث روح النهضة واحياء التراث

(١) جبران مسعود : لبنان والنهضة العربية الحديثة ، بيروت ١٩٦٧ ، ص - ٣٦ .

(٢) رئيف خوري : الفكر العربي الحديث ، دار المكشوف ١٩٧٣ ، ص ١٢٩ .

العربي ، وغرس فكرة الرابطة الوطنية والقومية ، والوقوف امام التيارات الضارة ، ومساوىء الثقافات الاجنبية الغربية عن واقع امتنا العربية ، والمتعارضة فكرا وروحا مع تقاليدنا واصولنا ، فانه يتوجب في المقام الأول ، وفي تلك المرحلة المهمة من تاريخ نهضتنا الحديثة ، الغاء الامية أو محوها وتعميم التعليم ، لضرب الجهل وانقاذ الانسان من الافكار الغيبية والتهويمات الخرافية ، خاصة بعد ان اصبحت ضرورة الحياة تستلزم مشاركة الاميين في مواقع الانتاج ، على كل الصعد الاقتصادية والزراعية والاجتماعية ، وتستدعي طاقات عقلية ومهارات فنية وقدرات علمية لرفع مستوى الانتاج والتنمية واللحاق بالدول الراقية ، وللتمكن بصورة خاصة من التعاطي والتفاعل البنّاء مع الألة الحديثة التي غزت ديارنا بعد الثورة الصناعية في اوروبا والثورة الفرنسية في الثلث الاخير من القرن الثامن عشر .

سوريا : بين المدرسة العربية والقهر التركي .

والمدرسة على مدى العصور والقرون مفتاح التقدم والحضارة للامم الراقية والمتطورة ، وبلادنا التي غُيِّب عنها ، قسرا وعمدا ، من قبل الولاة والحكام الاتراك ، هذا الصرح الاكاديمي الذي قدر له في فترة ازدهار ونمو الدولة العربية الاسلامية ، اشاعة المعرفة والعلم في دنيا العالم كافة ، ظلت بعض اللفحات الفكرية والقبسات التأملية ، المنبعثة من هنا وهناك ، تؤكد على اصالة هذه الأمة وحيويتها ، عبر ارتباطها بماضيها الحافل بالبطولات والزاخر بالاعمال الانسانية والمنجزات العمرانية . نتساءل : أيتصور عاقل ان هذه الأمة العربية التي انجبت امثال ابن رشد وابن سينا والرازي والتي تبوأت افكارها الطبية وتعاليمها الصدارة في العالم ، ان تقتات اليوم على فضلات الآخرين وتتداوى بالشعوذات ووصفات السحرة الدجالين ، ويصبح التفقه في علم الطب معالجة ومداواة لا تدريساً قوامه النظرية والشروح والاصول ؟ وتصبح المدارس الحديثة العليا اقرب الى الاوهام منها الى العلم[1] ؟

من الطبيعي ان تطبع الظروف التاريخية والقوانين السائدة اتجاه التعليم العام ، وترسم خصائصه ومميزاته الفكرية ، وينبغي الانتباه الى طبيعة المرحلة وقواها

---

(١) اسامة عانوتي : الحركة الادبية في بلاد الشام ، المكتبة الشرقية ١٩٧١ ، ص ٣٠

السياسية المهيمنة وفكرها الاجتماعي والاقتصادي . وهذه المرحلة اتصفت بمظاهر وملامح رئيسة ، طبعها الفكر الديني والافكار الطوباوية الغيبية خاصة بعدانفتاح المنطقة العربية على الثقافات والحضارات المختلفة ، وتغلغل الارساليات الاجنبية ومدارسها التبشيرية . في حين كان الحكام الاتراك يعملون بمختلف الطرق والأساليب على خنق الثقافة واللغة العربيتين وطمس الروح القومية والشخصية العربية في شتى الاقطار ومناطق الضاد ، من جراء تنصيب الولاة الجهلة الذين ما فتئوا يكيلون للشعب الساذج شتى اصناف الاضطهاد والاستغلال والقمع الفكري والاقتصادي ويربكون حالته الاجتماعية بالاعمال الفوضوية والاضطراب الامني .

فقد ادى صراع الولاة فيما بينهم ، وتنافس المتنفعين المتنفذين ، وتسلط الاقطاع على الفلاحين والحرفيين الذين يكتوون بالضرائب الباهظة والدائمة ، الى زيادة البؤس والفقر والحالة المتردية التي وصلت اليها البلاد . ويكفي ان نضرب مثلا واحدا لأحد الموظفين النافذين الذي استطاع حسب وصف الرحالة فولني ان يجمع في خلال سنة اكثر من اربعة ملايين ليرة تركية[1]، لنؤكد فداحة الضرائب التي ارهقت الاهلين ودفعتهم الى السخرة ، خاصة اذا علمنا ان عقوبة التلكؤ تطال الشجر والأرض والمزرعة[2] .

ادركت تركيا خطورة بث الوعي ونشره في سوريا ، فلجأت الى كبت الحريات وقمع التحركات والايقاع بين ابناء الوطن الواحد ، مفتعلة الفتن بين طوائفهم من اجل الحفاظ على الجهل والتخلف ساعية الى اقصاء كل الادوات والآلات المؤدية الى نشر الافكار الانسانية والاهداف الوطنية . ولهذا حجبت تركيا مطبعة ابراهيم باشا الحجرية المكرسة لطباعة منشوراته واوامره العسكرية حتى عام ١٨٦٤ حين سمحت الحكومة العثمانية بانشاء اول مطبعة في سوريا عرفت باسم مطبعة « ولاية سورية » لتصدر في دمشق « جريدة سورية » باللغتين العربية والتركية للدفاع عن سياسة الحكومة ومؤازرتها[3] . وهكذا تتبين بوضوح اسباب واهداف خلوّ بلاد الشام من الحياة العلمية

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ١٣ .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٥ .

(٣) د. شمس الدين الرفاعي : تاريخ الصحافة السورية في العهد العثماني ، دار المعارف ١٩٦٩ الجزء الأول ، ص ٨٠ .

والمؤسسات التربوية ، باستثناء بعض المدارس الدينية الناشئة التي تنهل رشفات ضائعة من وسط ادب الغرب وقبسات حضارته الغربية .

وبالرغم من وضع لبنان الخاص الذي ميزه عن بقية الاقطار العربية وجعله افضل حالا من سوريا ، بسبب الطوائف المتعددة ، وانفتاحه المبكر على اوروبا ، والبعثات الاجنبية والارساليات التبشيرية ، فإن التعليم العام ظل ضيق النطاق وصعب المنال ، حتى ان احد ابناء الطائفة الارثوذكسية وصف حالة ابنائه قائلا : انهم عميان من الجهل[1] .

ومع ذلك فقد بقي للبنان وللموارنة خاصة ، الذين انكبّوا على آداب اللغة العربية ، بحثا وتنقيباً ، الفضل الكبير في تهيئة السوريين للنهضة الحديثة التي تأخرت بسبب سياسة الدولة العلية التجهيلية ، القاضية باقصاء المنطقة عن الحواضر المتمدنة والاطلاع على ثقافتها العصرية . كما كان لمعاهد وانجازات عزيز مصر محمد علي التي فتحت عيون متخرجيها من الشاميين ، الأثر المحمود في ايصال اشعاعات الفكر الحديث الى الديار السورية . هذه الارهاصات والبدايات المحدودة ما لبثت ان اتسعت وتعمقت ، وأخذ الرواد الاوائل في مدينة دمشق يطالبون بإلحاح ، الاطلاع على ثقافة الامم المتمدنة ، وضرورة الخروج من ربقة الثقافة العثمانية . فالاديب الدمشقي رفيق العظم ، راح يطالب بفتح المدارس ونشر العلم والمعرفة قائلاً : « ابعثوا اولادكم الى دور العلم في اوروبا ، استفيدوا خير ما في المدنية الغربية »[2] . والاديب محمد كرد علي الذي فر الى القاهرة وانشأ مجلة المقتبس الشهرية عام ١٩٠٦ يحث على التعليم من الامم الغربية . « الامة العربية اذا ارادت النهوض العقلي والعلمي، يجب عليها ان تأخذ من كل علم بالسهم الاوفر ، ولا يتم ذلك الا بالنقل عن الأمم الغربية »[3] .

سوريا : مؤسسات تبشيرية واخرى وطنية :

وهنا لا بد من الاشارة الى ان الباعث الاساسي لانشاء المؤسسات التعليمية

(١) كمال الصليبي : تاريخ لبنان الحديث ، النهار ١٩٨٠ ، ص ١٦٦ .

(٢) رفيق العظم : مجموعة آثاره ـ رسالة الجامعة الاسلامية واوروبا ، ص ٧٩ .

(٣) د. اسكندر لوقا : الحركة الادبية في دمشق ١٩٧٦ ، ص ١٠٢ .

في مصر يعود الى الرغبة الصادقة للأمة العربية في الانبعاث واليقظة النهضوية ، من خلال احياء التراث العربي وثقافته القومية . اما في سوريا فكان من اهم الدوافع على انشاء هذه المؤسسات ، تنافس الارساليات التبشيرية على جذب المريدين من الطوائف الاخرى ، وصراع الدول الاوروبية عبر بعثاتها المختلفة على بث ونشر افكارها من اجل السيطرة والهيمنة ، علما ان اولى مدارس الارساليات الاجنبية التي عرفتها دمشق تعود الى سنة ١٧٥٥ ، ثم قيدت لأسباب احداث سياسية ، وظلت معطلة حتى اطلقها ابراهيم باشا حين استولى على سوريا ولبنان ، المكان الخصب لنشاط الهيئات والبعثات الاجنبية ، التي امته في زمن مبكر وشيدت مدارسها في مدنه وقراه ، شهد ايضا ازاء المد التبشيري المسيحي تحركا اسلاميا تجلى بقيام جميعة المقاصد ومدارسها الاسلامية التي تأسست في عهد ولاية مدحت باشا باموال واراض وعقارات وقفيّة من جلة علماء واكابر القوم في سوريا ، من اجل العناية بشؤون اوضاع الطائفة الاسلامية ، ومعرفة مستواها الفكري والتعليمي ، على غرار مجالس الطوائف المسيحية [١] .

امام هذا الوضع الجديد اجبرت تركيا على ادخال تغييرات في انمطة الحكم ، والحياة العامة . فكان صدور الخط الهمايوني لعام ١٨٥٦ الذي نص على اجراء الاصلاحات الادارية والتنظيمية والتربوية ، والذي بقي مع الأسف حبرا على ورق حتى اعلان نظام وزارة المعارف سنة ١٨٦٩ الذي خول الوالي مدحت باشا ، اثناء توليه سوريا ، اجراء الاصلاحات والتغييرات التربوية التي تتلاءم مع تربيته وثقافته وفكره الاصلاحي ، والتي دفعته لملاقاة حتفه بعد ان اوغر خصومه عليه صدر السلطان عبد الحميد الثاني ، بالاراجيف والاقاويل الكاذبة ، التي تحط من مكانة هذا الرجل العظيم وتلصق به - من جراء اصلاحاته العديدة ، ومنها النظام التربوي - تهمة انتزاع سلطة ولاية سوريا من جسم السلطنة والاستقلال بها لنفسه . وبالفعل فقد شجع مدحت باشا تأسيس الجمعيات واقامة المدارس . فأنشأ عام ١٨٧٨ ثماني مدارس ابتدائية للذكور والاناث في دمشق ودار صنائع [٢] ووضع

(١) د. محمد منير مرسي : التعليم العام في البلاد العربية ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٢٣٩ .

(٢) محمد كرد علي : خطط الشام ج ٤ ، مكتبة النوري ، دمشق ١٩٨٣ ، ص ٧٤ .

عقوبة لولي امر الطفل اذا امتنع عن ارسال ابنه في سن السادسة الى المدرسة[1]، هادفاً الى السمو بدمشق، المعروفة بمجدها الحضاري وآثارها العمرانية، وجعلها تسبق الاستانة، هذا الوالي المعروف بأبي الدستور، المجاهد لبناء شخصية الانسان الحرة، المستقلة والعادلة، نراه يقدم مثالا تعليميا لمفهوم الشورى ومعنى استقلالية الرأي والقرار. قيل انه الف مجلساً للشورى في بغداد، يعود اليه في امر الولاية. وذات يوم جمع هذا المجلس طالبا منه استصدار قرار يرمي الى زيادة الضرائب لتنفيذ بعض المشاريع العمرانية. فوافق المجلس بالاجماع. ثم جمعهم في اليوم الثاني وأخبرهم برغبته في كسر القرار، فوافقوه تلقائياً.

وهنا انبرى يقول: « اردت ان اختبركم، فما قيمة المجلس اذا رجعتم الى رأيي وحده[2]؟ وهكذا يتبين ان هذا المصلح الاجتماعي والسياسي، كان يريد بناء انسان جديد، وشخصية جديدة، ذات ارادة قوية، وقرار موضوعي مسؤول.

النهضة السورية التربوية : حرية ـ استقلال ـ سيادة :

البلاد السورية، وان تثاقلت خطى النهضة فيها، وتزامنت مع مجزرة ١٨٦٠ وما بعد، توافر لها من الرجال الاساتذة الذين الهبت الافكار الانسانية عزائمهم، فهبوا يبعثون الهمم والنشاط، وينبهون من مغبة الافكار والمعتقدات الخاطئة، ويربطون بتجرد، علاقتها باوضاع حالة البلاد السيئة، التي تعاني من الجهل والظلم والاستبداد، مسلطين الاضواء على المضامين النهضوية المنضوية تحت الوية الحرية والاستقلال والسيادة والكرامة . . . فالمفكران السوريان ساطع الحصري ومحمد كرد علي استطاعا تسريع الخطوات التقدمية التي عززت من الانفتاح على المعارف الانسانية والرؤى التربوية الحديثة، وانبريا يجهدان النفس لصياغة مناهج وبرامج عصرية تتماشى مع نهضة البلاد. فساطع الحصري حارب الامية، اثناء توليه مسؤولية وزارة المعارف في حكومة فيصل والمؤآزرة للعلم، ووضع برامج تربوية سليمة، وزود الطلاب بالكتب التراثية والادبية.

---

(١) احمد امين : زعماء الاصلاح في العصر الاسلامي، دار الكتاب العربي ص ٥٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٤.

اما محمد كرد علي ، الذي فاقت شهرته الآفاق ، فقد حفظ اللغة العربية وذخائر حضارتها ، ونجح في تأسيس المجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩١٩ بعد جهود ضخمة ، في سبيل اغناء اللغة العربية ، وتنقيح الكتب من الشوائب ، واحياء دفائن الكتب القديمة ووضع المفردات والمصطلحات العلمية والعصرية[١] التي تتماشى مع طبيعة اليقظة . هذا المجمع الذي جعله كرد علي نبراسا لحياة علمية افضل ، وخلاصا من ظلمات العقول الرجعية والافكار البالية كان اعظم دعامة للتأليف والترجمة والبحث ، ونشر الثقافة والحضارة العربية والعلوم الطبيعية والانسانية بلغة البلاد الاصلية العربية ، ويعني ذلك في الواقع حب الوطن وتقديسه ، وتنامي الوعي وانعاش استثارة الروح القومية[٢] . وهذا ما حدا ببعضهم الى القول « اذا ما انصرف الافراد الى القراءة بلغاتهم القومية وحدها فلا مناصة من ان يصبحوا وطنيين »[٣] ، خاصة بعد ان ادخلت الحكومة التركية هذه اللغة الى مدارسها واصدرت في عام ١٩١٣ فرمانا بجعلها اللغة التدريسية في المناطق الآهلة بالسكان العرب . لكن عمل هؤلاء الادباء والمتنورين من ابناء سوريا توج في تشييد الجامعة السورية التي انشئت عام ١٩٢٣ والتي اريد لها منذ البدء، ان تنحو منحى الجامعات الكبرى في العالم . وقد ابتدأت بكليتي الحقوق . والطب ثم اضيفت اليهما شعبة الآداب التي ألغيت بعد سنتين ، وبقيت هذه الجامعة على حالها حتى عام ١٩٤٦ حيث استكملت انشاء بقية الكليات كالآداب والهندسة والتربية والعلوم ، واستطاعت ان تلبي حاجات البلاد وتؤمن الكوادر الواعية والمتخصصة في شتى متطلبات الحياة . وقد لاقت كليتا الحقوق والطب في البداية صعوبة لغوية اضطرت معها الهيئة التعليمية فيها ، والمتخرجون من جامعة استانبول ، الذين لا يتقنون العربية الفصحى ، الى تعريب محاضراتهم واللجوء الى الكتب العربية الطبية القديمة يستلهمون المصطلحات العربية العصرية . ولكن ، بعد ان ترسخت الفصحى في الجامعة واستعين بالاساتذة المتفوقين بها ، اخذ دور الجامعة يعظم في مختلف الصعد

(١) مجلة المجمع العلمي ، مجلد ج ١٢ ، ص ٣٥٤ .
(٢) القومية : عرض وتحليل تأليف بويد شيفر ، دار الحياة بيروت ١٩٦٦ ، ص ٤٤٩ .
(٣) القومية : عرض وتحليل ص ٤٥٢ .

التربوية منها والاجتماعية ، وبدأت الثمرات الفكرية اليانعة تموج في الابهاء الثقافية الشامية ، وظهرت الى الرأي العام الدراسات والبرامج التربوية ، الكاملة والشاملة ، التي تهدف الى تشييد صرح الحياة الجديدة والمستقبل الافضل .

لبنان: الارساليات والمدارس .

في لبنـان ، ابتدأت النهضـة التعليميـة في فتـرة متقـدمـة عن سـوريـة ، وذلـك لأسباب وظروف خـاصة بـالوضـع اللبناني الـطائفي الذي شجـع الدول الاجنبيـة على التـدخل في شؤ ونـه الداخليـة عن طريق الارسـاليات التبشيـريـة والبعثـات الاجنبيـة والمؤسسـات التعليميـة وادى فيـها بعـد ، الى وجـود القـوى الاستعمـاريـة ، والهيمنـة الفكرية والثقـافية ، ومحـاولة فصـل عرى لبنـان عن محيطه العـربي وتاريخـه وحضارتـه العربية . ومن يتتبع تاريـخ المؤسسات يعـرف ان اولى المدارس التعليميـة التي انشئت في الديار اللبنـانية تعـود الى مدرسـة روما المـارونية او مـدرسة المـوارنة في روميـة التي انشـأها البـابا غـريغوريـوس الثالث عشـر عام ١٥٨٤ ، لتـدريس العلوم الـدينيـة ، وتهيئة الطلبـة الموارنـة لتولي المنـاصب الاكليركيـة عند عـودتهم الى لبنان . . ويكفي تدليلا على اهمية هذه المدرسة ان نذكـر ان من خريجيهـا جبرائيـل الصهيوني (١٥٥٧ - ١٦٤٨) الذي عرف في الغرب باسمه اللاتيني سبونيتا واصبح استاذ اللغات السامية في الكلية الملكية في باريس التي عرفت فيها بعد College de France ونعتقد ان لمدرسة روما هذه والجامع الازهر اروع الفضل في الحفاظ على القبسات الفكرية الشرقية التي اغناها الازهر ، والحضارة الغربية الحديثة التي غذتها مدرسة روما . وقد أنشأ احد خريجي هذه المدرسة الاب بطرس مبارك سنـة ١٧٢٨ مدرسـة عينطورة في كسـروان ، أغلقت عام ١٧٧٣ بقرار من الكرسي الرسولي ، القـاضي بحل منـظمة الابـاء اليسوعيين التـابعة

لها ، واعيد فتحها في سنة ١٨٣٤ ، ولا تزال حتى اليوم .

ثم خطت الارساليات خطوات جليلة عندما شيدت مدارسها في اكثر من مدينة وقرية ، منها مدرسة في زغرتا سنة ١٧٣٥ لصاحبها جرجس بنيامين ، لكنها لم تر النور طويلا اذ سرعان ما اغلقت ولم تفتح من بعد ، ومدرسة للتعليم العالي في عين تراز ، قاعدة اسرة غندور السعد في الجرد[1] ، ونستطيع القول ان عاملين دفعا خريجي مدرسة روما الى الحض على التعليم ونشر المعرفة : وطني يوجب تعليم ابنائهم ورفع مستواهم ، وديني يهتم بنشر مبادئه وتعاليمه لجذب اكثر عدد من المريدين والاتباع ، وهذا ما اكده قرار المجمع المقدس ، المنعقد عام ١٧٣٦ ، الموجه الى المطارنة والكهنة ورؤساء الاديرة وطلاب مدرسة روما والذي جاء فيه : « نأمر بأن نفتح في المدن والقرى والاديرة مدارس . . اننا نحث المطارنة والكهنة ورؤساء الاديرة على التعاون في سبيل تعيين المعلمين »[2] .

وهكذا انشئت المدارس في الاديرة وقد عرفت بـ « انطوش » كانطوش جبيل ١٧٦٢ وانطوش زحلة ١٧٦٩ وانطوش دير القمر ١٧٨٢ ، وكان على رأس مدارس هذه المرحلة ، مدرسة عين ورقة التي برزت في حقل التعليم والعناية بالجيل الجديد . انشئت في القرن الثامن عشر في دير مار انطونيوس وجعلها البطريرك يوسف اسطفان عام ١٧٨٩ على مثال مدزسة روما ، تدرس العربية والسريانية واللاتينية والايطالية واللاهوت ، وسائر العلوم العصرية المطلوبة في المدارس الاوروبية الكبرى . وقد عدها فيما بعد كثير من المؤلفين والادباء ، ام المدارس الوطنية دون خلاف[3] . وكان للأدب العربي منزلة كبيرة واهتمام عظيم من قبل الادارة ومسؤوليها الذين حرصوا على ايصاله للناشئة وفق خطة تربوية حديثة ، تخرج فيها ادباء واساتذة القرن التاسع عشر الذين كان لهم اكبر الفضل في صنع فجر اليقظة العربية والنهضة الحديثة امثال الشيخ ناصيف اليازجي والمعلم بطرس البستاني

---

(١) كمال الصليبي : تاريخ لبنان الحديث ، دار النهار ١٩٧٨ ص ١٦٤ .

(٢) جبران مسعود ، ص ٣٨ .

(٣) فؤاد افرام البستاني : تاريخ التعليم في لبنان ص ١٧٠ .

وفارس الشدياق الذي اضاف الى اسمه احمد عقب اعتناقه الاسلام في تونس ، والذي علم فيها الى عام ١٨٤٠ ، عندما حضرت القوات العسكرية الأوروبية الى ثغور سورية ، لمساعدة الدولة العلية على اخراج الحكومة المصرية منها وبسط سلطة وسيادة العثمانيين عليها .

مدارس الامراء وتشجيعهم للعلم :

وللحقيقة فإن المدارس في لبنان موغلة في القدم ، خاصة في الفترات التي تعاقب عليها رجال ابرار ، يعشقون العلم ويتفقهون به . وكان في طليعة هؤلاء الامير المعني الكبير فخر الدين الثاني (١٥٧٢ - ١٦٢٥) الذي اراد انقاذ بلاده من الجهل والتخلف . . فاتجه نحو الغرب ، يستمد منه النور والمعرفة ويستلهم الثقافة والمبادىء الانسانية التي بدأت تلوح في عالم دنيا العدالة . ايقن هذا الامير ، ان ايقاظ لبنان يتطلب تحريره من العقول المريضة والافكار الخاطئة ، فعمل على تشجيع البعثات ، المارونية خاصة، الى اوروبة ، واستقبال بعثات اجنبية ، ولما تقضّى عهده الذهبي قام امراء من الشهابية اللبنانية ، يحتضنون الثقافة ، فدرس الأمير ملحم مثلا الفقه والف الكتب الشرعية ، وكانت سنة ١٧٥٢ سنة مميزة في تاريخ التعليم في لبنان اذ خرج لبنان من قيود الطائفية البغيضة والمذهبية والطبقية ، عندما وهبت الست « امون » زوجة الامير ملحم بناء في دير القمر في عام ١٧٥٠ ليكون مدرسة لجميع ابناء القرية ، دون تمييز او تخصيص ، لكن الامير بشير المتنور كحليفه محمد علي ، قد برز بين اقرانه وبزّهم اندفاعا نحو العلم ، واصبح لبنان مركز الحركة الأدبية ، وكان البلاط الشهابي في دير القمر ، ومن ثم في بيت الدين ، محور هذا النشاط ، وملتقى الادباء والشعراء ، نظرا لسياسة الامير الواعية التي اعتنت برجال الفكر والادب والشعر ، وقربتهم وكافأتهم على تأليفهم واعمالهم الثقافية .

فالشاعر نقولا الترك (ت ١٨٢٨) الذي ارسله الأمير بشير الى مصر لاستطلاع حالتها زمن الحملة الفرنسية النابليونية ، اغتنم فرصة بقائه في القاهرة ، ووضع كتابا لعله افضل كتاب يصور فيه حالة مصر . اما الشاعر بطرس كرامة ، كبير شعراء العصر ، فقد لعب دوراً مميزا في سياسة البلد العامة ، بعد ان اعتمد

الامير بشير عليه في الأمور الادارية ، وجعله رئيسا لديوانه ومديرا لخزانته ، ولعل البحاثة المؤرخ حيدر الشهابي (١٧٦٠ ـ ١٨٣٥) الذي شغف بالعلم وفتن به وقضى حياته بعيدا عن السياسة ومشاكلها ، قد كرس نفسه للبحث والدرس والتأليف(١) . وهكذا تبين بوضوح حالة الحياة الثقافية في لبنان التي رعاها في مرحلتنا المعاصرة رجال الدين المبشرون الذين ادركوا حاجة البلاد الى نظام تربوي يلائم طموحات الامة ، فعكفوا على المطالعة وانكبوا على جمع التراث ، وروضوا القلم في كتابة المصنفات العلمية والكتب المدرسية المنوعة والمقررة باللغة العربية . مستفيدين من خبرات ونتاج العالمين اللبنانيين ناصيف اليازجي وبطرس البستاني واعمالها الادبية التي قوبلت من المواطنين في جميع انحاء البلاد بارتياح وتلهف .

لبنان والثقافة الجديدة :

وفي هذا المقام لا بد من لفت النظر الى مبالغة بعض الأقلام ، المؤيدة والمنحازة للعمل التبشيري المدعية مصادرة التفتح العربي ، القومي والسياسي ، ورده الى المؤسسات والمدارس التبشيرية . اننا لا نشك لحظة ، رغم الاعتراف بدور هذه المؤسسات المهم والريادي في حقل اللغة والتراث الأدبي ،بأنّ البعثات التبشيرية ومدارسها المتنوعة ، عملت على زرع ثقافة جديدة ، وخلق جيل جديد له تفكيره ونمطه المغاير لمحيطه وتقاليده وجذوره التاريخية . وخير برهان هو قول احد افضل المبشرين الدكتور غريغوري ورتبات الذي يعرب عن اهداف المرسلين التربوية فيقول : « لقد تكلمت عن وسيلتين فعالتين ، اعني التبشير بالانجيل ، وتقديم الخدمات الطبية للمرضى لنشر المعرفة الحقيقية عن المسيحية . . . لكن اثر هاتين الوسيلتين الوعظ والتطبيب يظهر في نفوس البالغين والمتقدمين في السن،غير ان هنالك وسيلة ينحصر اثرها في نفوس الصغار ، وسيلة قد تكون السبيل السوي لبعث الحياة الجديدة في البلاد السورية ، اعني تربية النشء الصغير في هذه البلاد(٢) . وهكذا نشطت الحركة التبشيرية والاجنبية في لبنان وقام مريدوها في

---

(١) كمال صليبي : تاريخ لبنان الحديث ، ص ١٧١ .

(٢) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، دار النهار ١٩٧٩ ص ٥١ .

تشييد مدارسها ولكثرتها في لبنان تراني مضطرا الى ذكر المؤسسات المهمة التي لعبت وبعضها لا يزال يلعب دورا رئيساً في الحياة الثقافية والفكرية . وتأتي على القمة جامعة القديس يوسف التي تأسست عام ١٨٧٥ في بيروت من قبل المبشرين اليسوعيين . تخرج فيها الاف الطلاب في شتى الاختصاصات والعلوم وتعتبر من ذروة اعمال الارساليات الكاثوليكية التربوية . وقد ثبّتها بعد ست سنوات من انشائها البابا آنذاك كجامعة . وفي عام ١٨٨٣ اعترفت بها وزارة التربية الفرنسية ومنحتها مساعدة مالية سنوية ففتحت كلية الطب واخرى للصيدلة . وقد استكملت كلياتها في ١٩١٣ حين اضيفت اليها كليتان للهندسة والحقوق تحت رعاية جامعة ليون . اما البروتستانت الذين كانوا على صراع مع الطوائف الاخرى ، وتنافس على النفوذ والغلبة ، وتسابق في كسب المريدين المسيحيين ، فقد انشأوا عددا من المدارس في الجبل وبيروت وفي طليعتها مدرسة عبية التي اسستها الارسالية الاميركية عام ١٨٤٧ بسعي الدكتور مارنيلوس فانديك الذي اتقن العربية على يد اليازجي واجتمع ببطرس البستاني وحفظ كثيراً من الاشعار العربية . وكان فانديك قد قدم الى بلاد الشرق عام ١٨٤٠ وجال في المنطقة العربية واختبر احوال واوضاع البلاد ، ورأى حاجتها الى المدارس . ولما تأسست الجامعة الاميركية عام ١٨٦٦ باسم الكلية السورية الانجيلية عين استاذا للكيمياء والفلك . وهذه الجامعة بكلياتها المختلفة وبانفتاحها على مختلف الطوائف والطبقات استطاعت لعب ادوار بارزة في حياة لبنان الادارية والاجتماعية والسياسية . وكان لمتخرجيها قيادة الحركات الوطنية والفكرية وزعامة البلاد . وقد عبر رئيسها الأول دانيال بلس عن غاية سياستها التعليمية ، المشرعة ابوابها لجميع طبقات المجتمع فقال : « ان هذه الكلية تفتح ابوابها لجميع الطلاب على اختلاف ظروفهم وطبقاتهم دون اي اعتبار للون او التابعية او العرق او الدين . . . ويستطيع كل انسان ان يدخل هذه الكلية ويفيد من كل ما تقدمه له هذه المؤسسة . . ويخرج منها وهو يؤمن بإله واحد او بآلهة عديدين او ملحدا لا يؤمن بإله [1] . إمتازت الاميركية بتهيئة طلبتها الى الاستقلال الفكري وحرية اختيار الرأي والفكر ، وتمكنت كوادرها من سبك ونقل الاصول الادارية والتنظيمية

---

(١) فيليب حتي : لبنان في التاريخ ، مؤسسة فرنكلين ١٩٥٩ ص ٥٥٢ .

والتربوية ، وصبغتها بالطابع المحلي العربي ، واضحى المؤلفون يبذلون اقصى الطاقات لكتابة مصنفاتهم ومؤلفاتهم باللغة العربية . لكن هذه المنجزات والاعمال الايجابية التي اتصفت بها الجامعات التبشيرية في لبنان كانت تخفي في كوامنها الكثير من السلبيات الهادفة الى سياسة معينة ، تحد من حرية المواطن وتعلقه بالسيادة والاستقلال ، كما تبث سمومها الثقافية محاولة تغريبه عن محيطه العربي وثقافته القومية خاصة عندما اقدمت الجامعة اليسوعية على جعل تاريخ التعليم فيها يدرس باللغة الفرنسية ، وغرقت الناشئة بفضائل وآثار ملوك فرنسا وادبائها حتى اصبحت الناشئة آنذاك تعرف عن كلوفيس وشرلمان وفرنسيس الأول ولويس الرابع عشر وجان دارك ورابله وديكارت وكورناي وراسين ولافونتين وبوالو أكثر مما تعرف عن ابطالها وادبائها وملوكها[1] . والاخطر من ذلك انها مع تغلغل الرساميل الفرنسية وتورط ادارة جامعة اليسوعية ، بالسياسة الفرنسية ، لقاء المساعدة المالية المقدمة لها مع نشوب الحرب العالمية الاولى ، لعبت دوراً حماسياً ونشاطاً في التمهيد للانتداب والاحتلال الفرنسي وذلك من خلال تحويل قسم من المسيحيين عن العروبة وارتهانهم للسياسة الاجنبية ، اضافة الى لعب الورقة الطائفية نفسها التي لعبتها اوروبة سابقاً في أكثر من مجزرة عندما اثارت هذه النعرة وغرست بذور الفرقة وثبطت الهمم وضربت فكرة الاخاء والمحبة التي دعا اليها المعلم بطرس البستاني ورفاقه الابرار في اكثر من مجال ومكان .

لم يقصر الاجانب اهتمامهم على مدارس الذكور بل التفتوا نحو رعاية النساء خاصة ، وإن حوادث ١٨٦٠ المؤسفة افقدت النساء ازواجهن وآباءهن . فأسّسوا المدرسة الانكليزية التي انشأتها مسز بوني طمسن ١٨٦٠ والتي عرفت باسم مسز « موط » ومدرسة الكلية الانجيلية الاميركية للبنات عام ١٨٦١ . وللطائفة الكاثوليكية السبق في تشييد مدارس للبنات والتي اقامتها سنة ١٨٤٥ تحت اسم راهبات مار يوسف ومدرسة راهبات المحبة عام ١٨٧٤ »[2] .

اما المدارس الوطنية فيعود فضل انشائها الى المتنورين من ابناء البلاد ، الذين

---

(١) مسعود ضاهر : تاريخ لبنان الاجتماعي ، دار الفارابي ١٩٧٤ ص ١٦٢ .

(٢) جرجي زيدان : تاريخ اداب اللغة العربية . مكتبة الحياة ١٩٧٨ مجلد ٢ ص ٣٩٧ .

وان درسوا في المؤسسات الاجنبية ، الا انهم فقهوا الدور الرائد لها في نهضة البلاد وبالأخص لأفكارها الاصلاحية الفكرية منها والانسانية التي ترفض التعصب وتدعو للتآخي ، وتكشف المظالم وتعلن العدالة والمساواة .

انشاء « المدرسة الوطنية » :

وكان من احب اللبنانيين للعلم ، وابعدهم اثرا في الميدان الوطني المعلم بطرس البستاني الذي استطاع ان يجمع ثقافة عربية واوروبية ضخمة ، ويؤسس سنة ١٨٦٣ المدرسة الوطنية ، التي تعد بحق من احدث المدارس العصرية . لقد جمعت هذه المدرسة بين صفوفها التلاميذ على اختلاف عقائدهم ، وعرفت تسامحا دينيا ، ومثلا وطنية ، وقيما اخلاقية انسانية ، فقضت على المفاهيم الخاطئة، وذلك بالكشف عن مصلحة الاجنبي في اثارة الفتن الداخلية وتسعير المشاعر الطائفية . وهذه المدرسة سرعان ما ذاعت شهرتها فجلبت الطلبة من مختلف انحاء البلاد . من بينهم ابراهيم بن ناصيف اليازجي وسليمان البستاني معرّب الالياذة . كان شعارها المبدئي « حب الوطن من الايمان » صفعة عار في جبين تجار الطائفية والنعرات الاقليمية والمذهبية ، وأرباب المصالح الطبقية ، وصوتها المدوي كان العاصفة الهوجاء التي اقتلعت جذور مآسي فتنة ١٨٦٠ وما خلفته من مذابح ودمار وقتل . والمعلم البستاني ، لم يحصر اعضاء الهيئة التعليمية في طائفة واحدة ، بل اصطفاهم عن وعي وتصميم ، من مختلف الأديان والطوائف ، للمشاركة في عملية الاصلاح الاجتماعي وهم : احمد الأزهري ويوسف الاسير وناصيف اليازجي وشاهين سركيس . اما غايتها الاساسية فتتبلور في تعليم الوطن وحبه ، وبث الالفة والمودة بين جميع اعضائه ، ومحاربة التعصب والدعوة الى التفاهم والاتحاد والانصهار في خير الوطن ومصلحته[1] .

هذه المدرسة الوطنية خرجت رواد الفكر والاساتذة الاماجد الذين ولجوا ابواب الحرية والاستقلال والكرامة ، ودخلوا المفاهيم الحديثة والاهداف العصرية ، ومهدوا الطريق لافتتاح المدارس الوطنية والتخفيف من نفوذ وانتشار المدارس الاجنبية

(١) جورج انطونيوس : يقظة العرب ، دار العلم للملايين ١٩٦٢ ص ١١٥ .

والطائفية ، كما شاركوا بمختلف المستويات والصعد ، في ورشة النهوض بالوطن علميا وتربويا واجتماعيا . من هنا بدأت المقولات الوطنية والمصالح المشتركة والقواسم الوطنية تعلو على التناقضات الثانوية والخلافات الجزئية . كل هذا اخذ يتغلغل عند ابناء الجيل الجديد بفضل انتشار المدارس الوطنية المسيحية منها والاسلامية كمدرسة الثلاثة اقمار في سوق الغرب التي نقلت الى بيروت عام ١٨٦٦ ، ومدرسة يوسف الدبس في عام ١٨٦٥ ومدرسة الحكمة اشهر مدارس الطائفة المارونية . اما المدارس الاسلامية فقد سارت بمحاذاة المسيحية في دفع عجلة النهضة الى الامام . وقد عرفت بيروت وطرابلس طائفة من المدارس الاسلامية في مقدمتها الكلية الوطنية الاسلامية في طرابلس لعام ١٨٧٩ . وفي بيروت كان لتأسيس جمعية المقاصد الاسلامية اعظم الأثر في نشر العلم في صفوف المسلمين اناثا وذكورا . وهذا ما اكده بيان الجمعية الاول الذي يهدف الى تفقد احوال الفقراء من ابناء الطائفة الاسلامية وايجاد المعاهد العلمية وخدمة الامور الخيرية .

الفصل السادس

المؤسسات العلمية والتعليمية في عصر النهضة : مصر

تتفق معظم الآراء ان النهضة العربية الحديثة ، بزغت مع حملة نابليون الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ م التي قدر لها ان تحرك النفوس وتثير العقول ، امام الاجهزة العلمية الحديثة التي حملها بونابرت معه على سفينة (Orient ـ الشرق) كالمطبعة والصحافة والاجهزة الكيمياوية المتنوعة ورجال الاختصاص في شتى انواع العلوم والمعارف التي عملت على نشر افكار الحضارة الاوروبية .

وكان لمبادىء الثورة الفرنسية القائمة على الثالوث الخالد ـ الاخاء والمساواة والحرية ، دور كبير في ذلك ومع ذلك فإن تباشير النهضة ، تفجرت مع بداية القرن الثامن عشر اثر الاحداث والتحركات الشعبية التي كان آخرها انتفاضة الجماهير الفلاحية الكادحة في صعيد مصر ، على الظلم والجور والضرائب والمكوس الجديدة والاتاوات المتكررة ، وعلى اعمال النهب والسلب ، والاعتداءات البشعة على المساكين والمستضعفين ، وهتك الاعراض والمحرمات ، والمطالبة باقامة العدل والمساواة ، والاحتكام الى الشرع الاسلامي ، علماً بان طبيعة الحياة والقوانين العامة ، الموضوعية وغير الموضوعية التي تتحكم بمنهاج التطور ، كانت تحتم حدوث ما يسمى اليوم بالانبعاث والنهضة ، لأن هذه المقدمات ، او الارهاصات ، والعوامل النهضوية العديدة ، وجدت طريقها الى مصر واحدثت اكبر التحولات والاعمال العمرانية والعلمية على يد محمد علي ، الذي استطاع بدرايته ووعيه ومرونته وخبرته السياسية، ان يعيد عظمة مصر ودورها الحضاري والريادي ، حيال

الشعوب العربية الاخرى ، وان يصمد امام دهاقنة « العدل » الاستعماري ، والاعيبهم الخبيثة ملقياً في قلوبهم الرعب ، خاصة عندما تعرض لمصالحهم ومسّ اعمالهم وتصدى لقوتهم واطماعهم الاستعمارية المعروفة في الامبراطورية العثمانية .

التحولات الاصلاحية في عهد محمد علي :

استطاع محمد علي بذكائه وشجاعته ان يدخل قلوب المصريين ويستحوذ على علمائها واعيانها الذين نادوا به في الاجتماع الكبير ، المنعقد في القاهرة في ايار ١٨٠٥ والياً وزعيماً على مصر(١) . وذلك بغية وضع حد لحالة الفوضى والاضطراب في الديار المصرية ، ووقف النزيف الدموي والاضطراب الامني . وبالفعل وبفضل ايثاره للمعرفة والتقدم وتمتعه بشخصية فذة قادرة ، فقد جندّ نفسه للعمل ووضع البلاد في « ورشة عمل » واخذ في بناء وتنمية البلد ، وبذل جهوداً ضخمة ورائعة في ميدان التعليم والثقافة والاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية والصحية والزراعية والعسكرية .

ازاح محمد علي كل المقومات والمشكلات الداخلية التي يمكن ان تعترض طريقه ، وتحدَّ من تحقيق تطلعاته السياسية في اقامة : الامبراطورية العربية والمتأورية . لذلك اقدم ، بعد سحق حملة فريزر ، وتدمير الاسطول البريطاني في « رشيد » في ٢١ آذار ١٨٠٧ ، على ضرب نفوذ المماليك وتصفيتهم في القلعة عام ١٨١١ ، ثم ابادتهم في مختلف مديريات مصر ومن ثم توجه الى الاصلاح الداخلي ، فوضع عدة مشروعات لبناء سدّ على نهر النيل، وشق قناة السويس ، وانشأ خطاً حديدياً ، يربط القاهرة والاسكندرية ، وشيّد الكثير من المدارس والمعاهد والمصانع ، وارسل البعثات العلمية على مختلف الاختصاصات والعلوم ، التي قاربت الاربعمائة ، الى اوروبا ، ليتعلموا العلوم الحديثة ، ويطّلعوا على احدث المبتكرات العلمية في فرنسا، ويعودوا الى مصر اساتذة في مدارسها ومعاهدها ومؤسساتها ينكبون على تحرير الامة والناشئة من أدران العقلية القديمة والتصورات المأفونة ، والحثّ على

---

(١) د. طلال المهتار : آثار حملة بونابرت على مصر ص ١٩٨ . ود . لويس عوض : تاريخ الفكر المصري الحديث ص ٨٢ .

تنوير العقول ، وتشجيع دعوة الانفتاح على الحياة الجديدة والاخذ بمفاهيم الحضارة والتقدم لمواكبة مسيرة الركب الانساني .

لقد أدرك محمد علي منذ الوهلة الاولى ، ان طموحه ونظرته في بناء امبراطورية عربية حديثة تضاهي اوروبا علماً وثقافة ومعرفة وعمراناً، تقف في وجه التوسع الاستعماري، وتحدّ من جبروته وطغيانه في المنطقة العربية، وتنهى سيطرته السياسية والاقتصادية . لهذا عمد الى الدهاء السياسي، والمرونة في اتخاذ المواقف والقرارات لعلمه ان اوروبة موحدةً تقضي عليه وتشل حركته ، وهذا ما أسرّ به محمد علي نفسه الى القنصل البروسي عندما قال : « اذا اجتمعت كل الدول الاوروبية العظمى ضدي فانا اعرف انها تستطيع سحقي وتدميري ، الا انني في هذه الحال سأسقط بشرف »[1] .

انشاء المؤسسة العسكرية والطبية :

هذه القناعة الذاتية ، تجاه الغرب ، أوجبت عليه قيام دولة عصرية تعمل بهدي النظريات العلمية الحديثة وتسترشد بالافكار الجديدة التي طرحها واعتنقها المواطن ، في اكثر من مجال وميدان ، ولهذا لم يتوان . فور تسلمه سلطة البلاد وتسويته بعض الاوضاع والأمور الداخلية والخارجية، عن طلب العلم وتشجيع ابناء الشعب بمختلف طبقاته وفئاته على الاغتراف منه . فشيِّد اول مدرسة اعدادية حربية في اسوان » في الديار المصرية عام ١٨١٥ لاعداد وتجهيز جيش مصري متدرب على احدث الانظمة والالات العسكرية التي كان قد وعاها اثناء حملته المنتصرة ضد حركة الوهابيين التي اظهرت له مدى تفكك جيشه ، وقلة تدريبه من جهة ، وضرورة انشاء قوة عسكرية امام القوى الاجنبية المتربصة، من جهة اخرى . لذلك اتى بطائفة من اساتذة الفنون العسكرية الاوروبيين وعهد الى الكولونيل الفرنسي « سيف »[2] المعروف بسليمان باشا مسؤولية هذه المدرسة وتخريج نواة الجيش المصري النظامي الذي اقتصر في البدء على عناصر غير مصرية ، من مماليكه وخدمه

(١) مجلة الثقافة العربية . بيروت . تشرين الثاني ١٩٧١ ص ٨٣ .

(٢) سيف Seves فرنسي الأصل قاتل في حروب نابليون ، وتدرج في الرتب العسكرية حتى نال رتبة كولونيل اعتنق الاسلام بعد استقدامه من فرنسا واقامته من مصر .

وبطانته ، بالاضافة الى الاعداد الضخمة التي قدمها زعماء المنطقة ، لخوف محمد علي من توصل المصريين الى القيادة والاحاطة به، وبالتالي الاستقلال بمصر ، وجعلها للمصريين ، ولهذا رأيناه يعمد بعد تجربة السودان ومجازفته بقبول تجنيد المصريين ، الى احتكار المناصب العليا في الجيش ، وجعلها محصورة في الضباط الاتراك . الأمر الذي لقي نقمة ومعارضة من ممثلي الشعب ومتنوريه . وتجلى بقوة اعظم في ثورة احمد عرابي عام ١٨٨١ التي كان في مقدمة مطالبها ، تمصير المناصب العسكرية والمدنية في الدولة ، وتسوية المصريين بالاتراك في جميع التعيينات والمناصب .

الجدير بالذكر ان محمد علي قصد من انشاء المدرسة الحربية في اسوان ، البعيدة عن مدينة القاهرة ، ابعاد المتطوعين المصريين عن هذه الاماكن خوف الانغماس فيها وهو الذي توخى من اعدادهم أعظم الأعمال واثمن النتائج ، والحيلولة دون قيام جيش مصري قوي قادر على الاطاحة به والتخلص منه ، واعلان الاستقلال . لهذا اقصى المصريين عن مجلس الوزراء او كما سمّاه مجلس الحكومة على غرار مجلس الديوان الذي انشأه بونابرت في القاهرة في تاريخ ٢٥ تموز عام ١٧٩٨ ، علماً بأن مجلس وزراء نابليون تألف من الشيوخ والأعيان والعلماء المصريين، في حين لم يكن من بين وزراء محمد علي ، مصري واحد .

وعت الفئة المتنورة من قادة مصر ، ان وسائل وطرق الاستشفاء ، المتبعة مع المواطنين غير صالحة، وان حاجات المجتمع البشري وضرورات الحياة ، توجبان الاسراع بقيام المؤسسات العسكرية والتعليمية الحديثة ، واستحداث الاجهزة والآلات العصرية ، التي تتوافق مع النظرة العلمية والمعارف العقلية ، عدوة الافكار الطوباوية والتصورات الخيالية ، والتهويمات المثالية المتطرفة والتعاليم السحرية للمشعوذين والدجالين المرائين، الذين يخدرون المواطن بوصفاتهم الكاذبة، وتعاويذهم الخرافية . والمصريون لخبلهم وجهلهم آنذاك ، كانوا يعتمدون على بعض النسخ من الادوية ، التي عرفوها في الكتب القديمة ، وعلى ما تمخضت عنه التجارب من كي وحجامة ، والدهماء منهم يعوذون بمدعي الطب من المنجمين والسحرة او يكتفون في طلب الاستشفاء بزيارة الاضرحة والقبور، وتقديم النذور . لذلك اقدم محمد علي،

على استدعاء الطبيب الفرنسي كلوت بك[٤] وأوكل اليه مسؤولية طبابة الجيش المصري . ونظراً لما يتمتع به هذا الطبيب من مؤهلات علمية ، ومن رغبة صادقة في مقاومة الأوبئة والامراض المستشرية ، ونظراً لخدماته الصحية في الجيش وفي الحياة المدنية فقد عهد اليه ، ادارة مدرسة الطب التي انشأها عام ١٨٢٧ في ابي زعبل . لتخريج الاطباء من أبناء البلاد ، وقد جلبت له حكومته ، الاطباء من مختلف البلاد الاوروبية وخاصة من فرنسا لتدريس علم التشريح والجراحة والصيدلة .

ان النهضة الطبية الحديثة في مصر مدينة لهذه المدرسة ولاستاذها كلوت بك ، الذي استطاع بفضل نشاطه وعلمه تحمل اكثر من مسؤولية ، من رئيس اطباء الجيش ، الى مسؤول المدرسة الطبية والمستشفى العسكري ، الذي اقيم بجوار المعسكر العام للجندية ، حيث عظم دوره في مؤسسة مجلس الصحة التي شيّدت على نمط النظام الفرنسي. وكان لها أروع الفضل في النهوض بحالة البلاد الصحية ، وخلق ثقافة طبية جديدة ، ونظرة موضوعية ، ومنطقية للحياة والعلوم . لكن هذا الصرح العلمي المتقدم ، جوبه بمشكلة اساسية ، هي اشكالات اللغة الاجنبية وتعريب المصطلحات العلمية الأعجمية. لكن الرغبة الصادقة من قبل الاجهزة المختصة ، ذلّلت هذه المعضلة ، باستخدام مترجمين من السوريين والمغاربة ، يستمعون الدروس باللغة الاجنبية ثم يؤدّونها الى طلابنا بالعربية ، هؤلاّء المترجمون ادوا عملهم على أكمل وجه ، اذ كانوا شموعاً مضيئة وحجر الاساس في بناء علم الحضارة الجديدة واليقظة العربية ، وخاصة عندما عمدوا بالبحث والتنقيب الى معجمات اللغة وكتبها العربية القديمة . ككتاب « قانون ابن رشد » ، من اجل ايجاد المصطلحات العلمية والكلمات التقنية ، وجعل لغتنا التي ضعفت اثر سقوط الخلافة العباسية وانهيار حضارتها التي اشاعت النور والمعرفة في مختلف اصقاع العالم، تماشي النهضة العمرانية الحديثة. هذه الحركة «المؤسسية» النشطة التي شملت شتى القطاعات ومجمل نواحي الحياة استطاعت تأسيس أكثر من مدرسة للصيدلة والولادة والتمريض.

---

(١) عام ١٨٣٥ . حلّ الطاعون بمصر . وبذل كلوت بك جهوداً عظيماً في مكافحة هذا المرض . فأنعم عليه محمد علي لقب البك ، تقديراً لجهوده وتثميناً لمواقفه الشجاعة .

الا ان قناعة الخديوي وايمانه بأن النهضة الحقيقية لا تقوم الا على اكتاف ابناء البلاد الاصليين[1] والمواطنين الصالحين ، جعله اخيراً يوفد الطلاب النابهين في بعثات الى مختلف دول اوروبا وبخاصة فرنسا التي ضمت في البعثة الاولى عام ١٨٢٦ أربعة وأربعين طالباً من الأزهر برئاسة المستشرق الفرنسي المهندس جومار وباشراف الامام الواعظ رفاعة الطهطاوي، حتى لا يغيب الطالب عن سربه وبيته في الحياة الفرنسية الجديدة ، وينسى الغاية التي من اجلها غادر بلاده ، هذا الإمام الذي استطاع الى جانب مهمته ، ان يكون احد الاعلام الرئيسين للبعثة ، ومن اكبر رجالات مصر العلمية والادبية والفكرية والتاريخية .

فقد لعب دوراً بارزاً في دنيا الفكر والمعرفة ،وله صولات لا تمحى في عالم الثقافة والحضارة وأصول الدين والقضايا التنظيمية واتسع عقله لكل جوانب الحياة ومرافقها . هذه البعثات التي قارب عددها الاربعمائة انفق محمد علي ، عليها مبالغ طائلة قدرت بربع مليون جنيه مصري الا ان البعثة الطبية لعام ١٨٣٢ والتي كان طلابها من مدرسة الطب المصرية ، وبعثته الانجال لعام ١٨٤٤ التي ضمّت خمسة من افراد اسرة الخديوي، من بينهم حفيده اسماعيل ، تعدّان من اهم البعثات التي هيأت للبلاد المنافع والخيرات . ونحن لا نستطيع في هذه الدراسة الموجزة ، ان نتابع اعمال البعثات ومنجزاتها ، الا اننا نؤكد ان لها افضل الاثر في تقدم مصر ونهضتها الحديثة خصوصاً في موضوعات احياء اللغة العربية واغنائها بالتراث العربي والاسلامي ، ورفدها بالمصطلحات العلمية والمرادفات الجديدة .

انشاء مدرسة الادارة والألسن :

نظراً لأهمية الترجمة ودورها في تشييد اليقظة النهضوية انشأ محمد علي بايعاز من الطهطاوي واشرافه ، مدرسة : « الادارة والالسن » عام ١٨٣٦ ، التي قدر لطلابها ان يعربوا اكثر من الف كتاب ورسالة ، في مختلف العلوم والفنون ، وذلك بفضل مراقبة محمد علي ، الصارمة وتشجيعه للطلاب بالمكافآت السخية والهدايا المتنوعة . ويقال انه عقب عودة طلاب البعثة الاولى من فرنسا ، استقبلهم محمد علي بديوانه

---

(١) بعد أن غيّر رأيه ـ أي محمد علي ـ وكان هذا في مرحلة لاحقة .

في القلعة وسلّم كلاً منهم كتاباً بالفرنسية ، في المادة التي اختص بها ، وطلب اليهم ترجمتها الى اللغة العربية آمراً بابقائهم في القلعة لا يأذن لهم بمغادرتها حتى يتمّوا ما عهد به اليهم .

هذه المدرسة وان كانت في البدء ، انشئت خصيصاً لمصلحة الدولة ومنفعة حكومتها وبخاصة عندما جعلت من خريجيها اقلاماً لها ، يقومون على ترجمة الكتب اللازمة لمدارس الحكومة المختلفة ، الا انها مع مرور الايام ، تمكنت من بسط جناحها على الأرض المصرية ، ومدت بقية المدارس التربوية والمؤسسات الادارية والثقافية ، باعلام النهضة من كتاب ومفكرين سطعت اسماؤهم في دنيا العالم بأسره . وهنا لا بد من التنويه بعمل محمد علي الحيوي والعظيم ، يوم سنّ قانون نشر العلم بين المصريين كافة، وجعله مجانياً في المدارس والمؤسسات التعليمية، سواء في الابتدائية او الثانوية او العالية من دون تمييز بين فقير وغني او كادح واقطاعي ، اضافة الى ما كانت تنفقه حكومته على طلابها من اموال وما قدمته لهم من عناية في شؤونهم الخاصة ، واهتمام باوضاعهم الحياتية من سكن ومأكل وملبس ، بيد ان الاهالي في اول الأمر لقصر نظرهم وتقوقعهم في زوايا الجهل والظلامة ، لم يطمئنوا لمثل هذه المؤسسات النهضوية ولم يفقهوا المنفعة العامة التي تجنيها الأمة منها ، فعمدوا الى تعطيلها والتنكر لها ، بكل الوسائل المتاحة ، من منع ايفاد الاولاد اليها بحجة الخوف من إفسادهم وتضليلهم ، الى فقء بعض الامهات في القرى والاماكن المتخلفة ، أعين اطفالهن حتى لا يذهبوا ويتعلموا فيها[1] . لكن اصرار الحكومة المبدئي في ادخال العلم ونشر الوعي ، اضطر محمد علي والمسؤولين في السلطة في كثير من الاحيان الى ادخال الطلاب في المدارس قسراً وعنوة .

والواقع ان نهضة محمد علي علمية وحربية ، اكثر منها ادبية وفلسفية ، وذلك لطبيعة المرحلة التي كانت تجتازها البلاد المصرية ، التي عرفت جهلاً وتخلفاً من جهة وتسلطاً استعمارياً وطمعاً اجنبياً من جهة اخرى ، الأمر الذي اقتضى اعطاء الاولوية للمؤسسة الحربية والعسكرية ، كي تقدر على مواجهة الاعتداءات واقامة المؤسسة العلمية : الصناعية والزراعية التي تعمل على زيادة انتاج البلد ومواردها

(١) عز الدين الأمين : نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر - دار المعارف بمصر ١٩٧٠ ص ٤٨ .

بهدف تحقيق الاستقلال الاقتصادي كمدخل للاستقلال التام السياسي والثقافي ولهذا عقب عودته من حرب المورة في اليونان بدأ بتشكيل فرق فرسان الجيش المصري في المدرسة الحربية ، فأنشأ في عام ١٨١٦ مدرسة الهندسة ، وهي الاولى من نوعها في مصر ، ومدرسة الزراعة عام ١٨٣٦ واسس مدرسة المعادن القاهرية عام ١٨٣٤ ومدرسة الفنون والصنائع عام ١٨٣٩ .

ان تاريخ محمد علي سلسلة متصلة الحلقات من الاعمال العمرانية والامجاد العسكرية والاصلاحات الاجتماعية والتربوية ، التي حظيت باعجاب الناس في الشرق والغرب ، ووضعت اسس الدولة العصرية ومرتكزاتها العلمية المستقلة عن الدول الكبرى . وما تقرير قنصل انكلترا في سورية الذي اشار فيه الى الخطر الكبير ، المهدد لمصالح انكلترا في منطقتنا العربية ، الا وصمة عار في جبين بريطانيا ، بفضل سياسة محمد علي الحكيمة بشكل لم تعهدهٔ بريطانيا من قبل .

هذه النهضة الناشطة لم يعبها اهتمامه بالتنمية المادية والتكنولوجية ولا سيما الاغراض العسكرية،وعدم التفاتها الى بناء الانسان وتربيته[١] . نظراً للهجمة الشرسة الاستعمارية ، التي كانت تحيك المؤامرات وتثير الاضطرابات بهدف مضايقته واضعافه داخلياً .

ولو توقفنا عند مبدأ محمد علي ، الرافض بقوة لكل القروض الاجنبية ، مهما كان وضعه الاقتصادي سيئاً ، حفاظاً على حرية عمله ، وحرصاً على سيادة بلاده ، لغفرنا له هذا النقص التربوي والانساني. وسيبقى فضله انه عبَّد الطريق للقادمين من بعده الذين سيسدون هذه الثغرة ويكملون بنيان هذا العمل العظيم ، امثال الطهطاوي الذي هتف يوماً : فليكن وطننا مكان سعادتنا المشتركة الذي نبنيه بالحرية والفكر والمصنع[٢] .

النهضة الأدبية في عهد اسماعيل :

صحيح ان لمحمد علي اثراً بيّناً في تاريخ نهضة مصر الحديثة ، لكن الذي لا

---

(١) لويس عوض : تاريخ الفكر المصري الحديث ص ٨٤ .

(٢) مجلة الثقافة العربية، بيروت ١٩٧١ عدد السادس ص ٧٧ .

ريب فيه ، ان الدور الحضاري الذي عرفته مصر يعود الى عهد الخديوي اسماعيل الذي اعطى التعليم والنهضة الادبية نصيباً عظيماً من جهوده . فقد أعاد معظم المدارس التي انشأها محمد علي وأغلقها عباس وسعيد ، وبعث فيها روح الحياة والنشاط ، وبخاصة مدرسة الادارة والالسن ، التي اعاد انشاءها عام ١٨٦٨ وسمّيت مدرسة الحقوق ، منذ عام ١٨٨٦ وكان اول ناظر لها احد علماء فرنسة المدعو فيدال Vidal. ويعتبر عبد الرحمن الرافعي ان النهضة الادبية والسياسية في البلاد المصرية ، مدينة لهذه المدرسة التي خرجت معظم رجال القانون الذين تفقهوا في نهضة القضاء وتشريعه[1] .

ويعدّ عصره من ابهى العصور التي أينعت فيه النهضة الادبية واثمرت عطاءاتها ، على الرغم من بذخه واسرافه الذي ورّط مصر في ازمة اقتصادية خانقة ، قادت البلاد الى تدخل القوى الاجنبية في اوضاعها الداخلية وادت بالمحصّلة الى احتلالها .

اراد اسماعيل باشا ان يوازي اوروبة فكراً وعلماً وادباً فعمل منذ توليه الحكم على تنفيذ برنامج حافل بالاعمال الاصلاحية ، والانجازات العمرانية المبنية على النظم الاوروبية والوسائل الحديثة التي دفعت كثيراً من أثرياء البلد وكبار أعيانه الى ارسال ابنائهم الى اوروبة على نفقتهم الخاصة ، لينهلوا من ثقافتها ويتزودوا من نظمها ومناهجها ، انطلاقاً من ايمانهم بقيمة البحوث العلمية ، واثرها في نقل الحضارة الغربية[2] .

لكن الأثر العظيم والعمل المفيد الذي عرف به اسماعيل ، يرجع الى انشائه مدرسة دار العلوم عام ١٨٧١ بايعاز من علي مبارك وتوجيهه ، لتخريج اساتذة اكفاء في اللغة العربية يضطلعون بتدريس طرق التعليم الحديث في المدارس الابتدائية والثانوية . وكان غرضها تعميق الطلبة في الدراسات العربية والاسلامية ونيل قدر كبير من العلوم والمعارف التي تسهم في التمييز بين التعليم القديم والحديث ، والاسلوب القديم والنهج الجديد . ويبدو من المعطيات التاريخية وظروف

---

(١) عبد الرحمن الرافعي : عصر اسماعيل . دار المعارف . القاهرة ١٩٨٢ ج ١ ص ٢٠٢ .

(٢) عز الدين الامين : نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر ص ٦١ .

نهضة البلاد التعليمية ، ان سبب نشوء الفكرة يعود في الدرجة الاولى الى تأسيس المدارس والاكثار منها ، وبخاصة بعد أن اصبح التعليم الزامياً ومجانياً حيث استدعت الحاجة الى طائفة من الاساتذة لتدريس اللغة العربية وآدابها علماً بانه دُفع راتب شهري لتلاميذ هذه الدار . الذين كانوا من متفوقي كلية الأزهر ، ممن حفظوا القرآن وتلقوا دروس اللغة والفقه[1] .

ادت هذه الدار رسالتها في عملية النهضة واليقظة الوطنية والقومية ، وصانت اللغة وبعثت تراثها وجددت فيها واعطتها روحاً جديداً ، وقد دفعت بالأدب نحو الامام فتخرج منها مجموعة ، عرفت بعلمها ودرايتها بكثير من القضايا الادبية والانسانية ، وتمكنت من ان تسلك طريقاً وسطاً بين الأزهريين المتصلبين ، وبين المتأوربين من خريجي المعاهد الحديثة ، هذه المكانة الرفيعة التي تبوأتها « الدار » ، تبدو اكثر سطوعاً في لفتة محمد عبده حين قال بمناسبة الامتحان النهائي للدار في تقريره المرسل الى المسؤولين عام ١٩٠٤ « انتهز هذه الفرصة للتصريح بمكانة هذه المدرسة في نفسي ، وما اعتقده من منزلتها من اللغة العربية ، الناس يذكرون اللغة العربية ، واهمال اهلها لتقويمها ، ويوجهون اللوم الى الحكومة ، ان باحثاً مدفقاً ، ان اراد أن يعرف اين تموت اللغة واين تحيا لوجدها تموت في كل مكان وتحيا في هذا المكان »[2] بلغ اهتمام الامام بها ، ان جعلها مركزاً فكرياً ومنارة علمية ، لنشر ثقافة دينية ومدنية ، ومرجعاً لحركة التجديد والانبعاث الاصلاحي الهادفة الى توحيد الرؤى التربوية والمذاهب التعليمية ، فكانت ولا تزال من اولى دعائم نهضة جامعتي القاهرة والاسكندرية في دراسة الآداب والنصوص ومن أهم الصروح التي تخرج منها على الدوام اساتذة من الكتاب والمؤلفين ، الذين تبوأت اسماؤهم الصدارة والريادة في النهضة العربية الحديثة .

هذه النهضة التي دعا اليها اسماعيل باشا ، أيقن أنها لا تقوم على عنصر الرجال فقط ، ولا بد من اكمال هذا النقص ، واعطاء العنصر النسائي دوره في المسؤولية والحياة ، فعمد الى انشاء مدرسة السيوفية للبنات عام ١٨٧٣ التي كان

---

(١) عبد الرحمن الرافعي : عصر اسماعيل ج ١ ص ٢٣٥ .

(٢) طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر . ص ٢٧٩ .

التعليم فيها مجاناً ، وجميع النفقات من مأكل وملبس على حساب الحكومة[1] .

هكذا أخذت المرأة تشق طريقها في تحمل المسؤولية وتزاحم الرجل في المعهد والكلية . فأنشأ « دار الكتب » ١٨٧٠ لتنشيط مادة البحث والمطالعة ونشر المصنفات والمؤلفات بصورة لا تقل في الاهمية عن دار العلوم ، خصوصاً بعد ان جمع الكتب المتفرقة في مخازن الحكومة ، ومكاتب الاوقاف والمساجد ، وضم مكتبة العلامة احمد تيمور الثرية ، ومكتبة شقيقة الامير مصطفى فاضل ، الذي عرف بحبه لهواية جمع الكتب التي قدرت بثلاثة الآف كتاب[2] . وبذلك اصبحت نواة للمؤسسة العلمية الكبيرة . التي غزت البلاد واضحت مركزاً تراثياً وحضارياً ومرجعاً علمياً واكاديمياً للبحث والدرس .

هذه الصروح العلمية غيرت من عقلية الانسان المصري ومفهومه للمجتمع والحياة ، وجعلته يتطلع الى مستقبل افضل في ظل دولة عصرية تسودها المباديء الانسانية والقيم الاجتماعية العالية ، التي توافق عليها احرار العالم . وبالفعل كان اسماعيل باشا مشجعاً للنهضة العلمية والادبية ، فأغدق هباته على طلاب العلم وعاضد الفئات المثقفة ، فازدهرت في عصره الحركة العلمية ، ونشط الادب وظهرت مجموعة من الكتّاب والشعراء الذين تركوا النهج القديم والتقليد الاعمى . من حيث التعقيد والركاكة . والسجع المتكلف ، واخذوا منحى جديداً قام على بلاغة العبارة ومتانتها وسهولة الاسلوب وجزالته إضافة الى المعاني الطريفة والافكار الجديدة .

وهكذا ، وبفضل هذه المؤسسات النهضوية ، سطع فجر جديد ، في ظل ثقافة حديثة، عملت على ضرب الافكار الرديئة وطمس المفاهيم القديمة ، التي مجّها العقل ونبذها منطق الحياة الجديدة .

لكن هذه الانجازات التي تحققت على يد محمد علي واستمرت في التقدم مع حفيده اسماعيل ، لم تكن مقبولة عند اصحاب العقول الضيقة : من اقطاع وكبار التجار والاعيان ، الذين لم يستسيغوا فكرة انتشار العلم وتوسيعه وتعميمه لغالبية

---

(١) الياس الأيوبي : تاريخ مصر في عصر اسماعيل ج ١ ص ٢٠٤ .

(٢) عمر الدسوقي : في الادب الحديث . دار الفكر العربي . ط ٦ . ١٩٦٤ ج ١ ص ٧٣ .

الناس ، فراحوا يخلقون في وجهها الصعاب والمشكلات الكاداء حفاظاً على تمايزهم الاجتماعي وتفوقهم الطبقي ، وهذا ما عبّر عنه كرومر عام ١٩٠٨ بعد تركه الأرض المصرية بعام واحد ، عندما دعا الى عدم تشجيع العلم ، بحجة النفقات الباهظة التي تقتضي في المقابل ضرائب ثقيلة . وكان هو نفسه قبل قليل ، معترفاً بالحالة التعيسة التي وصلت اليها البلاد بعد الاحتلال الانكليزي عام ١٨٨٢ الذي اغرقها في جهل عميق قد حثّ على اهمية العلم وضرورة خلق جيل جديد .

هذه النظرة القومية والضيقة الى العلم ، ما لبثت ان انهارت أمام ضربات المصلحين التي فتحت الباب واسعاً امام مختلف فئات الناس وطبقاتهم ، لترتوي من نبعه الفياض وخاصة بعد صيحة طه حسين الداعية الى ان يكون العلم كالماء والهواء لا يحرم منه انسان ولا يمنع منه أحد[1] .

إلا ان الأثر الواضح والجهد الكبير في تشييد الجامعة المصرية عام ١٩٠٩ ، عقب مجزرة دنشواي الرهيبة ، التي ارتكبها الانكليز بحق المصريين لا يزال يذكره المصريون وبقية شعوب الاقطار العربية بالمدح والثناء ، لكبير خدماته وعظيم نتائجه .

شيدت هذه الجامعة بناء على رغبة المناضلين من ابناء الوطن المصري امثال مصطفى كامل الرافض انفاق اموال الشعب على حفلة تكريمية أقيمت له ، وفاء لموقفه المشرف من الاحتلال ولبلائه الحسن من الدفاع عن اهل دنشواي .

لقد تم انشاء هذه الجامعة ، بعد سعي حثيث ونضال طويل ، توج باجتماع لقادة الامة في منزل سعد زغلول ، وبرئاسته ، فتقرر انشاؤها وفقاً لارادة حرة، واختيار سليم لمناهجها وموضوعاتها . وكان لهم ما أرادوا ، فرأبوا الصدع الذي أصيبت به اللغة من محاربة واهمال ، وأوقدوا شموع العلم والمعرفة وانطلقت مصر في مسيرتها الجديدة ، موكباً حضارياً عريق الجذور ، ونبراساً يهتدي به الضالون من اجيال امتنا في جميع اقطارها من المشرق الى المغرب . . .

---

(١) د . ابراهيم علي ابو الخشب : تاريخ الادب العربي في العصر الحاضر ص ٧٦ .

الفصل السابع

الصحافة المصرية واتجاهاتها في عصر النهضة

الحديث عن الصحافة في البلاد العربية ، ليس سهلاً كما يتصور بعض الناس بل هو عمل كبير وشاق ، يحتاج الى دراية وعناية ، خصوصاً وان الدراسة في هذا المجال ما زالت بكراً ، ينقصها البحث العلمي الجاد . ونحن لا ندعي لانفسنا القيام بهذه المهمة الصعبة ، ولا نتوخى من خلال عرضنا تاريخ الصحافة في مصر ، الا تذكير الكتّاب العرب بضرورة الالتفات الى هذا الفن ، لما له من آثار في مختلف جوانب الحياة .

نشأة الصحافة :

اجمع المؤرخون على ان الصينيين هم اسبق شعوب العالم الى اختراع الصحف . فقد انشأوا اول جريدة لهم عام ٩١١ قبل الميلاد . كانت توزّع ثلاث مرات أو أربعاً ، يومياً ، لتعبّر عن آراء الحكومة ومواقفها الرسمية . وروي ان الرومان في القرن الاول قبل الميلاد . في عهد يوليوس قيصر ، اسسوا جريدة ، سموها « الاعمال اليومية » ، لينشروا فيها مقررات الدولة ، واخبارها المهمة . ثم ظهرت الصحافة ، على يد البندقيين في ايطاليا عام ١٥٣٦ حين صدرت صحيفة غزتا Gazatta نسبة لاسم القطعة النقدية التي كانت تباع بها الصحيفة في البندقية .

وتلتها انكلترا عام ١٦٢٢ . وفرنسا عام ١٦٣١ . اما الصحافة العربية ، فيبدو ان مصر كانت السبّاقة في هذا المجال .

فقد ظهرت عقب الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨ . الذي انشأ عدة صحف ، منها « بريد مصر LecourrierDe L'Egypte وكانت تصدر كل اربعة ايام ، باللغة الفرنسية ، وهي لسان حال الحملة الفرنسية ، وصحيفة « العشارة المصرية (Ladecade Egyptienne) ، لسان حال المجمع العلمي . وقد اتصفت بشعار « التقدم والاتحاد » اي العمل على تقدم البحوث العلمية في مصر ، والسعي الى دمج الثقافة الشرقية بالثقافة الغربية . وكذلك جريدة « التنبيه » وهي عبارة عن نشرة ، حررها باللغة العربية ، اسماعيل الخشاب الذي اشتهر بكتابته الصحفية الممالئة للاستعمار ، وتضمنت ما يراد به ارهاب الشعب واخضاعه لاوامر السلطات المحلية والاجنبية . ولهذا اعاد كثير من الكتّاب العرب ، النهضة الصحفية العربية ، العلمية منها والادبية ، الى الحملة الفرنسية وصحافتها ، التي حملت مباديء الثورة الفرنسية وشعاراتها الديمقراطية . ومع التسليم باحتمال ما يكون لذلك من امر في نهضة الوعي العربي ، الا ان هذه الاقوال لا تخلو من غلو ومبالغة ، خصوصاً وانه لم يبق من معالم الحملة اثر كبير في حياة مصر الثقافية ، لا سيما وانها نقلت ـ اي الصحافة ـ مع نابليون اثر هزيمته وعودته الى فرنسا . واذا بقي شيء منها ، فانما هو الأثر العام للحملة ، الذي ايقظ مصر ونبهها لحياة افضل . لكن هذا لا يعني اطلاقاً اننا نؤيّد مقولة بعض العرب المتزمتين الذين رفضوا نتائج الحملة على مختلف الصعد ، وما قدّمته من دفع لحركة التحرر العربي والفكر العلمي الحديث ، واكدوا في الوقت نفسه ان هذه النهضة العربية الحديثة ، انبثقت من العرب أنفسهم ، ومن بلادهم ، بحكم سنن التطور والتقدم التي فجرت في النهاية ، الشعور الوطني والقومي ، بل نذهب الى موقف وسط وهو ان يقظتنا العربية عامة والصحفية خاصة كانت بنت هذه الارض التي اثرت فيها حضارة الغرب ومنجزاته العلمية .

الصحافة المصرية :

مرت الصحافة المصرية بأطوار عدة ، تميزت باختلاف الفترات التاريخية

والعهود السياسية ، وتدرجت في التقدم ، شكلاً ومضموناً ، حتى تجاوزت الضعف العام . على يد كتّاب ، جعلوها في مصاف دول العالم المتمدن ، فهل وفّق كتّابنا في صنع الحياة الجديدة والكتابة الجديدة ؟ هذا ما سنحاول ان نطل به ، من خلال تناولنا لامهات الصحف المصرية التي نجحت ـ حسب تصورنا ـ في مختلف العهود السياسية ، من مواكبة نهضة البلاد .

ففي عهد محمد علي باشا ، رأس الاسرة الخديوية ، كان اول عمل قام به ، بعد تأسيسه مطبعة بولاق الحكومية التي نشرت مختلف كتب العلوم والفنون وغيرها من دراسات التراث القديم ، انشاؤه جريدة « الوقائع المصرية » الصادرة في تشرين الثاني من عام ١٨٢٨ بعناية الدكتور (كلوت بك) ، مؤسس مدرسة قصر العيني الطبية . وكانت الجريدة لسان حال الحكومة ، تنشر اخبارها وكل ما يصدر من اوامر وقوانين ، اضافة الى نتف من وقائع الحياة ، فضلاً عن طرائف الموضوعات الادبية والاجتماعية . وقد تولى تحرير هذه الجريدة ، اعلام من كبار ادباء النهضة ، كرفاعة رافع الطهطاوي الذي اشرف عليها مطلع عام ١٨٤٢ ، وعد اول منشيء لصحيفة اخبارية ، باللغة العربية ، في الديار المصرية . ففي عهده لبست « الوقائع » ثوباً جديداً ، بلغتها وبطريقة تبويبها . وعني بالجانب الثقافي والحضاري عناية خاصة ، وبالمفاهيم السياسية والديمقراطية التي حفلت بها اوروبة الحديثة . فكتب عن النظام الجمهوري في فرنسا وعن مجلسها النيابي ، الذي رأى فيهما ما يماثل مفهوم الشورى في الاسلام ، واشار الى مطابقتها لتقاليد الأمة العربية وعاداتها .

عرّف الطهطاوي المصريين بمضامين جديدة وسعى الى ادخال مفاهيم العصر الحديد وقيمه الى مصر ، وتمكن كذلك من ادخال اصلاحات الى اللغة العربية وكتابتها الصحفية والادبية . والواقع ان كتابات الطهطاوي المختلفة ، اعادت الروح والثقة الى اللغة العربية من جديد ، بعد اهمال مقصود منذ عهد المماليك والعثمانيين ، حيث ان اللغة في عهد الخديوي محمد علي ، لم تأخذ حظاً من اهتمامه ، وذلك لأن نهضته اقتصرت على النواحي العلمية والحربية والتطبيقية ولم تعن بالنواحي الأدبية . اما في عهد عباس الأول ، المعارض لكل نهضة وتقدم . فإن العربية محجور عليها كما افصح احد الكتاب العرب : كانت اللغة

العربية مضطهدة في عهد عباس الأول الى حد ان من تحدث بها من طلبة المدارس الحربية ، توضع فيه العقلة التي توضع في فم الحمار ، ويبقى نهاراً كاملاً ، عقوبة له على تحريك لسانه بلغة القرآن »[1] . ونحن بدورنا لا ننفي مثل هذا الكلام ولكننا ، في الوقت نفسه ، لا نميل كثيراً الى تصديقه لما فيه من مبالغة . صحيح ان اللغة العربية ، بقيت مغلولة اليدين ، بأغلال التصنع والتكلف ، وقيود السجع والمحسنات البديعية على العموم ، لكنها مع ظهور فكرة الوطنية المصرية ، سرعان ما تخطت هذا الواقع فاعتمدت الكتابة الصحفية لمعالجة المجتمع واوضاعه الحياتية باسلوب سهل ومتين ، بعيد عن الحشو والاطناب ، تدرج في الصعود والتقدم ، فنضج في زمن الامام محمد عبده الذي تولى تحرير هذه الجريدة « الوقائع » عام ١٨٨٠ . ورعاها بأفكاره الاصلاحية وانتقاداته السديدة ، كيف لا ومحمد عبده هاجم الادعاءات الوهمية ، واحتكم الى سلطة العقل والتجارب العلمية ، وطالب بضرورة ايجاد طرق تعليمية حديثة، واراد من هذه الجريدة منبراً تلبي طموحاته وتضاهي اخواتها الأوروبيات ، في قوة تحريرها ، وفي حسن اخراجها وفي متانة لغتها . وغزارة موضوعاتها . ولهذا كان محمد عبده يوجه رسائل انتقادية للمسؤولين في الجريدة ، يعنفهم على نشر خبر تافه ، لا يليق بمقام الجريدة ، مما دفع العاملين في التأليف والترجمة والنقل فيها ، الى استقدام معلمين مختصين ، على دراية تامة باللغة العربية واصول كتابتها ، يوجهونهم ويقومون اعمالهم . وهنا نتساءل عن ماهية كتابات محمد عبده المفضلة ؟ وهل كانت موضوعات الجريدة واشكالها الاسلوبية متضاربة مع حياة العصر ؟ نعتقد ان محمد عبده نجح في غير صعيد . فهو على صعيد المضمون تمكن من ان يلم بموضوعات العصر المهمة ، فكتب عن مشكلة الفقر والعوز ، وعالج مشكلة الرشوة والفساد التي تسود المجتمع . وفي الوقت نفسه ، فتح صفحات الجريدة للكثيرين من كتّاب العرب وادبائهم الذين اتحفوها بأخبار الرحلات والكشوف والطرائف الادبية الممتعة ، جاعلين منها منبراً لخطب الحفلات التي دبجت غالباً ، على طريقة المقامات .

أما في السياسة فلم يشأ محمد عبده ان يتحدث عنها خوفاً من

---

(١) شوقي ضيف : الادب العربي المعاصر . دار المعارف ، مصر ١٩٧٤ ص ١٧١ .

إحراج بعض السياسيين الذين كان يجلّهم ، ويقدر مواقفهم وقناعة منه في اولوية الاصلاحات العامة على اي عمل آخر . وهذا ما ابانته « الوقائع المصرية » عندما ادان في نيسان ١٨٨١ سياسة عرابي وانصاره ، الذين ارادوا تحويل المصريين فوراً الى اناس مفكّرين . وظهر موقفه اللاسياسي جلياً ، بعد فشل هذه الثورة ، وتمكنه بعد مداخلات كثيرة ، من العودة الى مصر ورفض العمل السياسي كلياً ، والاتجاه الى اصلاح المجتمع عن طريق التربية والتعليم وغيره . وهو القائل : « اعوذ بالله من السياسة . . ومن كل ارض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم او يتعلم او يحب او يعقل في السياسة . . . »[1] .

واما على صعيد الشكل فقد تأقلم محمد عبده و « وقائعه » مع الحياة فراعى الظروف الجديدة وعدّل من اسلوبه ، ولم يعد يصطنع التأنق ، وخاصة انه بات يخاطب عامة الشعب ، ويشرح قضايا مهمة ، تتطلب تبسيط المعنى ، وايصاله بلا غموض .

هذه الجريدة التي تعطلت في فترتي عباس وسعيد ، لعزوفهما عن العلم والمهام النهضوية ، استأنفت حياتها الصحفية مع تولي الخديوي اسماعيل باشا الحكم في مصر عام ١٨٦٣ ، الذي نشّط الحركة العلمية والعمل الصحفي ، وحثّ على ترويج الثقافة والمعرفة ، فاضحت « الوقائع » في عهده ، سجلاً حافلاً باخبار مصر وحياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والادبية ، ومكاناً رحباً لمعرفة العلوم والفنون .

اذا كان الإمام عبده والطهطاوي قد تمكنا من السمو بالعمل الصحفي واضفيا عليه فيضاً من المعلومات والمعارف المختلفة ، فإن وزير معارف مصر علي مبارك . وصفوة من اقلام العربية ، ممن جنّدوا انفسهم لخدمة العربية ، والبحث العلمي والمعرفي ، كانوا ايضاً قدوة في نهضة الادب واحياء تراثه ، فبايعاز من هذا الوزير، اصدرت وزارة المعارف ، مجلة « روضة المدارس » في مصر عام ١٨٧٠ ، وهي من اولى الصحف الادبية صدوراً ، وكانت باشراف الطهطاوي الذي وجهها نحو غايتين : احياء آداب العربية ونشر المعارف بين مختلف فئات الناس . وقد تولى

(١) رشيد رضا : مختارات سياسية . تقديم ودراسة وجيه كوثراني - ص ١١ .

تحريرها علي فهمي رفاعة ، مدرس الانشاء في مدرسة الالسن ، ونخبة من اعلام الادب والفكر امثال عبد الله فكري وحسين المرصفي وصالح مجدي ، ولذلك تمتعت الجريدة بثقافة واسعة ، وعرفت قراء العربية بالمنجزات العلمية الحديثة والعلوم الانسانية ، خصوصاً وانها نشرت باسلوب رفيع ، في سلاسل متتابعة ، كتباً ودراسات مترجمة ، اقتناها كل مثقف ، ومهتم بمسائل الحياة العصرية .

وايمانا منها بنشر المعارف وبث الوعي بين افراد الناس ، عمد المسؤولون فيها الى توزيعها على طلاب المدارس مجاناً ، والى نشر ابحاث الطلبة القيمة ، تشجيعاً للكتابة والتأليف ، وهذا ليس غريباً على صحيفة ، تحمل الشعار التالي :

تعلم العلم واقرأ تحز فخار النبوّة
فالله قال ليحيى خذ الكتاب بقوة[1]

وهكذا ، بمثل هذه الكتابات ، التي اتصفت بالاداء الجيد ، واللغة المتينة ، والخبر الجديد ، بدأت الصحافة تحتل مكانها الطبيعي في حياة الناس . فكانت جريدة « الجوائب » . التي انشأها احمد فارس الشدياق ، في الأستانة ، عام ١٨٦٠ ، قد طافت معظم المناطق والبلاد العربية والعثمانية ، ولعبت افضل الدور في تفتيح العقل العربي على الحضارة الجديدة ، ونالت شهرة ممتازة ، لحسن انتقاء صاحبها لموضوعات سياسية مهمة ، مست حياة الناس من جهة ، وقضايا ادبية تعرض لقصائد شعراء العربية ، الذين جهدوا لاعادة مجد القصيدة العربية من جهة اخرى ، وحظيت « جوائب » الشدياق بتأييد اصحاب السمو ، وخصوصاً السلطان عبد العزيز ، الذي كان يساعدها بمبلغ خمسمائة ليرة عثمانية سنوياً . مساهمة في تغطية نفقاتها الضخمة ، وفي توسيع رقعة انتشارها[2] . وكذلك فعل الخديوي اسماعيل الذي كان ينفحها ايضاًبمثل المبلغ المذكور ، خدمة لافكاره وترويجاً لمشاريعه . فعلى سبيل المثال ، عندما تعرضت الاستانة للخديوي اسماعيل وأقالته عام ١٨٧٩ ، بسبب بذخه واسرافه ، جاهرت جريدة « الجوائب » بالدفاع عنه ، وبالغمز من قناة السلطنة ، مما اساء الى العلاقة مع كاتبنا الشدياق الذي اضطرته

(١) عز الدين الامين : نشأة النقد الادبي الحديث في مصر ص ٩٠ .
(٢) فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية - ج ١ ص ٦١

ظروفه الجديدة الى انشاء دار للطباعة خاصة به ، في مصر ، ليس لطبع الجريدة فقط ، التي طبعت تسع سنوات متتالية في المطبعة السلطانية في الآستانة ، بل لطبع مختلف الكتب والدراسات المفيدة .

اهتمت « الجوائب » بشتى موضوعات الدولة والمجتمع ، فتحدثت عن الاحداث السياسية التي شهدتها المنطقة ، ونشرت وثائقها ومعاهداتها الدولية ، باللغة العربية لأول مرة . وكان هذا فتحاً عظيماً اذ عرفت المصريين بألاعيب السياسة وموقف الدول الكبرى والمسؤولين عن السياسة الداخلية من قضاياهم المصرية ، وفي الوقت نفسه ، لم تقصرّ في كتابة الدراسات الادبية والابحاث العلمية واللغوية ، بل قدمت صفحاتها الاولى ، لمناقشات ، وانتقادات اساتذة العلم واللغة والتاريخ والجغرافيا في ذلك الوقت .

فعلى الصعيد السياسي طبعت « الجوائب » في افتتاحية عددها الأول باللغة العربية ، معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ بين الدولة العثمانية وروسيا ، كي يطلع القاريء العربي ، كما يقول الشدياق ، على السياسة الدولية ، والاعيبها الخبيثة ، بعدما نشرت بالتركية والفرنسية وغيرها من اللغات الاوروبية . اما على صعيد المناظرات اللغوية ، فيكتفى منها بالمعركة الكلامية واللغوية بين الشدياق واليازجي ، والتي عدت من اشهر احداث الصحافة العربية . شارك في هذا الجدل عدد من كبار الادباء واللغويين ، الذين انقسموا الى فريقين . فوقف يوسف الاسير وسليم نوفل وابراهيم الاحدب مع حزب الشدياق و « جوائبه » ووقف بطرس البستاني وابنه سليم وسعيد الشرتوني في صُف اليازجي . ولكن « الجوائب » التي كانت خيراً على اللغة والدراسات العلمية والادبية ، ومنهلاً لطالب الثقافة والمعرفة ، ما لبثت ، عقب ازمة السودان عام ١٨٨٤ ان حجبت عن قرائها ، بسبب عدم خضوع الشدياق ، لقرار دائرة المطبوعات القاضي بعدم البحث في هذه الازمة، فانطفأ وهج هذه الصحيفة الغراء،التي جابت البلاد شرقاً وغرباً ، واخذت « الجوائب » من ادب المقالة الاسلوب المرسل المتحرر من قيود البيان والبديع والمحسنات ، وعنيت بالاسلوب المنمق البديع ، ذي الجمل المتعادلة ، القصيرة غالباً ، والالفاظ المسجوعة المجنسة ، وجعلت المتذوقين يقرأون بين المقالة المكتوبة لعامة الناس ، الدراسة

الادبيـة الموجهـة للخـاصـة . هـذا من جهـة البنيـة التـركيبيـة للغـة ، امـا من جهـة المضمـون ، فقد اخـذت الاعمال الفكـرية والادبيـة تلقى رواجاً لـدى المثقفين الـذين راحـوا ينشئون صحفـاً ومجـلات كمجلة « اليعسـوب » الـطبيـة التي صـدرت بصـورة شهرية عـام ١٨٦٥ في مصر ، بـاللغة العـربية ، لصـاحبها ابـراهيم الدسـوقي ومحمد علي البعقلي ، وطبعت في مطبعة بـولاق ، على حسـاب الحكومـة المصريـة . وهي اول مجلة طبيـة من نوعهـا في الديـار العربيـة ، قدمت ثـروة غنية ، سـواء من جهـة ايجـاد المصـطلحات العلميـة ، أم من جهة نشـر الكتب القديمـة وربطهـا بـالعلوم الحـديثـة ، وصحيفـة « وادي النيـل » الصـادرة عـام ١٨٦٧ للكـاتب عبـد الله ابي السعــود والتي كـانت تظهـر مرتـين في الاسبوع . تـوقفت لفترة ، ثم استـأنفت عملهـا عـام ١٨٧٥ باسم « روضة الاخبار » ، برعاية نجله محمد أنسي .

الصحافة اللبنانية في مصر :

دخل مصر ، في النصف الثـاني من القرن التـاسع عشـر ، عدد من احـرار بلاد الشام وكتّابها ، هرباً من ملاحقـة السلطات العثمانيـة لهم ، ومن ضغطهـا على حـرية آرائهم . وقـد أسس هؤلاء صحفاً ومجـلات ، نالت شهـرة واسعة في العـالم . اهتم بعضها بأنباء الاحداث العالمية والاخبـار السياسيـة كالأهـرام والمقطم ، واهتم البعض الآخر بالجـانب الأدبي والعلمي ، ونشر اخبـار العلوم والمخترعـات الحديثـة كالمقتـطف والهلال[1] .

كل ذلك وغيره افاد مصـر كثيراً ، فتعـززت نهضتها الصحـافية التي استـطاعت في فتـرة وجيـزة ، ان تتسلم قيـادة الفن الصحفي ، ليس في مصـر وحـدهـا ، بـل في سـائر الاقـطار العربيـة . خصوصـاً في عهد اسمـاعيل بـاشا الـذي اغـدق المـال عـلى الصحفيين والادباء ووفر لهم الحريـة الكاملة ، شـريطة عـدم التعرض لـه ، او توجيـه الانتقاد لسياسته . وقد راعى الكتّاب هذا الامـر ، ومن تجاسـر منهم امست حياتـه في خطر ، فمدير جريـدة الاهرام مثـلاً ، كاد يـذهـب ضحية كلمـة وجه فيهـا انتقاداً الى

---

(١) د. محمـد محمد حسـين : الاسلام والحضـارة الغربيـة . مؤسسة الـرسالـة . بيروت ١٩٨٢ ص ٥٨ .

خزينة هذا الخديوي ، لولا تدخل فرنسا التي اسعفتـه في اللحظات الاخيـرة[1] ، وقد اسس هذه الجريـدة اللبنانيـان سليم وبشارة تقـلا ، في ٥ آب ١٨٧٥ ومنهم من يقول ١٨٧٦ وصـدرت في بـدء عهـدهـا ، في الاسكنـدريـة ، ثم نقلت الى القـاهـرة عــام ١٨٩٨ اثر وفاة سليم تقلا . وقرأها العامـة والخاصـة ، ويرجـع اليها الفضـل في تقدم الصحافة المصرية وتطورها ، وخصوصاً من باب تقديم الاخبار الداخلية والخارجيـة ، على المقالة الصحفية،التي استأثرت بمعظم الكتابات الادبية والسيـاسية في اواخـر القرن التـاسع عشـر ، ويبدو ان الـدولة العثمـانيـة كـانت تتخـوف من دراساتها، وخـاصـة الجوانب الليبرالية التي تتعلق بالحـرية والاستقـلال ، فمنعت من دخول بقيـة الأراضي العثمـانية ، وتجـلى ذلك في مـوقف والي سوريـة حمدي بـاشـا عـام ١٨٨٤ اثنـاء فتـرة تـوقيفها ، عنـدما كـان يستحضر رزم « الاهـرام » لاحراقهـا في دار الحكـومـة ، لئـلا يدخل عدد منها الى البلاد[2] .

ولعـل في هذا مـا يفسِّر اسبـاب تكنّي الكتـاب بـالقـاب واسـماء مستعـارة . او اختصـارها بحـروف ، فشكيب ارسلان مثـلاً ، كثيـراً مـا قـرأنـا لـه مقـالات ممهـورة بتوقيعه الرمزي او عبارة « احد الافاضل السياسيين » .

في هـذه المرحلة جـاء مصـر ، اديب اسحـق ، وكـان لبنـاني المنشـأ ، مصـري الهوى ، عربي النزعة والهوية ، تتلمذ على اصحـاب المدرسـة الصحفية الثـانية ، انشـأ وصديقه سليم النقاش جريدة « مصر » عـام ١٨٧٧ اثر تعـرفه عـلى الافغاني ، الـذي وجهـه في انتقاء مـوضوعـات ، تتعلق بحياة الانسـان ، وبنظم حيـاته السيـاسية منهـا والاجتماعية والادبية . وكتب فيها اروع المقالات ضد سياسة الاتراك الظالمـة ، مركِّـزاً عـلى اقامـة الدولـة الديمقـراطية . وتكلم في الـوقت نفسه ، عـلى السياسـة الدوليـة ، وفضـح اطماعهـا في المنطقـة ، موضحـاً ان انكلترا عنـدما لجـأت الى شـراء اسهم من خليـج السويس كـانت تفكـر في كيفيـة التـدخـل المبـاشـر في شؤون مصـر وامـورهـا الداخلية بغية فرض هيمنتها عليها واحتلالها .

والواقع ان اديب اسحــق لم يقصر في كتـاباتـه الادبية والثقـافية ، عـلى المطالبـة

---

(١) فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ج ٣ ص ٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٣ .

الملحة بضرورة تعميم التعليم ، وتعريف المعاني الادبية والعلمية لافهام العوام بل أبقى للمقالة السياسية التي تعرض ظلم العثمانيين ، النصيب الأكبر من اهتماماته ، كيف لا ، وقد عكست الجريدة نفسية اسحق ، وسجلت اقوى المعاني بحق الاتراك وظلمهم وبخاصة بعد انسحاب المصريين من بلاد الشام ، في اربعينات القرن الماضي ، واعاد الى القلم عزّته ، فحرك الهمم ، ودفع النفوس الحرة الى التضحية في سبيل الوطن والحرية ، لا في البلاد المصرية فحسب ، بل حيث ذهب وحلّ . ففي باريس ، التي سافر اليها ، اثر توقف الجريدة وفشل الثورة العرابية ، لم ينس مصر وحبه لها ، وتغنى بها وبامجادها . واصدر هناك جريدة « القاهرة » التي بثها لواعج حبه وشجونه فكتب يقول : « لست اول معجب زاده الحب وجداً ، ولم ينكث على العهد عهداً ، فحذار اهل مصر ، فان العدو لكم بالمرصاد ، وانكم لمحفوفون بالعيون والارصاد ».لقد توهج اسم اسحق في سماء الأدب والسياسة ، نجماً ساطعاً ، فهو الى جانب موضوعاته المهمة ، قد استطاع باسلوبه الرفيع ان يخلق مدرسة ، قلده فيها كثير من محبي الانشاء العالي ، الذين هجروا الاسلوب المرصع ، واهتموا بالاشكال الواضحة والافكار الجريئة . وهذا ما اشار اليه جرجي زيدان بقوله : انتقل الانشاء الصحفي من العبارات الضعيفة الركيكة ، الى الرشاقة والطلاوة العصرية . . كان اسحق نابغة في الانشاء والمتانة وصحة العبارة[1] .

وفي الفترة نفسها ، عرفت مصر نهضة علمية وثقافية اخرى ، بفضل اللبنانيين يعقوب صروف وفارس نمر ، من خلال مجلتهما « المقتطف » التي ظهرت ، اول الامر ، في بيروت عام ١٨٧٦ ، ثم في مصر عام ١٨٨٤ حين انتقل بها صاحباها ، بسبب مضايقة السلطات لها والرقابة القاسية على حرية الصحافة والفكر هناك . فلاقت من علماء البلاد ومفكريها كل ترحيب وحفاوة . وكان رئيس الحكومة المصرية مصطفى رياض باشا ، على رأس المحتفين بهذه المجلة التي تحدث عن فوائدها ، بضمير المذكر فقال : « انني ولعت بمطالعته منذ صدوره الى اليوم ، فوجدت فوائده تتزايد ، وقيمته تعلو في عيون عقلاء القوم وكبرائهم ، ولطالما عددته جليساً انيساً ايام الفراغ ، ونديماً فريداً لا تنفد جعبة اخباره ، ولا تنتهي جدد فرائده ، سواء في

---

(١) فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية مجلد ٣ ص ١٣ .

العلم والفلسفة، اوفي الصناعة والزراعة »[1] .

اطلق القراء العرب على « المقتطف » ، لقب شيخ المجلات العربية ، لأنها بلغت عمراً طويلاً ، استطاعت ان تقتطف كل شهر ثمار معارف الغرب وابحاثه العلمية ،وتنقله الى العرب ، لا سيما بعد ان ايقن الرواد ان الكتب لا تقدر وحدها مواكبة العلوم وملاحقتها .

ونعتقد ان هذه الجريدة لم تحز هذا التأييد والتفوق لو لم تبتعد عن التفاصيل وتدعو للرابطة الوطنية التي يجب ـ حسب رأي المجلة ـ ان تتقدم على سائر الروابط التقليدية القائمة ، او كما يسمونها (الميتافيزيقيا او العقلية الغيبية) والتي تعتبرها طوراً من اطوار البشرية في طفولتها الاولى[2] . شبهت هذه المجلة ، بمجلة « الهلال » لصاحبها جرجي زيدان ، التي ظهرت عام ١٨٩٢ في القاهرة ، وكانت من اهم المراجع الاساسية لدراسة البحوث التاريخية والادبية والعلمية والفلسفية . وقد شكلت مع « المقتطف » ، مفخرتين للصحافة العربية اللبنانية في مصر آنذاك [3] . وبخاصة على صعيد المباديء العلمانية التي تربى عليها الجيل اللاحق من الصحفيين .

وهكذا تبين دور ادباء الشام ومفكريها في النهضة الصحافية المصرية ، وفي المساهمة الفاعلة في انشاء العمل الادبي والعلمي ، ومن ثم في تهيئة مناخات صالحة لخلق حركات تحررية ، قادرة على تغيير الانظمة السياسية القديمة وافكارها الرجعية .

الصحافة في مصر زمن الاحتلال الانكليزي :

اذا كانت الاقلام العربية ، المصرية منها والشامية ، قد تحدثت في مرحلة ما قبل الاحتلال عن قضايا لغوية وعلمية وادبية ، فان الكتابات في ظل الاحتلال الاستعماري الانكليزي ، تحدثت عن السياسة ، وظهرت في تيارات واتجاهات متعددة ، فتيار مالأ الانكليز ، ومدح اعمالهم ، وبرر وجودهم في مصر ، وتيار آخر

---

(١) المصدر نفسه مجلد ٢ ص ٥٤ .

(٢) د. محمد محمد حسين : الإسلام والحضارة الغربية ، ص ٥٩ .

(٣) د. علي شلق : الادب العربي الحديث . منشورات عويدات ، بيروت ١٩٦٩ ص ٧٣ .

عارض الاحتلال ، ولجأ الى مختلف الوسائل ، السلمية منها والحربية ، لطرده ، وتيار ثالث ، توسط ما بين الاثنين ، واعترف بواقع الاحتلال من جهة ، وعمل على نهوض البلاد ، العلمي والعمراني ، على طريقة الغرب وتقدمه ، من جهة اخرى ، معتبراً مصلحة مصر فوق كل مصلحة . وكان خير من مثّل هذا الاتجاه جريدة « المقطم » التي انشأها يعقوب صروف وفارس نمر في شباط ١٨٨٩ حيث وقفت الى جانب الانكليز ، ودافعت عن سياستهم . صورت الاحتلال على انه حسنة ربانية لخلاص المصريين من الظلم والجهل . فكتبت تحت عنوان « مصلحة المصريين لمصلحة المحتلّين» تقول : « هم تجشموا هول الاقامة في مصر ، لرفع الظلم والاستبداد اللاحق بالمصريين » . وفي تصريح احد اصحابها ، اشارت الى ان غرضها « هو تأييد السياسة الانكليزية ، التي لولاها ما كان في الشرق بلد يستطيع احد ان يعيش فيه ، ويجاهر بآرائه واقواله »[١] .

أيد هذا الطرح رهط من مثقفي الارستقراطية المصرية ، ومن المهاجرين « السوريين » الذين زعموا ان « المقطم » ومؤيديها هم الوحيدون الحريصون على الوطن ومصالحه ، وأنَّ بقية التيارات هي اشبه بحركات تشويش واضطراب ، تضر بمصلحة المصريين ، ولهذا شنت « المقطم » حرباً ضروساً على مصطفى كامل زعيم الحزب الوطني ، واتهمته بتقديم مصلحة « العثمانية » على مصلحة مصر ، وحملته نتائج الأزمة الاقتصادية التي ادت الى افلاس الخزينة .

وهاجمت ايضاً فكرة الجامعة الاسلامية ، ودعت الى الانفصال التام عن تركيا ، والى انشاء دولة عصرية موالية للانكليز ، لكن هذا التيار جوبه بقوة من قبل المصريين الوطنيين الذين اسسوا جرائد ، عارضت المحتلين وحلفاءهم ، كجريدة « المؤيد » ، الصادرة في كانون الاول من عام ١٨٨٩ ، لصاحبها علي يوسف ، الذي استفاد من نفوذه الواسع في دوائر المثقفين المصريين ، فجعل من صفحات جريدته ، منبراً وطنياً يدافع من خلاله ، عن الحرية والاستقلال من جهة ، وميداناً رحباً لاصحاب الكتابة الادبية والسياسية من جهة اخرى ، كسعد زغلول ومحمد عبده وقاسم أمين الذين هاجموا « المقطم » وردوا بعنف على طروحها السياسية .

---

(١) فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة المصرية ، مجلد ٣ ص ٣٤ .

حيال تعاظم نفوذ « المؤيد » في الاوساط الشعبية والثقافية وعجز الاحتلال الانكليزي عن تعطيل هذه الجريدة وتوقيفها ، لجأ هذا المحتل الى سياسة المداهنة والمصانعة ، فاستمال الى جانبه مؤسس « المؤيد » الذي تنكر لخطه الوطني السابق ، فكتب مقالات ، تهادن الاحتلال وتركز على اهمية البناء الداخلي والاصلاح المصري العام . ولعل صحبته اي « علي يوسف » للامام محمد عبده ذي النزعة الاصلاحية والتجديدية ، اثرت في توجهاته ، فسار على نهجه ، وعكف يدعو الى الوعي والتربية الحديثة ، ومن ثم الى الاقتداء بالنظم الغربية الحديثة . واصبحنا ندرك بذلك مقصده من مقاله « لندن هي كعبة المصريين السياسيين » .

لقي هذا التفكير حظوة عند جماعة من السياسيين وعلى رأسهم احمد لطفي السيد ، الذي اسّس مع بعض كبار الباشوات ورجال الاعمال « حزب الأمة » وصحيفته « الجريدة » ، التي دعت الى تحرر الافكار من الاوهام والاطلاع على ثقافة اوروبا ، والاخذ باساليبها العمرانية ، مما حدا باللورد كرومر الى تعليق آماله عليهم ، موصياً المسؤولين من الدولة المصرية بتقديم العون لهم وتشجيعهم ، ومطلقاً عليهم لقب حزب الشيخ محمد عبده . هذا الموقف الممالىء للاحتلال قد تأثر به ايضا الشيخ محمد رشيد رضا ، الذي عرف في بداية كتابته السياسية بمهاجمة الاحتلال ، وبخاصة في مقالاته المنشورة في جريدة « المنار » التي اسسها عام ١٨٩٨ . لكنه ما لبث ، بعد ان اصبح من اتباع الإمام عبده ، ومؤيدي توجهاته الاصلاحية ، الدينية منها والاجتماعية والتربوية ، ان خفف من لهجته السياسية ضده (اي الاحتلال) تدريجياً ليرفضه نهائياً بعد قول الإمام عبده الشهير في السياسة المار ذكره .

استمر رشيد رضا على موقفه هذا حتى وفاة الشيخ عبده عام ١٩٠٥ حيث عاد من جديد يكتب في « المنار » وغيرها من الجرائد الوطنية ، دراسات سياسية ونقدية عن اوضاع الدولة العثمانية ، يهاجم فيها النظام الفردي ويشدد على تعرية الاحتلال الانكليزي ، ومقاومة سياسته الاستعمارية في المنطقة .

اما التيار الوطني الذي جاهر بعدائه للمحتل ، فقد تمثل بجريدة « اللواء » التي ظهرت عام ١٨٨٩ لصاحبها مصطفى كامل ، زعيم الحزب الوطني ، الذي

وصفه ابراهيم ابو خشب بقوله « ان صوت مصطفى كامل ، كان أذان الفجر الصادق للوطنية الصحيحة ، والدعوة الصريحة ، والغضبة المصرية التي هزت كيان الدخيل ، وزلزلت بنيانه وجعلته يحسب الحساب لهذه الأمة[1] .

كانت « اللواء » من الجرائد الوطنية الاولى التي فندت مزاعم الاحتلال ، ودعت الى الوحدة الوطنية ، وحددت آفاق مرحلة النضال الوطني التي يخوضها الشعب المصري في سبيل التحرير والسيادة ، ولهذا ابدى دعاة « اللواء » حرصهم على مساندة الدولة العثمانية لهم ، بعد ان ثبت لهم انها الوحيدة التي انفردت من بين جميع الدول، بمطالبة الانكليز باحترام عهود المسألة المصرية، التي تكفل الحرية والاستقلال . وهكذا يجب فهم مدح « اللواء » على لسان مصطفى كامل لتركيا من هذه الزاوية . فهو حين قال ، ان تركيا صاحبة السيادة على مصر ، بموجب معاهدة ١٨٤٠ ، باعتراف جميع دول المنطقة ، وان سياسة التقرب منها تعتبر أحكم السياسات وارشدها ، فانه كان لا يعني بتاتاً ، ان ينقل مصر من الاحتلال الانكليزي ، الى الاحتلال العثماني ، بل كان يتبع اسلوباً سياسياً ذكياً ، كي لا يستنفر عدوّين ضده . وهذا ما ابانه في رده على منتقدي سياسته هذه ، في مقاله الذي نشرته جريدة اللواء سنة ١٩٠٦ والذي جاء فيه : « هي دعوى لا يقبلها ذو لب ، ولا يسلم بها احد من العقلاء ، اننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا ، ونتمسك بهذا المطلب الى آخر لحظة من حياتنا »[2] .

والواقع ان « اللواء » ناصبت الاحتلال العداء ، وأصلت حلفاءه ناراً محرقة ، وقد تمكنت من تأجيج الروح الوطنية عند مختلف فئات الشعب ، ونجحت في تخريج كوادر وزعامات سياسية ، استطاعت في العهود التالية من ان تقود نضال الحركات السياسية في سبيل السيادة والاستقلال .

اذا كان اسحق وكامل وعبده وغيرهم قاتلوا الاستعمار والفساد ، كل حسب طريقته ، فان عبد الله النديم ، الذي قدمه نجيب توفيق « بالاديب النابغ والخطيب

---

(١) د. ابراهيم علي ابو الخشب : تاريخ الادب العربي في العصر الحاضر ص ٨٧ .

(٢) نجيب توفيق : عبد الله النديم : خطيب الثورة العرابية مكتبة الكليات الأزهرية ، الازهر ١٩٦٣ ص ٢٢١ .

النـابـه والمكـافـح المجـاهـد . . »(1) ، لا يقـل عنهم شـأنـاً في معـارضـة قـوى البغي والـطغيان : فهـو بحق ظاهـرة جديـدة في عهده. بـدأ كتـابتـه الصحفيـة في « التبكيت والتنكيت » الصادرة عام ١٨٨١ بتدبيج مقالات ادبية . ظاهرهـا هزل وبـاطنها جـد ، وقـد صور فيهـا عيوب المجتمـع المصـري بـاسلوب تهكمي لاذع ، وفي الـوقت نفسـه تطرق النديم الى مـوضوعـات الثورة العرابية ومطالبها ، وتحـدث عن ظلم عائلة محمد علي باشا التي غدت مطية للاستعمار .

في جـريـدتـه « الـطائف » التي اصـدرهـا في تشـرين الأول سنـة ١٨٨١ بـدل « التبكيت والتنكيت » بنـاء على رغبـة زعيم الثورة احمـد عـرابي ، نشـر النـديم فيهـا احاديث وطنية ، تصلح لأن تكـون تاريخـا واقعياً للثـورة العرابيـة ، ولحكم اسماعيـل باشا الـذي انتقدتـه انتقاداً لاذعـاً ، في فصول تحـدث فيها الى المسؤولـين يطلب فيهـا أن يأتوا بكشوف ، تنقض ما ذكره النديم ، وخصوصاً عن التعسـاء ، الذين صـرعهم المـرض من دون رحمة ، في حـين كان الـطاغية سـاهراً في مـلاذه ومواخيـره . حتى ان النديم ذهب ابعد من ذلـك في كتابـاته النقـدية عنـدما رفض امتـداح اسماعيـل باشـا للمنجزات التي تحققت ابان عهده ، لأنه كان يرى فيهـا مجرد دعـاية لـه ،الغرض منه مكسب شخصي ، يبتز به ثقـة الناس ويستغـل عاطفتهـا،بغية تحقيق سمعـة جيدة في المحافل الاوروبية . وهذا مـا عبر عنـه النديم عنـدما تحـدث عن تهرب اسمـاعيل من جرائمـه العـديـدة،التي ارتكبهـا بحق الايـامى والاطفـال والعجـز فكتب يقـول « مـا جدوى الاوبرا التي بناها ، وطريق الهرم الذي امر برصفـه من بضعـة شهور ، ابتغـاء شهرة كاذبة ، ومجد مزيف ، وسمعة اساسها الفجور والشهوات »(2) .

هذا الصوت الجريء لم يكد يفعل ويؤثر في الاجيـال العربيـة الصاعـدة ، حتى اسكت ، ولـو الى عام ١٨٩٢ ، حـين عاد ، عقب منفـاه الـذي دام تسـع سنـوات ، يصـدح من جديـد ، في جريـدته « الاستـاذ » التي احتضنت مـوضـوعـات الاصـلاح العام ، ودافعت عن حقوق مصـر والمصرين ، ونبهت الى النـظم الديمقـراطية الحـديثة مبينـة ان الحياة البـرلمـانيـة ليست مسـرحـاً للنفـوذ والاستغـلال وتحقيق المصـالـح

(1) المصدر نفسه ص ٢٢٥ .

(2) المصدر نفسه ص ١٧٩ .

الشخصية ، بل هي درس وبحث من اجل الوصول الى مباديء صحيحة ، ومواقف ترضي الجمهور وتلبي حاجاته وتقدمه .

لقد انتمى النديم الى مدرسة اسحق وعبده ، واتصفت كتابته بأسلوب خطابي جريء وصريح ، تماشى فيه مع احداث مرحلة قاسية ، استلزمت ضرورة التخلص من قيود البديع واساليب التكلف . والواقع انه في « الاستاذ » تجنب السجع الا نادراً ، بعد ان عني به في « التبكيت والتنكيت » . وقد آثر في كتابته الاخيرة اسلوب النثر المرسل ، الذي سطع نجمه في اواخر القرن التاسع عشر ، وذلك حين ارتاد الصحافة ، رجال اكفاء ، عرفوا بتحررهم الفكري وتنكرهم للقيود التي تعوق تقدم الانسان وتطوره .

ولا يسعنا ونحن نتحدث عن تطور الكتابة الصحفية ، الا الاشادة بدور العلامة جمال الدين الافغاني الذي افاد النثر فائدة جليلة ، عندما اقدم على زعزعة اركان الشكل القديم ، وضرب الهيكلية المصطنعة للكتابة النثرية ، في مبناها ومعناها ، فهو من ناحية المبنى ، حثّ على تجنب مثل هذه القيود الثقيلة،وطالب بكتابة طيعة لاصنعة فيها . ومن ناحية المعنى آثر الحديث في مشكلات الانسان الحياتية ، المدنية منها والسياسية ، وهاجم الصحافة الكاذبة المرتشية ، والمتسكعة على اعتاب الوزراء والاسياد ، والتي تكتفي بنشر معلومات سطحية عن امور البلاد وشؤونها ، بينما تغدق المديح على دول الغرب ومجتمعاته ، من دون ان تتعرض لمساويء الحياة العربية ، او تهتم بوضع تصورات وحلول لها .

وهكذا استطاعت الصحافة المصرية ان تواكب مسيرة الانسان وتقدمه . فقد كانت المؤشرات الاولى للكتابة الصحفية تتجه الى موضوعات تافهة ، تتطلب جهداً شاقاً ، لا شأن للمجتمع بها . ولكن هذه الكتابة ما لبثت ان تخطت من حيث الشكل الحواجز التقليدية ، والقيود الثقيلة التي حفل بها الاسلوب الانحطاطي ، وان لم تقض عليه نهائياً ، ومن حيث المضمون ، حملت الينا عملية الاصلاح في مجمل نشاطاتها . واما المرحلة التي قفزت فيها الكتابة الصحافية قفزات رائعة تقود نضالهم وتطرح قضاياهم ، فهي مرحلة الاحتلال الانكليزي وما تلاها ، حيث تخطت فيها نهائياً الاصول القديمة .

الفصل الثامن

الصحافة في سورية ولبنان

مما لا شك فيه ان الصحافة في بلاد الشام ، تأخرت عن اخواتها في مصر ، بسبب سياسة حكام تركيا الذين حالوا دون دخول الادوات النهضوية اليها ، حتى لا يحصل الاتصال الفكري مع الامم المتمدنة .

الصحافة في لبنان :

عرف لبنان اول صحيفة في دياره ، عقب صدور قانون المطبوعات في تركيا عام ١٨٥٨ بستة شهور ، تحت اسم حديقة الاخبار لصاحبها خليل الخوري ، الذي قال عنه ناصيف اليازجي في نهاية قصيدته المدحية :

يا هلالاً قد أرانا في الدجى وجهاً جميلاً
سوف نلقى منك بدراً كاملاً يدعى خليلا[(١)]

وهي من اولى الجرائد العربية والسياسية التي ظهرت في بيروت . وخارج العاصمة العثمانية ، وكانت تصدر مرة في الأسبوع ، بصورة منتظمة وباذن رسمي من طرف الحكومة العثمانية ، حتى وفاة صاحبها ١٩٠٧ . ثم انتقلت ملكيتها الى اخيه سليم الذي واصل اصدارها بصفة يومية ابتداء من كانون الأول عام ١٩٠٨ وفيه احتفل بيوبيلها الذهبي ، لمرور خمسين سنة على تأسيسها ، فالقيت خطب متنوعة من وحي المناسبة ، نذكر منها هذه الأبيات للشاعر داوود نقاش :

(١) فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية . المطبعة الادبية ، بيروت ١٩١٣ ج ١ ص ١٠٢ .

هذي الحديقة طالما أرجت بها غر الازاهر
بعثت الى الادباء تنشر من لها قد كان ناشر
هي ام كل جريدة عربية وبها نفاخر
فالحر كل الحر من في مدحها ابداً يجاهر[1]

ويعتقد ان فرنكو باشا حاكم لبنان دفع لصاحبها راتباً شهرياً ، وجعلها جريدة رسمية ، حتى صدور « جريدة سورية » الرسمية عام ١٨٦٥ التي غطت اخبار الحكومة وارتبطت بخدمة اعمالها . وعلى الرغم من اتصاف الجريدة بالاخبار ـ السياسية خاصة ـ فقد نوّعت في ابوابها فضمت موضوعات هامة ، علمية وتاريخية وتجارية. وعملت في الوقت نفسه على تنشيط الثقافة والمعارف ، فدعت الى تأسيس المؤسسات التعليمية واهتمت بالمشاريع الصناعية والانمائية ، وتوقفت امام موضوع الزراعة ، فرأت اهمية ادخال تقنية البلدان المتطورة ، واتباع طرقها الجديدة . اضافة الى موضوعات أو أقسام ، اختص بعضها باخبار البلاد السورية ، والحوادث الاجنبية ، المترجمة عن احسن جرائد العالم واصدقها ، واختص بعضها الأخر بدراسات تاريخية بصورة مسلسلات ، كانت تجمع مع نهاية كل عام ضمن مصنفات محددة ، ويؤلف منها كتاب تاريخ . كل ذلك وغيره جعل الكثير من حكام البلاد وعلمائها ، في الشرق والغرب ، يعظمون مكانتها ، ويشبهونها باعظم جرائد اوروبة ، فالسيد رينو أحد اعضاء المحفل العلمي الفرنسي واستاذ اللسان العربي في باريس شبهها بكبار جرائد اوروبة ، ونوه باعمال منشئيها ومعاناة كتابها ، وما لاقوه من صعوبات لايجاد المصطلحات والالفاظ العربية . وهذا ليس بغريب على جريدة ، تمكّن صاحبها من ان يهيىء لها كل اسباب النجاح ، من مواد ووسائل ، ويستثير كبار المؤلفين والمترجمين ، امثال ناصيف اليازجي الذي دفع بالجريدة وبالبلاد الى نهضة عامة ، طالت جميع مرافق الحياة .

ويبدو ان الحالة السياسية السيئة التي عصفت بلبنان ، في فترة الستينات من القرن الماضي ، فرضت وجود المؤسسة الصحفية ، التي يمكن اعتبارها ، احد العوامل المهدئة ، والمخففة من حدة الاعصار الدموي الذي نشب عقب اثارة

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٨ .

النعرات الطائفية ، التي اججتها الدول الاوروبية ، والذي كاد ان يقضي على وحدة البلاد السياسية ، ويسيء الى حياة التعايش الذي عرفه أبناؤه على مر العصور . فأحداث ١٨٦٠ وما تبعها قد زرعت الحقد والفتن والقتل ، وذهب ضحيتها اعداد كثيرة من النصارى ، خاصة بعد انحياز الجيش التركي الى جانب الدروز[1] ودخوله فريقاً في المعركة ، وهو الذي كان ينتظر منه ان يضرب المؤامرة ، ويفوّت الفرصة على مثيري الفتن الدينية ، ويدعو الى التهدئة ووقف الاقتتال والحؤول دون المزيد من الضحايا والابرياء . لكن هذه المجزرة لم تحصل في ارض دون زرع ، فسرعان ما تفجرت اصوات غضبى ، كشفت المحرضين عليها ، من الدول الاستعمارية وحلفائها الطائفيين ، ودعت الى نبذ التقاتل والتخاصم . كصوت عبد القادر الجزائري وموقفه المشرف في دمشق ، عندما فتح منزله لاخوانه المسيحيين ، الهاربين من القتل في لبنان وتمكن مع بعض الزعامات السياسية ومشايخ المسلمين هناك ، ممن فتحوا المساجد والمنازل ، من المساهمة في امتصاص نتائج الفتنة ، وتقليص رقعة انتشارها . واعلان موجة استنكار عامة في مختلف أنحاء البلاد ، نددت بالتفرقة الدينية وبالتعصب الطائفي .

أخذ ادباء العرب موقفاً واضحاً من هذه المجزرة . فقد استنكرها بشدة المعلم بطرس البستاني ، وأصدر مع ابنه سليم ، اربع صحف : « نفير سورية » و « الجنان » و « الجنة » و « الجنينة » .

وكان بالفعل احد اعظم اركان النهضة العلمية والادبية في القرن التاسع عشر ، حيث أثرى الآداب العربية ، بذخائر رفيعة في الموضوعات والمواقف الانسانية ، التي لا يزال المثقفون يعتقدون بها . نتبين ذلك ، من خلال قصيدة التأبين التي القاها خليل اليازجي ، عقب وفاته ، تعظيماً له ، والتي نقتطف منها هذه الأبيات :

يا قطر دائرة المعارف والحجى ... ومحيط فضل فاض في إمداده
تبكي العلوم عليك واللغة التي ... بقريضها ترثيك في إنشاده

(١) جورج انطونيوس : يقظة العرب، ترجمة : د. ناصر الدين الاسد ، ود. احسان عباس . دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٢ ص ١٢٤ .

فإذا المحيط بكاك لم يك دمعه — دون المحيط يزيد في أزياده
يبكي الحساب عليك متخذاً له — دمعاً يسيل عليك من أعداده
تبكي المدارس والجرائد حسرة — والشرق بين بلاده وعباده
خدم البلاد وليس اشرف عنده — من ان يسمى خادماً لبلاده[1]

هاجم البستاني مسببي هذه الفتنة ، ودعا الى الالفة والمحبة ، من خلال جريدته « نفير سورية » التي كانت تصدر إثر هذه الفتنة ، مرة في الاسبوع على شكل رسائل وطنية ، موقعة باسم « محب للوطن » وتضمنت نصائح مفيدة ، عززت من فكرية المفهوم الوطني . ها هو يقول في العدد الأول منها : « يا ابناء الوطن . . . ان الخراب والدمار الذي حلّ ببلادنا هذه ، لا يوجد له نظير في التواريخ ، واسبابه غير مجهولة لدى الاكثرين منكم ، وهو مما يوقع قلب كل ناظر ومحب للوطن . . »[2] .

تناول البستاني في هذه الوطنيات ، جوانب اساسية ، في اسباب الحرب الاهلية وعواقب طرحها الطائفي . وانتهى الى استنفار قدرات مختلف الفاعليات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وتكاتفها من اجل صياغة دستور جديد ، ينقل البلاد من حالة الانفلات والتخلف ، الى حالة المعرفة والتقدم ، وقد بذل البستاني جهوداً رائعة ، في تنوير عقول اهالي البلد ، وبيّن ان وحدة الاديان السماوية ، تهدف الى غاية واحدة : تحقيق الخير والسعادة لجميع الناس . واكد ان مختلف الطوائف الدينية ، تلتقي على قواسم مشتركة ، فهي تنبذ القتل ، وتنكر التفرقة ، وتحض على الخير ، وتدعو الى محبة الوطن والتفاني في طلب المعرفة ، المؤدية ـ حسب البستاني ـ الى الاستنارة العقلية التي تحول دون التعصب ، فتقضي على ظواهر الجهل ، وتسمو بالمثل العليا . وهذا ما أبانه في احدى وطنيات « نفير سورية » حين تكلم على حالة سكان لبنان قائلاً : ان الفظائع والمنكرات التي ارتكبها اشقياؤنا هذه السنة ، كسرت القلوب ، واسالت الدموع ، وعكرت صفاء الالفة ، واضاعت

---

(١) فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربي ج ١ ص ٩٢ .
(٢) المعلم بطرس البستاني . دراسة ووثائق : جان داية . سلسلة مجلة فكر ١٩٨١ ص ٥٣ .

حق الجوار[1] ، واضاف :

« اما تمالح الجيران ؟ أما شربتم ماء واحداً ؟ اما تنشقتم هواء واحداً ؟ اما رأيتم العقلاء ساعين في تشييد اركان الالفة ، ورفع منار العلم ، رغبة منهم في إرتقاء البلاد ، وسعادة العباد ؟ »[2] .

سجّل البستاني زيادة في فهمه للتصور الوطني ، عندما دعا الى وحدة بلاد سورية السياسية ، القائمة على الحرية الدينية والمساواة ، مؤكداً ان بلاد سورية « ككل هي وطنه ، اذ ان جميع سكانها مشتركون في ارض واحدة ، وعادات واحدة ولغة واحدة . . »[3] .

هذه البدايات الصحفية ، التي عبرت عن مخاضات وطنية معينة ، كانت اشعاعات مفيدة في عالم الصحافة وفي تطور كتابتها الادبية ، وبخاصة في العقد الثامن من القرن التاسع عشر ، حيث خطت الصحافة نحو الامام ، ان من ناحية غزارة الموضوعات ، ودقة الأبحاث وأهميتها ، أو من ناحية بلاغة العبارة وحسن تنسيقها . وحسبنا انه في هذه المرحلة ، حدثت دوافع عدة منشطة للعمل الصحفي ، دعت الى نشوء حركة صحفية واسعة ، جابت البلاد الشامية طولاً وعرضاً . نذكر فيها موقف كل من السلطان عبد العزيز الداعم لأصحاب الاتجاهات الادبية والمشجع لمؤيديهم ، وخديوي مصر اسماعيل باشا الذي حاول ان يبز اوروبة علماً وحضارة وأدباً ، فتقرب من الادباء ورجال العلم ، وجاد بالعطايا على أئمة الصحافة ، ولا سيما بطرس البستاني واحمد فارس الشدياق .

ففي سنة ١٨٧٠ انشأ بطرس البستاني مجلة الجنان ، وهي صحيفة نصف شهرية ، اعدها حنا الفاخوري ، مجلة جامعة ، جمعت بين العلم والادب والسياسة . وهدفت الى محاربة التعصب باشكاله المختلفة ودعت الى الاتحاد لخير الوطن . وكان شعارها « حب الوطن من الايمان » ، وقد افتتحها صاحبها البستاني بهذين البيتين :

---

(١) (٢) فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ، ج ١ ص ٦٤ .

(٣) البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ، ص ١٢٩ .

إليك صحيفة نشرت حديثاً فأغنت بالسماع عن العيان
كفردوس هوى ثمراً شهياً لذاك دعوتها باسم الجنان

انتشرت « الجنان » في البلاد العربية ، ولاقت رواجاً ونجاحاً باهرين، لما للبستانيين من معرفة واسعة وشهرة كبيرة،ويعتقد أن سليم البستاني حرر معظم مقالاتها ، لا سيما السياسية والتاريخية التي دعا فيها الى الوئام والتسامح الديني ، من اجل بلوغ الهدف المنشود : الرقي[1] . اضافة الى معظم رجالات العصر ، الذين زودوها بمقالات متنوعة نذكر منهم ابراهيم اليازجي ، سليمان البستاني واديب اسحق . . . ونعتقد كان اسلوب الصحيفة آنذاك ركيكاً أرجعه بعضهم الى حالة البلاد الفكرية والثقافية التي كانت تتطلب سهولة في التعبير ، وصياغة أدبية قريبة من اذهان العامة ولغتهم ، لتشجعهم على قراءة الصحف .

وقد شفع لمثل هذه الكتابة انصراف الكتاب من اللباس اللفظي الى الجوهر المعنوي والفكرة السامية ، التي اعتمدتها صحيفة « الجنان » وبخاصة حين تكلمت ، بتركيز واسهاب ، على تراث الامة ، الحافل بالمواقف الانسانية ، والتسامح الديني ، واكدت ان السقوط والانحطاط اللذين تعيشهما الشعوب العربية ، يعود من جهة ، الى تدخل الدول الاجنبية ، التي اختلقت حوادث طائفية واججت الطرح الديني المتعصب ،وافتعلت فتناً دموية ، ومن جهة اخرى ، الى سياسة الحكام الخاطئة ، الذين شوهوا النصوص الدينية ، وفرضوا ضرائب جديدة ، وأعاقوا نهضة البلاد وتقدمها . ولذلك لم تكتف « الجنان » بعرض الاسباب من دون ان تتخذ لها موقفاً ، بل على العكس فقد تعرضت للحاكم الظالم ، وكشفت عيوبه واظهرت مساوئه واضراره . وأيدت في الوقت نفسه الحاكم العادل ، ودعت الى الالتفاف من حوله .

في هذه الفترة ، وللغرض نفسه ، انشأ سليم البستاني « الجنة » التي اشتهرت بصدق المبدأ وانتقاء الخبر الصحيح ، وقد صدرت في البداية ، مرة في الاسبوع ، ثم مرتين ، وتحول امتياز الجريدة بعد وفاة صاحبها الى اخيه نجيب الذي واظب على

(١)ز . ك . ليفين:الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث ترجمة . بشير السباعي ص ٧٨ .

اصدارها ، حولين كاملين ، ثم اوقفها بسبب مراقبة سمو بلاد الشام المتشددة ، التي ساءها خط الصحيفة ، ونهجها الوطني ، كما اصدر سليم البستاني جريدة يومية اخرى ، هي اشبه بنشرة مؤلفة من صحيفتين سماها « الجنينة » . ظهرت في ١٨٧١ واحتجبت ١٨٧٥ بسبب تفشي الهواء الاصفر في بيروت وبعض المناطق السورية الاخرى ، كتب فيها سليمان البستاني وتضمنت موضوعات في السياسة والتجارة وكانت اخبارها السياسية على العموم ، جديدة ، تتناول الاحداث اليومية .

الصحافة الدينية :

اذا كانت مصر قد توقفت فيها حركة الصحافة ، بسبب معاداة الخديوي عباس وشقيقه سعيد للنهضة ، ولمختلف وجوه التقدم ، فان لبنان احتل مكانة مصر الصحفية في هذه المرحلة ، وشيد على ارضه صحافة عربية . كان للمبشرين الاجانب وارسالياتهم الدينية دور بارز في انشائها .

ومن يتتبع اخبار تأريخ الصحافة السورية ، يرى ان الطائفة الارثوذكسية ، واتباعها من المبشرين قد سبقوا بقية الارساليات الاجنبية ، واصدروا سنة ١٨٥١ في بيروت مجلة شبيهة بالنشرة الدينية ، وذلك بفضل شخصياتهم الدينية عالي سميت احد اكبر الشخصيات الدينية ، الذي ركز اوضاع المبشرين الاميركيين ، وانشأ مدارس ومطبعة لهم ، والذي رثاه خليل الخوري صاحب « حديقة الاخبار » بقصيدة نورد منها هذين البيتين :

يا رئيساً قد غادر الحزن ينمو في صميم القلوب والاكباد
انت عال قصدت ُدار الاعالي حسبما يقتضيه رأي السداد[1]

صدرت المجلة في البداية سنوياً ، ما لبثت ان خرجت فصلية، وطبعت في مطبعتهم الاميركية. وكانت باكورة المجلات التي ظهرت باللغة العربية ، ومن اقدمها عهداً . .

تضمنت موضوعات شتى في الدين والتاريخ والاقتصاد ، وقد طغت الناحية

---

(١) فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ج ١ ص ٥٤ .

الادبية على عالم المجلة ، لأن طابع النهضة الشامية ، أدبي لا علمي كما هو في مصر ، ومردّ ذلك وجود الارساليات والامتيازات الاجنبية التي احدثت اتصالاً دينياً ، دعا الى الاهتمام باللغة والادب . وقد ساهمت مع جريدة « النشرة الشهرية » التي ظهر العدد الاول منها سنة ١٨١١، في بث تعاليم المذهب البروتستانتي وتعزيز مواقع مبشّريهم ومؤيّديهم ، وعارضت المذهب الكاثوليكي ، الذي لم يسمح للإنجيليين ان يغزوا عقول المسيحيين بتعاليمهم ،فأصدر اتباع الكنيسة الكاثوليكية جريدة « البشير» عام ١٨٧٠ للدفاع عن مبادئهم ، واتخذوا من كلمات السيد المسيح « تعرفون الحق والحق يحرركم » شعاراً لها[1] . ويبدو ان الجريدة التي أشتهرت بصدق الخبر ، كان لها موقف سياسي معتدل ، ان لم نقل مؤيداً من الدولة العليّة ، التي مدحتها في جريدتها « سورية » عام ١٨٨٧ وقالت : « البشير جريدة قديمة ، لا تكتب في سياق الاخبار السياسية وحوادث العالم شيئاً مضراً بحق الدولة والملة اصلاً »[2] .

عرضت جريدة « البشير » الدينية ، في مقدمة صفحاتها اخبار الكنيسة في روما وردودها على اعداء البابوية واعداء توحيد الايمان الكاثوليكي[3] ،وكثيراً ما أقامت نقاشاً حول موضوع العلم والدين ونظرية النشوء والارتقاء ،وهاجمت العلمانيين واصحاب الفكر الحر تحت عنوان « العلمانيون ليس لهم رب ولادين ولا خلق » مدعية ان المدارس العلمانية منافية للاديان وجالبة البلايا والخراب .

هذا عن اهم الجرائد الدينية المسيحية ، اما عن الصحف الاسلامية التي ظهرت في فترة متأخرة ، بسبب موقف الاتراك المعارض لليقظة العربية الاسلامية ، فقد عرفت مدينة بيروت أولى صحفها الاسلامية عام ١٨٧٥ تحت اسم « ثمرات الفنون »[4] التي توقفت عام ١٩٠٨ ، انشأتها « جمعية الفنون » التي فوضت ادارتها

---

(١) د. شمس الدين الرفاعي : تاريخ الصحافة السورية ـ دار المعارف مصر ١٩٦٩ ج ١ ص ٨٨ .

(٢) فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ـ ج ٢ ص ١٤ .

(٣) مصطفى الخالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، المكتبة العصرية . بيروت ١٩٨٣ ص ٢١٣ .

(٤) فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ـ ج ٢ ص ٢٥ . اما زيدان فقد ذكر انها ظهرت عام ١٨٨٥ .

الى صاحب امتيازها عبد القادر القباني ، وهي صحيفة اسبوعية ، سياسية وعلمية وادبية . كتب فيها نخبة من الكتاب واللغويين امثال يوسف الاسير وأحمد الازهري وابراهيم الاحدب . . . وقد جعل القباني هدف الجريدة الرئيس ، خدمة الامة الاسلامية وجامعتها العثمانية ، وفضح مخططات الدول الاستعمارية التي تسعى الى الهيمنة والاحتلال . فبينما دافعت صحيفة « البشير » المذكورة آنفاً عن سياسة اوروبا عندما ألغت النخاسة من شمال افريقية ، خدمة للإنسانية ، تخوفت « ثمرات الفنون » من ان يكون هدف ذلك سياسياً ودينياً ، يرمي الى تنصير القبائل الاسلامية ، وبسط الحماية الاوروبية عليها[1] .

الصحافة في سورية :

عرفت سورية الصحافة في فترة متأخرة عن مصر ولبنان ومع ذلك ساهم مثقفوها بكتابات ، سرعان ما أثرت في ادب الاصلاح والتقدم ، وقد اظهرت الاحداث ان ابناء سوريا كانوا وراء معظم حركات الاحياء : الوطنية منها والقومية. وهم ان لم يتمكنوا من تحقيق اهدافهم هذه ، في بلادهم السورية نفسها ، للظروف السياسية المعروفة ، فقد رحلوا الى بقية المناطق العربية ، فلعبوا دوراً بارزاً في بعث النهضة كما فعل رزق الله حسون الحلبي الذي عُدّ ، امام المفكرين العرب للاحرار حينما انشأ جريدته الاسبوعية « مرآة الاحوال » ١٨٥٥ اثناء حرب القرم بين الدولة الروسية والدولة العثمانية ، وهي اول جريدة عربية صدرت في الاستانة نشرت اخبار هذه الحرب ، وقد ضمنها احاديث في معارضة سياسة الاتراك ، وفي التنديد بمواقف الحكومة التركية ، وبخاصة من احداث لبنان الطائفية .

واذا كانت الحكومة التركية ، رضخت آخر الامر لفكرة وجود الصحافة في الديار السورية ، فانها ما فتئت ، منذ الوهلة الاولى ، تضع العراقيل امام انطلاقتها . ولذلك خضعت لمشيئة الحكام العثمانيين ولرغبة المسؤولين السياسيين فيها . . فجريدة سورية » التي صدرت في تشرين الثاني من ١٨٦٥ بعناية والي سورية محمد راشد باشا ، او اسعد مخلص باشا الذي ولي على دمشق في هذه السنة ، كانت خرساء اقتصرت على تأييد سياسة الدولة ، ونشر أوامر حكومتها ،

(١) المصدر نفسه ص ٢٦ .

وكل ما يتعلق باعلاناتها ، كتب نصفها بالتركية والنصف الآخر بالعربية بقلم محمد كرد علي ، وبقيت يتيمة حتى اصدر رئيس قلم المخابرات التركية امين عام سر السلطان عبد الحميد جريدة « دمشق » ١٨٧٩ ثم تبعتها جريدة ثالثة في عام ١٨٩٦ عرفت باسم جريدة « الشام » لمصطفى واصف .

وهكذا نجد ان الصحافة في عهد عبد الحميد (١٨٧٦ - ١٩٠٩) انحصرت في الصحف الثلاث المذكورة آنفاً . ونعتقد ان صدور قانون الصحافة العثمانية ، ١٨٦٥ ، كان وراء اعاقة تطور الصحافة السورية وانتشارها ، بسبب المراقبة الشديدة المفروضة على العاملين في حقل الصحافة ، مما كبّل اقلام ادبائها وحظر تعاطيهم ، مع المسائل التاريخية ذات المواقف الانسانية الداعية الى الحرية والديمقراطية . واستغل المسؤولون في الدولة ، هذا القانون ، لمصادرة كل الاقوال والكتابات التي لا تتوافق مع السلطات العثمانية ، الامر الذي دفع بالكثير من الكتّاب والادباء الى مغادرة البلاد ، والهروب الى مصر خاصة .

وفي حلب ظهرت اول صحيفة عربية عام ١٨٧٨ بعنوان « الشهباء » التي انشأها الكواكبي والتي لم يصدر منها سوى اعداد قليلة ، ثم انشأ صحيفة الاعتدال الاسبوعية في ١٨٧٩ بالعربية والتركية ، التي سرعان ما انطفأ سراجها ايضاً ، على الرغم من اعتمادها سياسة معتدلة لأن صاحبها تعرض الى الحكومة وتكلم على اخطائها .

اثر الصحافة في اللغة والادب :

دلت الكتابات الاولى لادباء بلاد الشام على ضعف في التأليف : مبنى ومعنى ، واثبتت انها تعيش مناخ الانحطاط الذي يفتقد روح الكتابة وأصالتها ، وأن الكاتب قد انساق الى الفاظ وموضوعات مزخرفة ضمن اسلوب أدبي مصطنع ، بعيد عن روح العصر ، جعل من العمل التأليفي والصحفي حرفة ، يجتر المرء من خلالها اسلوب البيان التقليدي ، وبقايا النهج المتكلف(٧) .

---

(١) كمال اليازجي رواد النهضة الادبية في لبنان الحديث - بيروت ١٩٦٢ ص ١٤٣ .

لكن ظهور الصحافة ، ومعها نخبة من الكتّاب اللغويين قلب واقع الحال ، ومكنَّ هؤلاء في فترة قليلة، من السمو بالاسلوب الانشائي ، والكتابة الادبية من جهة ، ومن استحداث موضوعات تهم الناس وتطرح قضاياهم ومشاكلهم من جهة اخرى ، وبخاصة بعد ان وضعوا انتقادات سياسية ، ومنطلقات مبدئية لتطوير لغة التعبير ومعناه ، وصلت مع اليازجي واديب اسحق وغيرهما الى حالة صحية جيدة ، بسبب ما قدموه من دراسات وشروح لغوية ، عدت من روائع اللغة والادب . فاليازجي مثلاً ، اضافة الى عمله التأليفي ، ترصد محرري جريدته « الضياء » الصادرة في القاهرة ١٨٩٨ ، فانتقد اخطاءهم اللغوية ، وتتبع عثراتهم واشار الى الصحيح منها ، في ما سماه « لغة الجرائد » .

ويكفي للتدليل على مكانته ، المناظرات اللغوية التي أغنت اللغة والأدب ، وساعدت الصحافة على النهوض والتقدم والتي دارت بين احمد فارس الشدياق والكونت رشيد الدحداح ورزق الله حسون من جهة ، وبين ابراهيم اليازجي والأب لويس شيخو من جهة اخرى ، او المعركة الكلامية واللغوية ايضاً بين الشدياق واليازجي ، التي اعتبرت من اهم منازعات المرحلة ، واشهر ما حدث في عالم الصحافة العربية[٣] .. واشترك في هذا الجدل عدد من الادباء واللغويين ، فوقف يوسف الاسير وسليم نوفل وابراهيم الاحدب في حزب الشدياق ، ووقف بطرس البستاني وابنه سليم وسعيد الشرتوني في صف اليازجي ، الذي استطاع مع كوكبة من الادباء هجر التكلف والاناقة الكتابية ، واعتماد الاسلوب الواقعي ، وبخاصة في الأبحاث العلمية .

---

(١) عماد الصلح : احمد فارس الشدياق . آثاره وعصره - دار النهار بيروت ١٩٨٠ ص ١٢٣ .



النهضة والمعتقدات الفكرية الحديثة

الفصل الاول

الوطنية : منطلقاتها وتياراتها في النهضة

عـرف الانسان ، منـذ بدايـة المجتمعات البشـرية ، عـلاقات وروابط ، معينـة حـددت منطلقـات فكريـة اساسيـة ، تلاءمت مـع تصور البشـر ، وتوافقت مـع واقع الحياة ومستلزماتها .

فاذا كانت العصبية القبلية في العصر الجاهـلي ، المحور الجـاذب لمختلف طبقات الناس واجناسهم ، فـان التحولات الاجتمـاعية ، والتغيرات الاقتصاديـة والسياسيـة في العصـور التاليـة ، عرفت الـرابطة الـدينية ، التي سميت في الـدولة العليّـة العثمانية ، بـرابطة او جـامعة الملة ، حيث ضمت شعـوباً وامـماً ، من مختلف الأديـان والاجنـاس . لكن المنجزات الجديدة التي خلقتها الثـورة الصناعيـة الكبرى ، وبخـاصة بعـد وصول البورجوازية الى السلطة السياسية ، أفرزت رابطة اخرى ، مغايرة للروابط المعهـودة ، تمكنت من ان تجمع فئات وطبقـات اجتمـاعية في وحـدة سياسيـة ، ومنطقـة جغرافيـة معنية ، أطلق عليها اسم الوطن. وغدونـا نسمع بـالوطنيـة والمواطنيـة ، بمعنى الصفات التي يتحـلى بها كـل محب للوطن ، ويتسم بسمة الـوحدة الاقليميـة لجميع القـاطنـين معه في بقعة جغرافية مشتركة ، بغض النظر عن اجناسهم واديانهم .

ويبدو ان فكرة الوطنية ،كمفهوم حديث عند العرب عموماً والمصـريين خـاصة ، جـاءتهم مع الغـزو الثقافي الغـربي ، إثر حملة نـابليون الفـرنسية عـلى مصر ، في اواخر القـرن الثامن عشر ، ومـا نتج عنهـا من احتكاك فكـري ، تجسد في بعثـات علميـة ،

قدر لها ان تنقل اليهم مختلف انواع العلوم الاجنبية ومعارفها الجديدة ، وترمي الرابطة الوطنية ، التي تعمقت وترسخت بسبب السيطرة الاستعمارية والاحتلال الاجنبي ، الذي فجر انتفاضات وثورات ، طالبت بالتحرر والاستقلال الذاتي علماً بأن الثورة الفرنسية ، عزّزت هذه الرابطة وقوّت سلطتها ، وجعلت الاعتداد بالمفهوم الوطني والموقع الجغرافي ، من خصائص المجموعة الاوروبية التي خضعت شعوبها في مراحل سابقة لرابطة الدين المسيحي ، قبل ان تضعفها حركة مارتن لوثر الوطنية والقومية ، التي قال عنها اللورد لوثين ، في خطبة القاها ، في جامعة عليكره ١٩٣٨ : « ان حركة لوثر وما سببته من ضعف الدين ، ورجحان كفة الوطنية والجنسية ، قسمت هذه القارة الى امارات متنازعة احدثت خطراً خالداً على امن العالم »(١) .

اما البلاد الشرقية : الاسلامية منها والعربية ، فقد كانت كلمات الوطن والوطنية من مستحدثات الطلاب العرب ، الذين تعلموها في أوروبة وترجموها في كتاباتهم المتعددة ، وبخاصة اثر ترويج الاتراك للعصبيّة القومية والنزعة الجنسية ، عندما بعثوا آدابهم القديمة وتمسكوا برابطتهم الطورانية ، وغالوا كثيراً في معتقداتها حيث باتت طوران كعبتهم ، « يتغنون بمدائح جنكيز ، ويعجبون بفتوحات المغول . . . وينظمون الاناشيد للاحداث في وصف الوقائع الجنكيزية(٢) فرفاعة رافع الطهطاوي الذي ذهب مرشداً لبعثة محمد علي الطلابية الاولى ، الى فرنسا عام ١٨٢٦ استطاع ان يطلع على ثقافة الغرب وينهل من ينبوع حضارته الفياض ، ويترجم نصوصه القانونية . ويبعث النهضة الوطنية المصرية وبخاصة ، عندما تناول في مقالاته المطولة ،ماضي مصر المجيد،وحضارتها العريقة الضاربة في اعماق التاريخ، وأشاد بتقدمها وامتيازها على سائر الامم والشعوب زمن الفراعنة ، وكان من اوائل الذين سجلوا فكرة الوطنية ، وعملوا على بلورة محتواها ، بعد ان رفض العلاقات الطائفية وتنكّر للروابط الدينية والعشائرية، التي حالت دون قيام رابطة وطنية ، تكون بديلة عن نظام الالتزام العثماني والمملوكي ، الذي عرفته اراضي الامبراطورية

---

(١) ابو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين . دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٨٤ ص ١٩٧

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠١

العثمانية وبخاصة ريفها الاقطاعي ، طيلة قرون عديدة ، وتمكنت من خلاله ان تشد قبضتها على المنطقة العربية[1] .

اضطلع الطهطاوي بمهام الوطن ، فترجم نصوصه واعطى مضموناً حضارياً وتراثياً لفكرة الوطن وذهب الى ان الوطن هو الوطنية الاقليمية ، حيث يتعايش فيه جميع ابنائه وقال : « المؤمن اخ المؤمن » فجميع ما يجب على المؤمن لاخيه المؤمن يجب على اعضاء الوطن ، من حقوق بعضهم على بعض ، لما بينهم من الاخوة الوطنية »[2] ، واكد مخاطباً من يجمعهم وطن واحد ضرورة التعاون لتحسين الوطن وتكميل نظامه فيما يخص ترف الوطن وتقدمه ، مبيّناً ان محبة الوطن لواجبة ، وهي اساس الفضائل السياسية ، المؤدية الى دمائة الاخلاق التي عدها نتاج كل ثروة وطنية .

والطهطاوي بعد ان عرف بخاصية « الوطني » المخلص ، الذي يفتدي بلاده بروحه ، يوضح ان حقوق المواطن المدنية ، تضيع في حال عدم تأدية الحقوق المتوجبة عليه . وهو انطلاقاً من مبدأ الاخوة الوطنية ، يرى لزوم تكافل ابناء المجتمع الواحد ، وصهرهم في وحدة متآخية ترفض التمييز الاجتماعي - الديني والمذهبي - واعتبار بعض الفئات درجة ثانية ، وتدعو على العكس الى قواسم مشتركة ، توفر العدل والمساواة للجميع ، وتضع المنفعة العامة والمصلحة الوطنية على اختلاف الاديان والاجناس ، فوق كل اعتبار . لكنه وان ترجم معاني الوطن من لغات الغرب من دون ان يسمي الاشياء باسمائها ، فقد عهد بهذه المسألة الى عبد العزيز الشاويش[3] الذي ابان أثر اوروبة في ترسيخ المفهوم الوطني لدى المصريين وحركاتهم التحررية عندما قال : « ان الشعور بالوطنية اصطلاح افرنكي ، انتقلت بذوره الى الشرق ، من مطاوي العلوم العصرية واصول المدنية الحديثة ، التي

---

(١) الاعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي : دراسة وتحقيق محمد عمارة.- ج ١ ص ١٢٢

(٢) البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة . ص ١٠٣

(٣) استاذ اللغة العربية في جامعة اكسفورد . وهو تونسي تسلّم سلطة الحزب الوطني في مصر بعد محمد فريد الذي تنحّى عن رئاسته عام ١٩١١ .

اهتدى اليها اهل الغرب [1] . .

المفهوم الوطني والمحتل الانكليزي :

تعمق المفهوم الوطني في مصر ، مع وجود الاحتلال الانكليزي وعقب ثورة عرابي التي رفعت لواء الوطن ودعت الى استقلاله ، وقد مثلت هذا الاتجاه « جمعية مصر الفتاة » التي بثت الروح الوطنية والشعور القومي العام ، إضافة الى الحزب الوطني ـ شبه السري ـ الذي لم يلتفت نظامه الداخلي الى المعتقد الديني ، معتبراً هوية المواطن المصرية كافية للأهليّة المواطنيّة . وكان هدفه بعث ثقافة الامة واحياء اعرافها وتقاليدها العريقة ومما جاء فيه : « عرف المصريون في غضون السنوات القلائل الاخيرة ما هي الحرية ، وقرروا استكمال تكوينهم القومي ، وهم يرمون التوصل الى ذلك من خلال برلمان عامل ، ومن خلال حرية النشر والتنمية الشاملة للمعارف بين كل الطبقات [2]، الا ان خير من مثل هذا التصور ، ما جاء في كلام الامام محمد عبده على الوطن وهو يبث الأمل في نفوس المصريين ، ويرد على اليائسين منهم ، المثبطين للهمم الذين ظنوا ان المصري قد ألف الذل ، وتعود احتمال الظلم ، مؤكداً من خلال الاحداث التاريخية ـ القديمة والمعاصرة ـ انتماء المصري لوطنه وكيانه المستقل ، الذي لم تزده الكوارث والخطوب الا تعلقاً به ، حتى اصبحت فكرة الوطن دعوة شعبية عامة شعارها مصر للمصريين ، وهي الدعوة التي نادى بها اسحق في رده على تسلط الاتراك واستئثارهم بالسلطة وخيرات البلاد . فقال عام ١٨٧٩ : « يا ايتها الامة المصرية انهضي من عثرة الغفلة ، وانظري الى الذين نالوا السعادة فانك اهل لاعظم المواهب» [3] في هذه الاثناء، ارتفع صوت علي يوسف من خلال جريدته « المؤيد » وتفجر بشعار الوطن والذود عنه، واشار الى ان خدمة الاوطان من اوجب الواجبات والزم الفرائض ، من اضاعها قضت عليه شريعة الطبيعة بالحرمان الابدي والشقاء

---

(١) د . محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر . ص ٦٩ .

(٢) ز.ك ليفين : الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث . ترجمة بشير السباعي . ص ١٧٨

(٣) علي المحافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب ص ١٢٣ .

الدائم . ووضع عبد الله النديم في هذا الشأن رواية عنوانها « الوطن » شدد فيها على اهمية الوحدة الوطنية ، داعياً الى تربية وطنية واحدة ، تصهر الجميع في ثقافة واحدة . واذا كانت دولة الاحتلال ادعت في تسعينيات القرن الماضي ان مصر لا تشكل امة،ولا يمكنها اقامة كيان وطني مستقل ، فان جمهرة من مفكريها تصدوا لهذه الحملة ، وانكروا مخططاتها الرامية الى مزيد من السيطرة والتوسع ،فكرومر الذي نفى وجود أمة سياسية في مصر ، وزعم ان هناك جماعات منفصلة ، وان على بريطانيا البقاء في مصر ، سرعان ما أتاه الرد على لسان كل من احمد لطفي السيد الذي دحض هذه النظرة منطقياً وعقلياً،وأبان أن النظام الوطني المستقل في مصر هو النظام الوحيد الذي يتناسب مع طبيعة ابنائه ، ويتيح لهم اقامة دولة واحدة حاكمة ، تنصهر فيها الطوائف من مسلمين ومسيحيين ، وتتلاشى كل التناقضات الجانبية والثانوية . ومصطفى كامل الذي ايقظ الشعور الوطني ، وعدّ مؤسس الوطنية في النهضة ، واحد اكبر خصوم انكلترا قد اجّج هذا الشعور ، وبخاصة إثر حادثة دنشواي التي نشبت عام ١٩٠٦ بين الأهالي المصريين والجنود الانكليز . لقد حمل كثير من مثقفي مصر على الاحتلال وعارضوا السياسة الخاطئة لاسرة محمد علي التي جرّت الخراب والهيمنة الاجنبية .

فالشاعر صالح مجدي (١٨٢٧ - ١٨٨١) هاجم سياسة الخديوي اسماعيل ، وتدخل الدول الاجنبية في شؤون مصر الداخلية ، مبيناً حالة الوطن المنكود ، بعد ان كان يشدو بالعزة والكرامة ، فقال :

فلو كان فينا نخوة عربية	لملنا على اعدائنا بالصوارم
فيا آل مصر لا تناموا ودافعوا	عن الدين والاوطان اهل المحارم
أمن بعد ما كنتم شموس معارف	فصرتم واصبحتم شبيه البهائم
وعشتم بذل بعد جاه وعزّة	ودارت عليكم دائرات المظالم[1]

والواقع ان صالح مجدي من اسبق شعراء العصر الحديث الذين رددوا كلمات الوطن والوطنية في شعرهم وحاولوا غرس حب الوطن في قلوب المصريين . يقول :

---

(١) ز . ك . ليفين : الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث . ترجمة بشير السباعي . ص ١٧٥ .

وانـشـروا لـلعـز بـنـداً وانـصـروا الـصـدر المـفـدى
واسـلكـوا الـدرب الأسـدا واقـمـعـوا الخـصـم الالـدا
واقطعوا منه المطامع[1]

الاتجاهات الوطنية في عصر النهضة :

هـذا الوجـود الوطني الـذي توضحت خـطوطه العـريضـة مـع تعميق الـوحـدة الوطنية بين المصريين ، اخذ ابعاداً فكرية مختلفة ، تبلورت مـع كتّاب النهضـة العربيـة الحـديثة ، في اتجـاهين رئيسـين : اتجاه ربط بـين التيار الـوطني والـرابـطة الـدينيـة ، وجعلهما قضية واحدة مع الجامعة العثمـانية ، واتجاه آخر لم يتشدّد اصحابه في عملية الفصل ، ولم يعادوا الرابطة الدينية وان كانوا على العموم قد فصلوا بينهما .

ألاتجاه الوطني الديني :

اكد اصحاب هذا الاتجاه ، أن الـدين لم يكن يومـاً معارضاً لحركـات التحرر في العالم أو مناوئاً للنهضات الاصلاحية : السياسية منهـا والثقافيـة ، بل عـلى العكس من ذلـك كـان الى جـانب التقـدم والتـطور ، ودفع عجلة التمـدن والـرقي الاخـلاقي والاجتماعي الى الامام . وهذا ما عبـر عنه مصـطفى كامـل زعيم هذا الاتجاه عندمـا قال : « ان الوطنيـة هي اشرف الـروابط للأفـراد ، والاساس المتـين الذي تبنى عليـه الـدول القويـة والممـالك الشـامخـة وكـل مـا تـرونـه في اوروبـة من آثـار العمـران والمدنية ، مـا هو الا ثمـار الوطنيـة »[2] وهو بعـد ان يعرب عن تـأييده لهـذه الرابـطة الخيـرة ، يـوضـح مـوقفـه المبـدئي من قضيـة الـدين ، في خـطبـة لـه ، القـاهـا في الاسكندرية عام ١٩٠٠ فيقول : قـد يظن بعض النـاس ان الدين ينـافي الوطنيـة ، أو ان الـدعوة الى الـدين ليست من الوطنيـة في شيء ، ولكني ارى ان الـدين والـوطنيـة توأمان متلازمان ، وان الـرجل الـذي يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنـه حباً صـادقاً ويفـديه بـروحه وما تملك يـداه[3] لكنـه في جميـع الـظروف والمنـاسبـات، لم يكن مـع

---

(١) محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر . ٧٩ .

(٢) : (٣)ـ المصدر نفسه : ص ٨٢ ، ٨٣ .

الطروح المتعصبة او التصورات الضيقة ،وعارض بقوة التعصب الديني والتخاصم المذهبي، ودعا الى وحدة دينية تنصهر في الوطنية الحق . مؤكداً ان الدعوة الى الشقاق والبغضاء بين ابناء الطوائف والمذاهب هي من صنع الاجنبي وتتنافى مع مفاهيم الوطن السمحاء ، وعقيدته الانسانية . وقد استشهد مصطفى كامل بكلمة لبسمارك موحد بلاد المانيا قال فيها : « لو نزعتم العقيدة من فؤادي لنزعتم منها محبة الاوطان »[1] .

احب كامل وطنه حباً عالياً ، امتلك عليه عقله وقلبه ، وجعله يتحدث عنه برومنطقية وجدانية ، شبيهة بغنائية الغرب والاندلس . لقد تغنى به غناء العاشق الولهان الذي اضناه الشوق والفراق فقال : بلادي ! بلادي لك حبي وفؤادي ، لك حياتي ووجودي لك دمي ونفسي ، لك عقلي ولساني ، لك لبي وجناني ، فأنت انت الحياة ولا حياة الا بك يا مصر .[2] وهو لا يصغي لكلام العزال الذين ردعوه عن هيامه الكبير بوطنه،وطالبوه بالتخفيف من حدة غلوائه ،بل على العكس زاد من حبه ، مجيباً من اتهمه بالتهور ، بأن حبه لا يبلغ درجة جمال مصر ومنزلتها السامية بين الامم ، وهو لا يقارن بجلال آثارها وتاريخ عظمتها اللائقة بها : « الا ايها اللائمون انظروها وتأملوها وطوفوها واقرأوا صحف ماضيها هل خلق الله وطناً اعلى مقاماً واسمى شأناً واجمل طبيعة وأجلّ آثاراً ، واغنى تربة ، واصفى سماء من هذا الوطن العزيز ؟»[3] .

ويضيف « اسألوا العالم كلّه يجبكم بصوت واحد :ان مصر جنة الدنيا. اني لو لم أولد مصرياً لوددت ان اكون مصرياً[4]لكن هذا الحب الكبير بالوطن المصري ، لم يكن يعني اطلاقاً عند مصطفى كامل ، سلخه عن البلاد العربية والاسلامية وحصره في بقعة جغرافية ضيقة ، بل أكّد ان مصر أمة واحدة وهي جزء من العالم الاكبر العثماني والاسلامي . وهو في سبيل تحرير وطنه من الاحتلال الانكليزي ، لم ير حرجاً في استعمال مختلف وسائل الدبلوماسية السياسية ، ومهادنة القوى الاجنبية ، والتقرب من فرنسا ، عدوة انكلترا . فقد جاب اوروبا يدعو دولها الى تخليص مصر

(١) المصدر نفسه ص ٨٣ .

(٢) (٣) (٤) المصدر نفسه ص ٨٤ .

من الاحتلال ، منددا بسيطرتها غير الشرعية ، وفاضحاً اعمالها التي تحط من قدر المصريين وكرامتهم الوطنية . وقدّم للغرض نفسه مذكرة الى رئيسة الجمعية الوطنية الفرنسية ، يستعيد فيها شعارات ثورتها الانسانية التي تفجرت انتصاراً للعدل والحرية ، ومما جاء فيها : « جاءت هذه الامة المصرية تستغيث بهذه الأمة الكريمة فرنسا ، التي حررت عدة من الامم ، فهل تجاب الى استغاثة مصر وتضرعها : وهل لفرنسا أن تؤيد بهذا العمل الجليل مكانتها في العالم الاسلامي الواثق بها[1] وهو في الوقت نفسه ، وضع نداء الى البرلمان الفرنسي تمثل بصورة رمزية لمصر المقيدة بالاغلال والاصفاد وقد ذيّل الصورة بثلاثة ابيات .

افرنسا يا من رفعت البلايا عن شعوب تهزها ذكراك
انصري مصر ان مصر بسوء واحفظي النيل من مهاوي الهلاك
وانشري في الورى الحقائق حتى تجتلي الخير امة تهواك[2]

لكن مصطفى كامل سرعان ما نفض يديه من فرنسا وادرك ان مصلحتها هي فوق كل اعتبار وبخاصة بعد اتفاقيتها عام ١٩٠٤ مع انكلترا ، واطلاق يدها في مصر ، مقابل ان تطلق انكلترا يد فرنسا في شمال افريقيا ، وقد تأكد له ضرورة الاعتماد على النفس وخصوصا في القضايا السياسية والمصيرية ، فاعلن ان الحرية لا تمنح ولا توهب وانما تؤخذ بالقوة وهذا ما أبانه في خطبته الملقاة في الاسكندرية اثر الاتفاق المذكور مباشرة والتي جاء فيها :

« انما الوطنية شعور ينمو في النفس ويزداد لهيبه في القلب ويرسخ في الفؤاد ، كلما كبرت هموم الوطن ، وعظمت مصائبه واشتدت كربته »[3] .

ان موقفه الوطني المبدئي ، جعله يعادي كل من مالأ الاحتلال على حساب وطنه ، فقد هاجم اللبنانيين المقيمين في مصر ووجه اليهم اقسى الانتقادات ، نظراً لموقفهم السياسي المساعد للسلطة المحتلة ، حتى انه وصفهم « بالدخلاء » و « بأعداء

(١)

(٢) شحاتة عيسى ابراهيم : عظماء الوطنية في مصر الهيئة المصرية . ١٩٧٧ ص ١٨١ .

(٣) البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة . ص ٢٥١

مصر ومما قال فيهم « لقد انكروا وطنهم ولم يبادلوا كرم مصر وضيافتها الا بالعقوق والكراهية وخصوصاً عندما تعالت بعض اصوات مثقفيهم ، الذين نادوا بالاصلاح والعمران وسايروا الاحتلال وكان نجيب حداد ، خير من عبر عن رأي هذه المجموعة ، عندما زعم ان النضال ضد الانكليز مستحيل « وان الوطنية الحقة لا تكمن في التوصل الى جلاء المحتل ، وانما في نمو الرقي ، سعياً وراء الاكتفاء الذاتي والاقتصادي »(١) .

لقد نجح مصطفى كامل في تأجيج وطنية المصرين ، واستطاع تبديد كل الاراجيف التي كان يطلقها اعداؤها وكان موته ، واحتفال المصريين بجنازته ، اصدق تعبير عن تشبث المصريين بوطنيتهم ، حيث اثبتت مصر انها امة حية ، لا تستطيع ان تعيش الا اذا كانت امة مستقلة ، ولو نظرنا الى كثرة المراثي والخطب الوطنية التي قيلت في ذكرى تأبينه ، لعرفنا مكانة هذا الزعيم من قضية الوطن والوطنية ، التي جعلها هدفه المركزي الذي تذوب امامه مختلف التناقضات والمفارقات الثانوية . فلنستمع الى حافظ ابراهيم وهو يتحدث عن كيفية تأجيج كامل للشعور الوطني :

هنيئاً لهم فليأمنوا كل صائح   فقد أسكت الصوت الذي كان عاليا
ومات الذي احيا الشعور وساقه   الى المجد فاستحيا النفوس البواليا
شهيد العلى لا زال صوتك بيننا   يرن كما قد كان بالامس عاليا(٢)

هذا الشعر الوجداني الذي عبر عن نفثات وطنية حارة ، سرعان ما استأثر باهتمام الناس وظهر صداه جلياً في اقوال الشعراء الرومانسيين ، الذين تغنوا بحبات تراب الوطن ، ونشدوا مجده واستقلاله . فالشاعر احمد محرم مثلا لم يعد له في صدق اقواله ، وحرارة شعوره إلاّخطب واقوال مصطفى كامل ، وقد أفاض في باب الوطنيات ، والحديث عن وطنه الذي لا تنال منه الاحداث والخطوب ، ولا تطفيء من جذوته المظالم والقيود ، فاشار الى ان هذه الاحداث هي بمثابة وقود ، تؤرث الحقد على الغاصبين ، وتذكي المعاني الوطنية العالية عند المصريين . قال يتغنى غناء صوفي بهذه الوطنية :

---

(١) ز . ك . ليفين : الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث ص ١٩٠ .
(٢) انيس المقدسي : الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ص ١٥٩ .

فان يسألوا : ما حب مصر ؟ فانه دمي وفؤادي والجوانح والصدر
اخاف وارجو وهي جهد مخافتي ومرمى رجائي ، لاخفاء ولا نكر
هي العيش والموت المبغض والغنى لابنائها والفقر والامن والذعر
هي القدر الجاري ، هي السخط والرضى هي الدين والدنيا ،هي الناس والدهر[1]

لكن هذه العاطفة الوطنية التي تجلت بأبهى معانيها عند كامل في موقفه من المحتل الاجنبي ، لم تكن اقل شعوراً واضعف شأناً عند الإمام محمد عبده ، ومؤيدي نهجه من مثقفي مصر والمنطقة العربية الذين جهدوا ـ على طريقتهم ـ في اصلاح مؤسسات الدولة ، واحداث افضل الطرق التربوية ، فالامام عبده مثلاً وان هادن الانكليز وآثر مسالمتهم ، ظناً منه ان المحتل امر واقع ، وقوي وانه من غير المعقول منح الرعية ما ليست مهيأة له[2] الا انه لم يفرط اطلاقاً بوطنيته ، وقد ردّ على وزير حربية انكلترا الذي ادعى ان المصريين يكفيهم ادخال تحسينات ادارية واجتماعية وسياسية ، لينسوا رابطتهم الوطنية قائلا : « ان المصريين يحبون اوطانهم ، حب الشعب الانكليزي لبلاده »[3] واشار الى ان المصري كان وما زال يرفض التسلط والحكم الاجنبي ويعشق الحرية والمفاهيم الانسانية .

ادرك الإمام عبده سياسة الغرب التقسيمية فرق تسد،وفهم اهدافها فعمل على ضربها وذلك من خلال نظرته الشمولية للمفهوم الوطني الذي استوعب العالم العثماني والاسلامي .

وهذا ليس بغريب عليه وهو الذي تربى على يد استاذه جمال الدين الافغاني الذي تمكن من تحريك الشعور الوطني والانساني ، في كثير من بلدان العالم ، والذي لم يتصف الوطن عنده بالتعصب الضيق ، والانغلاق على قطعة من ارض ، لا يرى الانسان ابعد منها ، ظنّاً منه ان وحدة النوع البشري تقتضي وحدة المكان ، وان

---

(١) محمد محمد حسين : الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ص ٨٩ .
(٢) ز . ك . ليفين : الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث ص ١٩٢ .
(٣) احمد امين : زعماء الاصلاح في العصر الحديث . دار الكتاب العربي بيروت ص ٩٣ .

الانسـان خليق بـان تكـون الكـرة الارضيـة لـه وطنـاً[1] والافغـاني في نضـالـه ضـد الاستعمار والاستغلال لم يـرفض الوطنيـة ،ولم يعادها ، كما توهّم بعض الـدارسين، بـل على العكس ، أيدها واعتبرها سلاحـاً بيد الشعب ، من اجـل تحقيق ذاته ، وهـذا ما حـداه الى التحـدث عن عـداء الاجـانب والحكـومـات المستبـدة ، للتـربيـة الـوطنيـة الصحيحة وللدعوة الى تعليم وطني ، يكون بدايتـه الوطن ، ووسـطه الوطن ، وغـايته الوطن.[2] وقد ايـد هذا النهـج عبد الله النـديم الذي اكـد ان الوطنيـة ليست الفاظـاً يتشدق بها اللسـان ، وعبارات تلوكهـا الافواه[3] وان حب الانسـان لوطنـه ، ونضالـه لرفعته ، لا يتعـارضان مـع النظرة الانسـانية الشـاملة للعالم كله ، لأنها امتـداد للعائلة الكبرى ، التي تسع جميع الشعوب والاجناس[4] .

الاتجاه الوطني غير الديني :

اذا كـانت المصالـح المادية ، تحدِّد هـوية العـلاقات الـدوليـة ، فإن أوروبـة ، انـطلاقاً من هـذه المصلحة ايـدت النزعـة الوطنيـة الاستقلاليـة عن العـالم الاسـلامي والعثمـاني في فتـرة ، ثم عـادت وعـارضت هـذه التـوجهـات وايـدت وحــدة اراضي الامبـراطوريـة العثمانيـة في فترة اخـرى . لكن انتشار الافكـار التحرريـة التي غـزت المنطقة العربية ، اثر الاتصال بالثقافة الاوروبية ، جعـل من المستحيل معـارضة التيـار الوطني ، وتوقيـف مدّه المتنامي ، وبخـاصة بعـد ان رأى رواد النهضة العـربية الحـديثة ممن تأثروا بالفكر الغربي ، ان اوروبة المتقدمة ، ما توصلت الى هـذه المنزلـة الساميـة من الحضـارة والعمران ، لـولا وقوف ابنـائها الى جـانب رابطتهم الـوطنية الـلادينية ، التي جمعتهم من مختلف الـطوائف والاديان ، وان الـدولة العثمـانية استغلت الـرابـطة الدينية التي تجمعها مع بقية الشعوب ، لتقمـع الحركـات الوطنيـة ، وتفرض سيـاستها العنصرية المنحازة ، فرفاعة رافع الطهطاوي الذي عمل على ادخـال العلوم العصريـة

---

(١) د . محمـد عملة : نـظرة جديدة الى التراث . المؤسسـة العربيـة . بيـروت ١٩٧٩ ص ٢٣٠ .

(٢) محمد عمارة : مسلمون ثوار . المؤسسة العربية بيروت ١٩٧٤ ص ١٧٥ .

(٣) نجيب توفيق : عبد الله النديم : خطيب الثورة العرابية ، ص ٢٧٦) .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٨٣ .

الى بلاده ، لم ير ان الدين من عناصر الوطنية ، بل دعا الى الوطنية المصرية البحت المتسامحة والبعيدة عن التعصب الديني والمذهبي ، ورفض استغلال الصلات الدينية لمآرب شخصية وسياسية ، تضر بمصلحة مصر الوطنية . وهو الذي ارسى قواعد عصر التنوير وقدم مفهوماً وطنياً وقومياً بعيداً عن التعصب المذموم عندما عرف الشعب بالمجموعة البشرية ، الساكنة في بلدة واحدة ، تتكلم بلسان واحد ، واخلاقها واحدة ، وعوائدها واحدة ، ومنقادة غالباً لاحكام واحدة ودولة واحدة[1] . . وقد دعا في اكثر من مناسبة ومقالة ادبية وعلمية الى نبذ التفرقة الدينية ، ونشر روح المحبة والتسامح بين الجميع ، وأشار بوضوح الى المخاطر الجسام ، التي يتعرض لها الوطن من جراء تعصب الدولة دينياً، وانحياز حاكمها لمذهب وطائفة معينة فقال : « ان الملوك اذا تعصبوا لدينهم ، وتدخلوا في قضايا الاديان ، وارادوا قلب عقائد رعاياهم ، المخالفين لهم ، فانما يحملون رعاياهم على النفاق ، ويستعبدون من يكرهونهم على تبديل عقيدتهم[2] .

والطهطاوي ، لشديد تعلقه بمصر ومعرفته بدورها الحضاري ، عبر التاريخ ، كاد يضاهي مصطفى كامل بحب مصر وبخاصة عندما افاض غناء ونشيداً بجمالها ، ومكانتها الفريدة بين الامم : « مصر كنانة الله في ارضه وان كتابة تاريخها تعريف بحضارات العالم كله ، لشمولية مصر وتمكنها من استيعاب معارف البشرية وهضمها ، فمصر الحديثة عنده ، هي الحفيدة الشرعية لارض الفراعنة ، صاحبة العز والامجاد . ويبدو ان الطهطاوي ـ مترجم كلمة الوطن والوطنية من الدستور الفرنسي ـ لم يكن يقصد في حديثه عن الوطن ، الوطن العربي ، بل الوطن المصري وارضه ، التي ربما عدّها في مرحلة متقدمة له ، جزءاً من البلاد الاسلامية . وهو اذا تكلم على العرب ، فمن باب ارتباط شعبه المصري الفرعوني ، بتاريخ العرب الذين لعبوا دوراً مميَّزاً في حياة البشرية ، انطلاقاً من ذلك رأت فئة من المثقفين المصريين الذين أغوتهم حضارة مصر القديمة وتاريخها العريق ، اهمية حصر اهتمام المصريين بمشاكلهم الوطنية ، واقتصار تفكيرهم على مصالح مصر ، وعلى ما يعود عليها بالخير

---

(١) محمد عمارة : نظرة جديدة الى التراث ص ٢٣٠ .

(٢) الاعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي : محمد عمارة . ج ١ ص ١٢٤ .

والمنفعة . مؤكدين ان الشعب المصري ، كوّن عبر التاريخ امة مستقلة وتمتع بخصائص وسمات مميزة عن سائر شعوب العربية والاسلامية . ولذلك دعوا الى نبذ الجامعة الاسلامية القائمة على اساس ديني وتمسكوا بفكرة ان الامة تجمعها مصلحة عامة ومنفعة عامة . مثّل هذا الاتجاه احمد لطفي السيد الذي أيّد فكرة صعوبة التحرر من دون الاستقلال الاقتصادي وقال : « نحن لسنا انصاراً لهذه الجامعة الاسلامية لانها تقوم على اساس ديني ، ونحن على ثقة من ان الامة ووحدة المصالح وحدهما اللذان يشكلان اساساً للعمل السياسي[1]. عادى اصحاب هذا الاتجاه ، الخط الوطني الذي طرحه مصطفى كامل وجماعته ، وشنوا عليه حرباً اتهموه بالتدليس والتهريج ، وزج البلاد في ازمات اقتصادية وسياسية ، وزعموا أن المحتلين لم يجشموا انفسهم مشقة الاقامة في مصر ، الا لرفع الظلم واحياء العدل ، واكدوا ان نهجهم هو الاتجاه الوطني الصحيح الذي ينظر الى خير مصر ومصلحتها ، وان المخالف له ، إنما هو رجل يفكر بعقول الترك،ويقدم مصالحهم على مصلحة وطنه ، وخير من عبّر عن هذا المنحى الجديد محمد وحيد رئيس الحزب الوطني الحر ، الذي كتب مقالات «سلامة المصريين من سلامة المحتلين » بينّ فيها ضرورة مسايرة المحتلين ، ورفض ادعاءات كامل ومؤيديه ، وتحميلهم مسؤولية سحب اصحاب رؤوس الأموال ودائعهم من مصر والامتناع عن استثمارها وتوظيفها فيها . والواقع ان هؤلاء الذين اطلق عليهم خصومهم تهكماً « عقلاء الامة » كانوا يرون في الوطنية، العمل على ملء البطون ، وتوفير المال ولا يقيمون للقيم الخلقية والوطنية الصحيحة وزناً ، الوطنية عندهم مصلحة ومنفعة وليست عزة وكرامة ولذلك خاطبوا العقول ، وتجنبوا الخيال ، وابتعدوا عن مناجاة القلب وتحليق الخيال .

الوطن والنزعة الاقليمية الضيقة :

هذه الاتجاهات الوطنية الدينية منها والمادية التي اتصفت بابعاد فكرية متنوعة ، سرعان ما اخذت منحى جديداً عند فئة من المصريين المتشددين الذين غالوا كثيراً في الحديث عن جمال مصر ومصلحة مصر،حتى اصبح المفهوم الوطني وبخاصة بعدثورة سعد زغلول ١٩١٩ ، شعاراً يطلب لذاته ، ويقتصر على النزعة

---

(١) ز . ك . ليفين : الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث . ص ١٩٧ .

الاقليمية المتعصبة ، التي تمثلت جلياً ، فيما بعد بتيار الحركة الفرعونية ، الذي بقي لفترة ، مغموراً ، لا يظهر الا مقنّعاً او من خلف ستار ، فأحمد شوقي على الرغم من اتصاف شعره بالطابع الديني ، نراه بعد عودته من منفاه ١٩٢٠ يتأثر بهذه الموجة الفرعونية فيقول :

يا وطني لقيتك بعد يأس ... كأني قد لقيت بك الشباب
ولو اني دعيت لكنت ديني ... عليه اقابل الحتْمَ المجابا . (١)

لكن دعاة هذا الطرح انتهزوها فرصة ، فنشطوا لغزو افكار الناشئة والدعاية لآرائهم الفرعونية ، فرسموا رأس ابي الهول ، على طوابع البريد واوراق النقد ، ورفعوا على المؤسسات والكليات شعارات مشابهة ، مثلت اوثان الفراعنة ، وكان حافظ ابراهيم خير من تبنى هذه النزعة ، لنسمعه يقول :

وبناة الاهرام في سالف الدهر ... كَفَوْني الكلام عند التحدي
هل وقفتم بقمة الهرم الاكبر ... يوماً فرأيتمو بعض جهدي
هل رأيتم تلك النقوش اللواتي ... اعجزت طوق صنعة المتحدي ؟
حال لون النهار من قدم العهد ... وما مسّ لونها طول عهد (٢) .

ليس الغريب في هذه الدعوة ، انها دعت الى اقامة جامعة مصرية متّشددة ، وحضت على نشر دراسات تتعلق بتاريخ مصر الفرعوني القديم ، فهذا ولا شك عمل تراثي ، وجليل الفائدة ، لكن الغريب ، فيها انها اصبحت دعوة انفصالية ، نزعت نحو الانسلاخ عن بقية الاقطار العربية ، والانطواء على الهوية المصرية البحت ، معارضة كل رابطة أو جامعة اخرى . تزعم هذا الاتجاه في العقود الأولى من القرن العشرين محمد حسين هيكل ، الذي نجد في دراساته ومقالاته المتعددة ، تمسكه القوي بحضارة مصر الفرعونية ، ورفضه مزاعم بعض الناس الذين يتوهمون ان تغير الدين في مصر ، من الوثنية الى المسيحية فالاسلام ، وتغير اللغة فيها من الهيروغلينية الى العربية ، قد يقطع ما بين مصر الحديثة ، ومصر القديمة من صلات .

---

(١) ، (٢) : محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

ويؤكد ان هذه الصلة قائمة وان الحضارة الحديثة ومنجزاتها العمرانية التي حققها الانسان في العصر الحديث ، لا تستطيع ان تفك عرى العلاقة التي تربط المصري بمجده الفرعوني .

ولذلك علّل محمد حسين هيكل ، انتفاضة مصر على السلطة العربية ، ايام الخلفاء الراشدين وبني امية وبني العباس ، لنيل استقلالها ، وبيّن مساهمتها ، عبر مختلف المراحل ، في انشطة العرب العلمية والادبية .

الفصل الثاني

القومية العربية والطوائف الدينية في عصر النهضة

الحديث عن الاتجاه القومي يستوجب تقديم نبذة تاريخية عن بدايات فكرة القومية العربية ، وأهم دوافعها التي استأثرت بدراسة ادباء النهضة العربية. ظهرت الفكرة القومية في دعوات الكتّاب والمفكّرين العرب الذين سجلوا بصورة أوّلية خطوطاً ربما تكون متضاربة ، لأنهم كتبوا في زمن تكالبت فيه الدول الأوروبية على «الرجل المريض»، تريد سلخ الأقطار العربية عن الامبراطورية العثمانية من اجل تسهيل عملية استعماره.واستغلاله . هذه البديات المشوشة ، لبّت حاجة البلاد ازاء هجمة القوميات الغربية ، وتنازعها على المستعمرات ومناطق النفوذ ، فايقظت الشعوب المستضعفة التي اخذت تطالب بحقوقها القومية والاجتماعية ، وتتطلع الى اليوم الذي تتمكن فيه من تحرير الوطن ، وبناء عزتها القومية . وقد ألمح الى ذلك بطرس البستاني في محاضرة القاها عام ١٨٥٩ ، معتمداً على رابطة اللغة العربية ، التي تجمع مختلف الناطقين بها من مسيحيين ومسلمين فأشار الى كيان اسمه الكيان العربي ، والى شيء ينتمي اليه ، اسمه الثقافة العربية[1]. وفي هذا المقام لا بد من ذكر اليازجيين : ناصيف وإبراهيم اللذين تمكنا من تسليط الاضواء على العروبة ، بحيث جمع الأول في بيته كثيراً من المثقفين ، يتحدثون عن الثقافة ويدعون العرب من مسلمين ومسيحيين الى نبذ التعصب الديني والعودة الى التراث العربي المشترك .

---

(١) البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ، ص ٣٣٠

وكان لابراهيم اليازجي من خلال الجمعية السورية ، افضل الاثر في تحريك شعور العرب القومي ، من خلال قصيدته الميمية ، التي اثارت مشاعر العرب القومية ونالت شهرة واسعة برغم عدم تدوينها خوفاً من ادانته بالخيانة :

سلام ايها العرب الكرام   وجاد ربوع قُطركُم ، الغمام
وما العرب الكرام سوى نصال   لها في اجفن العليا مقام
لعمرك نحن مصدر كل فضل   وعن آثارنا اخذ الانام[1]

وكان للجمعية السورية العربية فضل في تغذية عقول الناشئة ، بالكرامة والغيرة وجَعْلَهم يتوقون الى تحقيق دولتهم القومية الانسانية ، وقد أفاد ابراهيم اليازجي من هذه الجمعية فألقى خطبته العربية التي بوأته سدة ريادة الداعين الى القومية العربية ومما قاله في احدى قصائده .

تنبّهوا واستفيقوا ايها العرب   فقد طمى الخطْب حتى غاصت الركب
بالله يا قومنا هبوا لشأنكم   فكم تناديكم الأسفار والخُطب
ألستُم من سَطَوْا في الأرض واقتحموا   شرقاً وغرباً وعَزُّوا أينما ذهبوا[2]

وهكذا أخذت تباشير الوعي القومي تتصدّر اهتمامات روّاد النهضة العربية الحديثة الذين أنشأوا عام ١٨٧٥ أول جمعية سرية ، مركزها الرئيس بيروت ، ولها فروع في طرابلس وصيدا ودمشق ، ولم يُعرف ، لسريتها وخطورة مبادئها الاستقلالية والقومية ، أسماء مؤسسيها باستثناء دكتور فارس نمر ، ويُعتقد أنّ عبد الرحمن الكواكبي وشبلي شميل كانا من اعضائها البارزين . إتّبع اعضاء الجمعية سياسة ذكية في تعاملهم مع السلطات التركية ، اذ أنهكوها بكتابة المنشورات الطيارة التي تلصق على جدران الشوارع في اوقات محدّدة ، تندّد بسياسة الأتراك الغاشمة ،ومفاسد نظامهم ومما جاء في احد بياناتها (وعد ذلك ببرنامج عمل للحركة العربية التي غمّتها مواقف حزب تركيا الفتاة الاستبدادية) ١ ـ منح سورية ولبنان الاستقلال ٢ ـ ضرورة الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في المناطق التي تقطنها أغلبية عربية

(١) د . منير موسى ، الفكر العربي في العصر الحديث ، ص١٩٢
(٢) أنيس المقدسي : الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث . ص ١٠٧

٣ ـ رفع الرقابة والقيود التي تحد من حرية الرأي والاجتماع والنشر . ٤ ـ استخدام القوات المجندة من اهل البلاد (١) .

أكّدتْ هذه البنود هوية عمل الجماعة ، فالبند الأول المتضمن وحدة لبنان وسورية عزز فكرة القومية العربية ، رغم صدور قانون ١٨٦٤ ، إثر مجازر « الستين » الطائفية ، الذي اعطى جبل لبنان استقلالاً ذاتياً عن سورية ، ونظاماً خاصاً به . وبفعل هذه الحركات والجمعيات ، تبلورت المفاهيم القومية ، واضحت المنطقة العربية ، تمور بنشاطات ادبية وسياسية تدعو الى اللامركزية والاستقلال ، واصبح عنصر المفاجأة بالنسبة الى الانسان العربي شيئاً عادياً ، حيث يترقب انبلاج حياة جديدة تعيد اليه مجده وعزته . وهذا ما عبر عنه احد كتاب فرنسا الذي زار بلاد الشام ١٨٨٢ وسجل انطباعه عن انعكاس وانتشار الروح القومية آنذاك « انتشرت روح الاستقلال إنتشاراً واسعاً وكان الشبان من المسلمين خلال اقامتي في بيروت منهمكين في تنظيم الجمعيات لانشاء كثير من المدارس والمستشفيات »(٢) وعن رأيه في المسلمين أضاف صاحب المقال : ان توجههم غير طائفي ونشاطهم بريء من وصمة التعصب الطائفي . ويثبت التاريخ ان هذه الجمعيات قبلت عضوية النصاري في قيادة ومسؤولية معارضة الاتراك . وفي سبعينات القرن التاسع عشر جاب ديفوار (رحالة فرنسي) البلاد العربية فرأى علائم الامتعاض من الاتراك ورغبة التخلص من حكمهم . فكتب ما يلي : لقد قابلت في كل مكان ذلك الاحساس الواحد الدائم المشترك : كراهية الأتراك(٣) هذا الاحتجاج على الأتراك ، أكّده قنصل انكلترا في دمشق ، في تقريره المرفوع ١٨٨١ الى وزارة الشؤون الخارجية « ان الشيء الوحيد الذي يربطهم (السوريين) بعضهم ببعض هو كراهية السلطة التركية »(٤) .

لقد بات واضحاً ان شيئاً ما يخطط في الديار العربية ، وان هذا الشعب الذي بقي قروناً تحت سلطة الاتراك مهيض الجناح سيعرف كيف ينتفض على ظالميه ،

---

(١) علي الحافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب . ص ١٣٠

(٢) جورج انطونيوس : يقظة العرب ص ١٦١ .

(٣) (٤) بشير السباعي : الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث ، ص ١٤٥

ويأخذ مكانه تحت الشمس ، لكن هذا المخطط الذي أومأت الاقلام العربية ، والاجنبية ، وأشارت فيه الى وجود حركة عربية واعية في مختلف المناطق العربية ، لا يعني وجود ثورة عربية شاملة ومنظمة ، فتفكك الامة العربية يومذاك والاوضاع الداخلية السيئة التي عاشتها كل منطقة على حدة ، وعدم وجود وسائل نقل وسكك حديدية ، اضافة الى كم صوت الصحافة والرقابة الصارمة عليها، كلّه يجعل التفكير بوجود حركة او ثورة عربية ، أمراً صعباً. والحقيقة ان البلاد عرفت وجود مخاضات عربية ترمي الى الاستقلال ،وتململات تنزع الى الحرية ، والانسلاخ عن الحكم التركي ، الذي لم يستطع ان يقضي على عروبة المسيحيين والمسلمين الذين بادروا مع فجر النهضة العربية الى المطالبة بالحقوق القومية ، واعلنوا قيادات وروداً ، ضرورة الحفاظ على التراث العربي واللغة العربية .

وقد لعبت القيادة المسيحية في بداية الانبعاث القومي ، افضل الدور في تحريك الشعوب العربي ، وتفتيح الفرد العربي ، على حب الوطن. ومن رموز هذه القيادة: ناصيف اليازجي وابنه ابراهيم ، اللذان خدما العربية وثقافتها كثيراً. وبطرس البستاني الداعية الأكبر الى محبة الأوطان والذود عنها ، وعن المبادىء الوطنية والقيم الأخلاقية ، ونبذ التعصب والنعرات الطائفية فألف بين الطوائف المتنازعة ، وأعان على تمتين الوحدة الوطنية وترسيخ وحدة العرب والعروبة ، لكن انتشار تعليم اللغة الاجنبية في مدارس الارساليات التبشيرية وسفور هذه المدارس عن وجهها السياسي الاستعماري واقتصارها على ابناء الطائفة المسيحية ، كل ذلك حول قيادة العروبة من المسيحيين الى المسلمين الذين حضّوا في مدراسهم الإسلامية على ملازمة العربية رغم انها أقلّ مستوى وكفاية من الاجنبية ، والذين ينتمون في قسم كبير منهم الى البورجوزية والارستقراطية الدينية والبيروقراطية . هذه الفئات الاسلامية التي لها متطلّبات ومصالح اقتصادية وسياسية معينة ، قد حال الحكم التركي الإقطاعي دون تحقيق رغباتها ونموّها ومنعها من الوصول الى المناصب الحساسة في الدولة ، خوفاً من الانقلاب عليه ، فتداعت هذه الفئات الى معارضته والمطالبة باللامركزية والاستقلال القومي ، ولذلك ايّدت هذه الفئات جمعية الاتحاد والترقي (الاتجاه العسكري في صفوف تركيا الفتاة) . وهلّلت لانقلابها العسكري عام ١٩٠٨ وشعاراته المؤيدة للحقوق القومية للشعوب والأمم التي تحكمها الامبراطورية معتبرة أنّها نقطة تحول في سبيل تدعيم مركزها السياسي . لكن الاحداث خيّبت آمالها ، لأن الاتحاديين

بأغلبيتهم الساحقة ، يميلون الى الحكم المركزي ، والسيطرة على بقية العناصر الأخرى . وهكذا بعد تحول قيادة العروبة من المسيحيين الى المسلمين ، وبعد تغلغل المفاهيم الأوروبية وتعاليمها عبر مؤسساتها التبشيرية والتعليمية ، الى عدد كبير من المثقفين النصارى ، وبعد الظلم الذي لحق بهؤلاء من قبل الاتراك المسلمين ، احجم كثير من أبناء هذه الطائفة التحدث عن امة عربية خوفاً من ان تنكشف القومية العربية عن شكل جديد من اشكال التسلط الاسلامي ، وفضّل معظم كتابهم ومفكريهم التريث في اعطاء موقف واضح عن العروبة حتى تنجلي الأمور ، وتتبلور بعض الالتباسات المبدئية .

وبالفعل ظلّ التيار القومي العربي ، يفتقر الى ابناء الطائفة المسيحية التي آزرت ، منذ العصور الأولى للاسلام ، العروبة ، وكانت على الدوام خير مدافع ، ونصير لها حتى طرح نجيب العازوري ، الكاثوليكي - الذي يقول عنه جورج انطونيوس عربي مسيحي باشر نضالاته في السنوات الاخيرة في عهد السلطان عبد الحميد - قضية الأمة العربية والوحدة العربية على اساس حديث ومفهوم علمي لا ديني ، مؤكداً اهمية فصل الدين عن الدولة ، فعادت الأقلام المسيحية من جديد الى مكانها العروبي الطبيعي تشارك في القضايا العربية وتنشط في تأكيد انتماء المسيحيين الى العروبة والى الهوية العربية .

أسباب تأخر التيار القومي :

من يستقرىء التاريخ القديم والحديث ، يرى ان العرب ظلوا دائماً مرتبطين بتاريخ امتهم وتراثها الانساني . واكبر الظن ان الفكرة القومية لم تتأخر في ظهورها حتى نهاية القرن التاسع عشر الا لسببين اثنين :

الأول : غياب المفهوم القومي ، إذ استطاعت رابطة الجامعة الاسلامية العثمانية ان تستحوذ قلوب العرب المسلمين وان تنسيهم هويتهم القومية عندما دعا بعضهم الى الوحدة الدينية والرابطة الاسلامية التي تعترف بحدود وطنية ومفاهيم اقليمية . وخير من مثّل هذا الاتجاه جمال الدين الافغاني الذي رأى ان لا فرق بين مسلم عربي ومسلم اعجمي ، لأن الدين قد وحّد بين القبائل والأجناس وصهرهم في

امة واحدة ، واكد ان النظريات الحديثة من قومية الى وطنية هي من صنع القوى الاجنبية الاستعمارية وحلفائها المؤتمرين بأوامرها من اجل نهب ثروات البلاد الاقتصادية والسيطرة السياسية . ولهذا لم يثر العرب في وجه العثمانيين لاعادة دولتهم العربية ، لاعتقادهم ان الرابطة الاسلامية التي آخت بين مختلف الاجناس والأقوام هي رابطة تجمع شمل الجميع وتصون الحرية والكرامة . لكن النتائج السلبية التي أفرزتها سياسة المصريين قد اوهنت ، من هذه الجامعة ،وفرضت معتقدات بديلة علّها تستطيع ان تؤطر الناس في وحدة معينة وتجمعهم في قواسم مشتركة . وفي رأينا ان الافغاني ظلم من قبل بعض المفكرين الذين ادعوا أنه بحركته الدينية العالمية ، قدعادى الحركة القومية عموماً والقومية العرَبية خصوصاً ، ولم يفقهوا موقفه المبدئي الذي ميّز بين الجامعة الاسلامية . كرابطة دينية تجمع مختلف الشعوب والامم وبين الوحدة السياسية لكل دولة تدين بالاسلام ، لقد فقه الافغاني معالم الروح الوطنية والقومية التي لحظها الاسلام فرفض فكرة تحكم الفرد الواحد في الشعوب والأمم ، وأيد قيام الوحدة السياسية لكل بلدان وشعوب الاسلام . والافغاني في آخر مرحلة من حياته النضالية ، اعطى مفهوم القومية الحيّز الاكبر من تفكيره . وهذا ما تجلى في رده على محاضرة المستشرق الفرنسي ارنست رينان ، الذي ضمّن محاضرته هجوماً على الجنس العربي ، وعلى العقلية العربية ، التي لا تتلاءم مع الفكر الفلسفي مدّعياً ان التراث العربي الاسلامي ، انما هو نتاج شعوب واجناس غير عربية . لقد خطّأ الافغاني معيار رينان للعروبة ، القائم على عنصر العرق والجنس ونقاء الدم ، وقال ان العروبة كانت سائدة قبل الاسلام ، الذي نماها ومدّها بتعاليمه السمحاء واخلاقه الكريمة . وبيّن اثر اللغة في عروبة الصابئة والحرانيين «إن الحرانيين كانوا عرباً وان اللغة العربية كانت الى ما قبل الاسلام ، بعدة قرون لغة الحرانيين . وكونهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة الصائبة ، ليس معناه انهم لم ينتموا الى الجنسية العربية»[1]. ان معيار الافغاني هو سمة انسانية وحضارية . تقف الامة في مقدمة قسماته : « لا سبيل الى تمييز أمة عن اخرى الا بلغتها : وقال ايضاً : ان الامة العربية هي عرب قبل كل دين

(١) محمد عمارة : مسلمون ثوار . ص ١٧٢ .

ومذهب)[1] وهو لم يترك مميزات وخصائص القومية دون تحديد ، بل حددها بخمس خواص هي : اللغة والأخلاق والعادات والاقليم واخيراً الدين ، وذلك عندما قال : ان الحكمة قضت ان تكون الحواس البشرية المعروفة خمساً ، وان يكون للاقليم خواص خمس بها تميّزت الشعوب والقبائل التي خلقها الله من نفس واحدة [2] .

الثاني : التفكّك الداخلي والتفتيت الاستعماري : كان نظام البلاد العثمانية اقطاعياً يقوم على العمل الحرفي ومبدأه الالتزام والسخرة ، الذي يشل الطموحات القومية ، ويقضي على المصالح المشتركة ويكرس الوضع التفتيتي الذي يجعل المواطن القاطن جنوباً لا يعرف ما يجري لأخيه الذي يَسْكن شمالاً ، استطاع هذا النظام ان يغيّب المفاهيم القومية ويطمس الرغبات المشتركة خصوصاً وان خطوط المواصلات ووسائل النقل والاتصالات الحديثة ظلت شبه معدومة حتى فترة متقدمة من القرن التاسع عشر . وان سياسة التجهيل المضروبة حول عنق الانسان العربي ومحاولة سلخه عن محيطه القومي ، وتقوقعه في دائرة ضيقة ، جعلت منه مواطناً بائساً لا يرجى منه الكثير . الاّ ان وصول محمد علي باشا الى السلطة في مصر وسورية غيّر الاوضاع وقلبها رأساً على عقب ، خصوصاً عندما اقدم على ضرب ركائز النظام الاقطاعي وجدّد في نمط العلاقات الاجتماعية والاقتصادية ، فظهرت قطاعات انتاجية جديدة كانت في الامس القريب مهملة ومغمورة . وعندما ابدى محمد علي رغبته في اقامة دولة الوحدة القومية بين سورية ومصر ، جزعت اوروبا من هذا المدّ العروبي ، الذي يبدد آمالها في افتراس تركة الرجل المريض ، فأقدمت على تثبيت سلطة السلطنة الاسلامية ، وتصدت للتيار العروبي الناشيء الذي لو استطاع ان يركز اركانه لغيّر اوضاع المنطقة بكاملها ، مما يؤكد ان اوروبا تزين مواقفها بميزان مصالحها فإذا كانت زمن محمد علي ، ساندتْ السلطنة العثمانية وتصدت للوحدة العربية وتيارها العروبي ، فأنها في الحرب العالمية الأولى ، على العكس ، عارضت السلطنة وشجعت حركات التحرر الوطنية والقومية المطالبة بالحرية والاستقلال بقصد

---

(١) المصدر نفسه ص ١٧٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٧٣ .

تفتيت الامبراطورية وتسهيل عملية قضمها واحتلالها : فتقرير الدبلوماسي النمساوي بروكش فون استين عام ١٨٣٣ اكد خطورة مثل هذه الوحدة على اوروبة وقال : انني ارى مقابل عدم جدوى امكانيات الباب العالي ، ومقابل هيبته المتداعية يوماً بعد يوم ، جيشاً عربياً حسن التدريب ظافراً . . وادارة تكاد تستغني كليَّةً عن الاتراك ، ويقظة الروح القومية [١] .

وفي الحرب العالمية الأولى : فقد نشطت اوروبا في تدعيم العمل القومي . فالانكليز والفرنسيون احتضنوا الحركة العربية الثائرة وتنافسوا في السيطرة على قيادتها : كان الانكليز يحمون كل متمرد في مصر ويحولون دون بطش الترك به وكانت فرنسا تقوم بحماية المتمردين المسيحيين في بلاد الشام . زاعمة لنفسها حق حمايتهم . وقد ظهر التنافس جلياً بين الدولتين في الجيش العربي ، عندما احتضن الفرنسيون بعض ضباط العرب مثل نوري الشعلان ، واحتضن الانكليز نوري السعيد الذي يصفه لورنس بانه اليد الذي ينفذ بها الانكليز قراراتهم . ويحققون رغباتهم .

تركيا الفتاة واليقظة القومية :

كان لسياسة « تركية الفتاة » العنصرية اكبر الدور في تنوير العرب على قضاياهم القومية ومطالبهم العربية ، لأنها عملت تحت غطاء الجامعة الاسلامية ، على ضرب القوميات غير التركية ، وتزويبها في العنصر الطوراني التركي وصبغ الحياة العامة بالتركية : « **علينا ان نعمد الى الجيش والاسطول والعلوم والآداب والشرائع والقوانين وكل شيء فنصبغه بالصبغة التركية المحضة** »[٢] .

ان طغيان الاتراك ادى الى اثارة الحمية العربية وبالتالي الى يقظة الامة القومية ، فكما ان الشعوبيَّة الفارسية ظهرت نتيجة عنجهية الحكم العربي في اواخر العصر الأموي ، كذلك فان القومية العربية ظهرت كردة طبيعية لعنجهية الاتراك الذين تفننوا بخططهم العدائية للعرب وقد أوردت احدى صحف اسطنبول مقالاً ،

---

(١) مجلة الثقافة العربية . تشرين الثاني ١٩٧١ ص ٨٣ .

(٢) أنيس المقدسي : الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ص ١٢٣ .

لاحـد رجالات جمعيـة الاتحاد والتـرقي يستعلي فيـه عـلى العـرب قـائـلاً : « ان الامـة التركية كـانت وستظل هي الامـة الحاكمـة وان لها الحق في التمتـع بحقوق وامتيـازات اكسبها اياها الفتح وانه ليس في امكان ولا محل للاعتـراف بحقوق متسـاوية في الـدولة للعناصر الاخـرى [١] ان كره الاتـراك الشديـد للعرب جعلهم يـطلقون اقـوالاً مهينة جرت على السنتهم مجرى الامثال ، فهم يقـولون في عـرب الحجاز « ويلنجي عـربي » اي عـرب الشحاذين » وفي عـرب المصريـين كور فـلاح اي « الفلاحـون الاجـلاف » ويعبرون بلفظه « عرب » عن الرقيق وكـل حيوان اسـود ، وبلفظة « بس عـرب » عن العربي القذر [٢] هـذا التعصب بلغ قمته عنـدما اقـدمت فئة منهم حـاقدة ، سمَّت تنقية الالفاظ العـربيةالمستعملةفي لغتهم ، بلفظ التـطهير وكأن العربيـة نجسة دنّست اللغة التركية [٣] ، والّف احدهم كتاباً « قوم جديد » مجموعـة خطب القـاهاصـاحبها في المساجد ودعـا فيها الشبيبـة التركيـة الى التعلق بتاريخهم وتبجيـل رجالاتهم القـدماء والمحـدثـين امثـال جنكـز خـان وهـولاكـو وتيمـورلنـك وانـور وطلعت وجمال، وتعليق اسمائهم في المساجـد بدلاً من اسـاء الشخصيات الاسـلامية الشهيـرة محمد وابـو بكر وعمر وعثمان وعلي ، وكان المؤلف حين يذكر اسماء ملوك التـتر والترك يـردف الاسم بعبارة (صلى الله عليه وسلم) (او رضي الله عنه) او (عليـه السلام) . حيـال تفاقم هذه الحالة المتردية ، انبرى بعض رجـال النهضة العـربية يـدحضون مـزاعم الاتراك ويلهبون مشاعـر العرب القـومية والـدينية وجـاء في احدى الخـطب « ان الترك جـاروا عـلى لغة القـرآن وعدّوهـا من النجاسـات : انفطرت القلوب وفـاضت العيون وضـجّ البيت والحرم وكاد الركن يتحطم وشكا القبر المعظم وغضب الرب عز وجلّ [٤] » .

وسـاهم الشعر العـربي في تصويـر هذه الحـالةِ السيئـة ونـدد بسيـاستها الحـاضرة ومظالمها القاتلة كقول أحدهم ، يصف منزلة العرب :

---

(١) محمد عزة دروزة : نشأة الحركة العربية الحديثة . ص ٣٠٠ .

(٢) د . محمد عمارة :الاسـلام والعروبـة والعلمانيـة . دار الوحـدة ، بيروت ص ١٩٨١ ص ١٤٠ .

(٣) رشيد رضا : مختارات سياسية . ص ١٥٠ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٥٦

أأنتُمُ بين ايدي الترك لا وطن — لكمْ لكنَّ اصحاب البلادهم
جاروا على لغة القرآن فانصدعت — له القلوب وضج البيت والحرم
فالقدس باكية والشام شاكية — وفي الحجاز يكاد الركن ينحطم [1]

ولعمر حمد الذي شنقه جمال باشا قصيدة تؤكد أن سياسة الظلم لا تدوم ولا بدّ أن تنقشع الغيوم ويطلع الفجر .

لغة القرآن ودّوا محوها — ويل قوم اغضبوا البيت الحراما
هذه نياتهم بانت فلا — تنخدع يا شعب واحْذَرْ ان تناما
اخبر الظلام انا أمةٌ — تكره الظلم وتأبى ان تضاما [2]

مرت حركة اليقظة القومية بمراحل تزامنت مع معطيات الواقع والاحداث المستجدّة فانتقلت في غضون عشر سنوات ١٩٠٨ - ١٩١٨ ، من التأييد المشروط لتركية الفتاة الى القطيعة التامّة ، حيث تنبّه الشعب لمصيره فعبر في طروح مبدئية عن تصوراته للمرحلة القومية التي سكبها في منتدياته وجمعياته .

جمعية « حفظ حقوق الملّة العربية » دعت الى الوحدة المسيحية والاسلامية ضمن اطار العروبة وأصدرت بياناً عيّرت فيه سياسة تركيا المنحازة مشعلة نيران التمرد عليها . « اين أنتم واين هم ؟ من منكم اليوم امير ومن منكم اليوم وزير ومن منكم اليوم مدير ؟ بل كل واحد منكم فقير ، وكبيركم مثل صغيركم حقير والآمال والمال بايدي الترك [3] » . ادركت هذه الجمعية اهمية وحدة المسلم والمسيحي فحضّت على تآلف الطوائف ، وذكرت ان تركيا التي تعمل على تعميق الاختلافات المفتعلة ، تخاف من اتحادها ، ففي منشور لها تفوح منه نفثات قومية حادة طلبت من المسيحيين ضرورة الاتحاد مع المسلمين وعدم خداع انفسهم بالاعتماد على حماية الغرب . في هذا الوقت الف دعاة القومية العربية جمعيات ادبية وسياسية وكتبوا قصائد ومقالات وطنية وقومية ألهبت الشعور العربي ، برغم صدور القانون التركي

---

(١) محمد عزة دروزة : نشأة الحركة العربية الحديثة . ص ٣١٢ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣١٧
(٣) علي المحافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب ص . ١٣١ ، ١٣٢

في آب ١٩٠٩ الذي يحظر قيام جمعيات وأحزاب ذات اهداف قومية . وجمعية المنتدى الادبي انشئت في خريف ١٩٠٩ في استانبول ، بعد أن تكلت جماعة مصطفى كمال بالقوميين واقدمت على حل جمعية الإخاء العثماني لتطلعات بعض شخصياتها القومية امثال عبد الكريم الخليل ورشيد رضا وعزيز علي المصري وشكري القوتلي وعادل ارسلان ونخبة من آل الصلح والعظم .

اتصف « المنتدى » بطابع قومي غير طائفي والتقى فيه ابناء العروبة للتشاور في قضايا مطالب تهم البلاد . وقد عكس رئيس « المنتدى » عبد الكريم الخليل في أحاديثه اجواء التسامح والتآخي التي تعيشه مختلف الطوائف في ظل العروبة وذلك عندما ابعد العامل الديني عن العروبة وحدد أركان القومية بـ وحدة اللسان ووحدة التاريخ ووحدة الوطن ووحدة المنفعة المتوافرة كليّة للأمة العربية [1] وكذلك قامت جمعيتان لعبتا دوراً بارزاً في الاحداث العربية وبعث الروح القومية . الأولى هي جمعية العربية الفتاة التي أُلّفت عام ١٩١١ في باريس على يد سبعة من الطلاب العرب . وقد تغير هدفها من الاستقلال الذاتي داخل اطار الامبراطورية العثمانية ذات العرق المزدوج العربي والتركي ، الى استقلال تام عن النير التركي ، وقد انضم الى هذه الجمعية الملك فيصل عام ١٩١٥ ، بعد ان اخبره اعضاؤها في دمشق ، انه في حال الثورة العربية سيجد اهلها على استعداد لتأييده . والثانية جمعية العهد اسسها عزيز علي المصري في القسطنطينية ١٩١٣ ، وكانت عسكرية اكثرية اعضائها من ابناء العائلات الاقطاعية كنوري السعيد وياسين الهاشمي وعلي النشاشيبي الذين تمردوا على الدولة العليّة وطالبوا باقامة الدولة المستقلة .

واثناء الحرب العالمية الأولى ، اتصلت جمعية العهد بالغربية الفتاة ووحّدتا وسائل عملها ضد حكومة الاتراك التي تخوفتْ من قوة المد القومي المتنامي فتداعت الى اجتماع درست فيه فكرة اغتيال عزيز علي المصري واتخاذ عقوبات بحق العرب القوميين . لكن هذه الاجراءات لم تثن العروبيين عن متابعة نضالهم وملاحقة قضاياهم القومية خصوصاً وان القضية القومية اصبحت مطلباً عاماً يتعلق بالوجود والمصير .

---

(١) سليمان موسى : الحركة العربية . دار النهار . بيروت ١٩٧٧ ص ٣٢ ، ٣٣

الجذور التاريخية للعروبة :

إن سقوط حكم فيصل في بلاد الشام ١٩٢٠ الذي أنهى أهم الجمعيات العربية : العربية الفتاة وجمعية العهد لم يستطع بالطبع ان يمحو ما خلّفته من افكار قومية ، انتشرت في المناطق العربية انتشار الهشيم في الرماد ، وتجذرت مع جذور القومية العربية الضاربة في اعماق التاريخ ، وهو ما أكده الباحثون بأن العرب كانوا يشعرون بقوميتهم حيال الفرس والرومان قبل الاسلام الذي صقل حضارتهم ووحد بلادهم وقبائلهم وجعلهم أمة واحدة ، تدين برابطة العروبة التي آخت بين المسلم والمسيحي ، لقرون طويلة لا يفرقهم معتقد او مذهب . وكان للطائفة المسيحية بما نقلته من معارف وعلوم بيزنطية ويونانية ، اروع الفضل في إغناء العروبة ، التي جعلتهم لا يقلون عن اخوانهم المسلمين ارتباطاً بها . ودليلنا على ذلك المذاهب التي انتشرت في بلاد الشام ومصر من النسطوريين واليعقوبيين ، والتي تميّزت عن مسيحيّي الغرب ، بطابعها الشرقي العربي. وهذا ما أشار اليه الاستاذ عبد الرحمن البزاز ، في محاضرة له عن الاسلام والقومية العربية عندما قال « ان الناطقين بالضادهم العرب من مسلمين ومسيحيين، وعلى المسيحيين خاصة ان يعتزوا اعتزازاً حمياً بما فعلوه في التاريخ ، اسوة بالعرب المسلمين » [1] . هذا الكلام وان جاء على لسان احد المسلمين الا أنّه لم يخرج عن سربه . فالمؤرخ قسطنطين زريق الذي عكف على دراسة التاريخ العربي ، رفض فكرة الاستئثار الاسلامي للحضارة العربية ، واكد مشاركة المسيحيين في صنع الحياة العربية وتراثها العربي الاسلامي ، معلناً ان مجتمعنا العربي اليوم يفتقر الى القومية التي تولّد الشعور بالمسؤولية المشتركة والارادة الموحّدة في خلق مجتمع ، ثم أوضح ان مجتمعنا بنوع خاص ، يستمد مبادئه من الدين . . الذي لا يكون بالنسبة الى العرب الا الاسلام » [2] . كونه خلاصة الحضارات العربية السامية ، والرسالات السماوية .

---

(١) البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ص ٣٦٨

(٢) المصدر نفسه ص ٣٦٩

المضامين الفكرية للعروبة :

اذا كان الغموض قد لحق بمطالب الحركة العربية الاستقلالية في العصر الحديث فتباينت الدراسات والاجتهادات لظهور حركة او نظرية جديدة ، فانه من المنطق ايضاً ، ان تعرف القومية العربية تسميات عديدة وان تتشعب دراساتها وتأخذ اهدافاً ومضامين مختلفة ،ولهذا خالط الفكرة القومية في بدء ظهورها اضطراب ملحوظ ، فالتبس بين القومية والشرقية والعروبة والاسلام واصبح التمييز بين هذه التسميات والتفريق بينها صعباً .

وهذا ما حدا بالمفكر محمد لطفي جمعة ، على الكتابة الى جماعة من الكتاب يتساءل عن المعنى المحدد لهذه التسميات المتشابهة « هل المقصود بالأقطار العربية بالمعنى الصحيح، البلاد التي يتكلم اهلها اللغة العربية بقطع النظر عن تابعيّتهم ودينهم ؟ ام البلاد التي تدين بالاسلام ، وتخضع للمدنية العربية بحكم لغة القرآن »[1] . ولذلك وقف ادباء ومفكرو النهضة امام هذه التسميات يستجلون مميزاتها فانقسموا زمراً وشيعاً ، دافع كل طرف عن معتقده ، بحجج تنسجم مع تفكيره ، فالزعيم السوري عبد الرحمن شهبندر ، الذي كان لفترة طبيباً خاصاً لجمال باشا اعلن أن مفهومه للشرق ، ليس غير بلاد العرب ، وان الحضارة العربية في نظره لا تختلف عن الحضارة الاسلامية . ولعل قول مصطفى صادق الرافعي ،افضل ما قيل في تبيان علاقة الشرق بالجامعة العربية والاسلامية « الذي اراه ان نهضة هذا الشرق العربي لا تعتبر قائمة على اساس وطيد ، الا اذا نهض الركنان الخالدان : الدين الاسلامي والقومية العربية »[2] . . أما بخصوص الوحدة الشرقية ، فيعتقد أنّ هذه اللفظة قد اطلقت تمثلاً بالغرب وكردةّ فعل على تعصب الغربيين لغربهم .فالافغاني اتخذ من الجامعة الشرقية منبراً لجمع الشمل ومهاجمة سياسة الغرب الاستعمارية . ففي تحذيره لبلاد الشرق من احابيل الانكليز وخططهم الخبيثة ، طلب تنشيط عقول الامم الشرقية ولم شعثها وتوحيد كلمتها :«ما قرعت آذان المسلمين والشرقيين عموماً بالحجج القاطعة وهتكت استار الطامعين ،

---

(١) محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص ١١٧

(٢) المصدر نفسه ص ١١٨ .

بالبراهين الساطعة الاّ لأقرب البعيد من زمن الاستعباد ، وأقصر طيات المسافة في الذل والمهانة لمن لم يسقط بعد من المقاطعات الشرقية »[1] .

القومية العربية والدين :

استطاعت الدولة العثمانية بفعل رابطة الدين الاسلامي ان تحكم مختلف امم الشرق وشعوبها ، لكن ظهور النزعات القومية ، التركية وغيرها في القرن التاسع عشر، جعل العرب يتوقون الى تحقيق عزتهم القومية التي حاول طمسها الاتراك : الطورانيون. واذا كانت حركة القومية العربية منذ نشوئها قد استمدّت نصوصها من الدين الاسلامي فلأن شعبها المتدين آنذاك كان لا يتقبلها الامن خلال معتقده الديني وبات من الصعب الفصل بينهما، واصبحت العروبة هي الحقيقة القومية المطلقة للامة العربية ، والاسلام عقيدتها الكونية المثلى. واعتبر اصحاب هذا الاتجاه ان لا عروبة دون اسلام ولا اسلام دون عروبة وان لا حياة ولا وجود لاحدهما دون الآخر [2] . لقد ألّف الاسلام والعروبة اقنوماً احادياً واحداً غير قابل للفصل او التقسيم اعتماداً على قول الرسول (ص) : اذا ذل العرب ذل الاسلام . وكذلك على قوله تعالى للرسول مفتخراً بقرآنه العربي الذي انزله على امة محمد العربية « وإنه لذكر لك ولقومك »[3].

وقد اعتبر هذا المفهوم القومي ، معتدلاً ، خصوصاً حيال طروح بعض المغالين ، الذين تعصبوا للدين ودعوا الى الاسلام المطلق ، وجردوه كلياً من العروبة اعتقاداً منهم ، ان العروبة قومية ، وان القومية عقيدة ارضية واقليمية محددة ، على حين ان الأسلام عقيدة سماوية وكونية مطلقة . فالافغاني الذي يستفيض في علوم الدين والفقه الاسلامي ، يوصي هذه الامة بعدم التفريط بهذه الرابطة الاسلامية « هذه هي رابطتكم الدينية لا تغرَّنكُمُ الوساوس ولا تستهوينكَم

---

(١) الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني : الكتابات السياسية . دراسة وتحقيق محمد عمارة . المؤسسة العربية بيروت ١٩٨١ ، الجـ٢ ص ١٩ ، ٢٠ .

(٢) اسماعيل العرفي : مقالة في العروبة والاسلام ، دار الفكر ١٩٨٠ ، ص ١٤ ، ١٥ .

(٣) الزخرف آية ٤٤ .

التُّرهات ، ولا تدهشكم زخارف الباطل . . واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التي هي احكم رابطة ، اجتمع فيها التركي بالعربي والفارسي بالهندي والمصري بالمغربي»[1] ورشيد رضا الذي دعا الى بناء الدولة الاسلامية ، على التضامن الديني قد تنكر للشعور القومي وعدّه من نتاج الانظمة الجديدة ذات العلائق القَبلية التي طمسها الاسلام وقاتلها الرسول الذي لم يكن يوماً يهدف الى تعزيز مركزه الاجتماعي او تدعيم سلطة قبيلته . ولهذا عارض رشيد رضا العصبية التركية ، وطرحها القومي المتطرف . وعدّها معولاً لهدم الامبراطورية الاسلامية « كلنا يعلم انه لا يوجد في الدنيا كلها مكان يصلح لتأسيس دولة اسلامية ، تخلف الدولة العثمانية ، اذا وقع بها ما نخشاه عليها ، الا جزيرة العرب وما يتصل بها من البلاد العربية » [2] . اذا كانت الظروف القاسية التي اصابت المنطقة الاسلامية قد جعلته يبدل من مواقفه الدينية فإنه بقي ، ولفترة طويلة ، يعارض الطروح القومية ، ويتبرأ من وجودها ، ويقول عقب صدور الدستور أثناء زيارته للقطر السوري ، «فما رأيت فيها رأيت للنزعة الجنسية العربية حركة ، ولا سمعت فيها سمعت لها دعوة اللهم الا نثياً لداعية الجمعية العربية العثمانية »[3] .

وهكذا يتبين من كل ما تقدم ، ان دعاة هذا المفهوم قد ارتكزوا على مبدأ عالمية الدين (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين) ليبرهنوا ان رسالته الانسانية التي لا تعرف حدوداً وقوميات ولا تقتصر على منطقة ، ذات طابع شمولي وقيمة عالمية ونعتقد ان خطأ هذا الاتجاه ، كونه لم يفرّق بين الدين كمعتقد رباني يغمر البشرية عامة ، وبين الدين كسياسة ودولة ، يعترف بالقومية ويقر بخصائصها التي تميّزها عن غيرها ، دليلنا على ذلك ان الله قد خلق شعوباً وأمماً مختلفة (ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة) . وجعل قضية التبشير الديني والمساعدة المادية تبتدىء بالأقربين رحماً وجواراً ، واصبح الدين الاسلامي يعتمد على ثلاثة مفاهيم هامة : المفهوم الوطني والمفهوم القومي كون العرب ركيزة الاسلام وعصبته ، والمفهوم

(١) الاعمال الكاملة للأفغاني : الكتابات السياسية ج ٢ ص ٤٥ .

(٢) رشيد رضا : مختارات سياسية ص ٤٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٥٥

الاممي ، كون المسلمين يعملون للجامعة الاسلامية والانسانية جمعاء . ولم ينحصر الحديث عن روابط القومية العربية بالدين ، في رجال الفقه والعلم فقط : (الافغاني ورضا) . بل تعداهم ليشمل كبار السياسيين ، كنوري السعيد الذي تبوأ المناصب في العراق وربط في كتابه الأزرق « القومية العربية » بشعور الأخوة الاسلامية ، الذي أوصى به الرسول (ص) في آخر خطبة له واوضح انها تهدف الى بعث مدينة الخلفاء الراشدين ، والأمير عبد الله ملك الأردن ، في دراسته عن القومية العربية ، اعتبر ان الرابطة الاسلامية التي حكمت أمماً وشعوباً مختلفة لم تعد تجدي ، خصوصاً بعد بروز العنجهية التركية وظهور المفاهيم القومية والحركات الاستقلالية « إن اول مبدأ لحياة العرب السياسية ، انما هو الرضوخ للقرآن والسُّنّة، وطالما سلّم السلاطين العثمانيون بهذا المبدأ ، كان العرب راضين بحكمهم وان كانوا غير عرب ، لكنهم اذا تخلوا في القرن التاسع عشر ، عن مبادىء الاسلام ، واقتبسوا نظام حكم غربي لا يفقهونه ، انحل رباط الولاء العربي ، واخذ العرب يفكرون بحكم عربي يكون وفياً للاسلام من جديد »[1]. واذا كانت الظروف السياسية اجبرت رشيد رضا على قبول فكرة بناء الدولة العربية القومية والدينية المستقلة ، فإن المفهوم القومي الديني بدأ في كتابات زميله شكيب ارسلان ، فهو لا ينسى في مختلف الظروف واصعبها ارتباطه بالعثمانية ، حامية الدين ، كما لا ينسى ابداً عروبته والفخر بآبائه العرب :

مهما يكن من هنات بيننا فلنا ... معكم على الدهر عهد غير مقتضب
كفى الشهادة فيما بيننا نسباً ... إن لم تكن جمعتنا وحدة النسب
مجدي بعثمان حامي ملتي وأنا ... لم أنس قحطان اصلي في الورى وابي [2]

فشكيب وإن كان من كبار دعاة العروبة ، الا انه ظل حريصاً على عثمانيته المسلمة يعمل على عدم تمكين المستعمر منها ، لذلك رأيناه في الحرب العالمية الأولى تنكّر لموقف زعماء العرب الذين ايدوا الحلفاء، وينتقد الشريف حسين في خروجه على

---

(١) البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ص ٣٥٥ .

(٢) د . أحمد الشرباصي : شكيب ارسلان داعية العروبة والاسلام . دار الجيل بيروت ١٩٧٨ ص ٨٩

دولة الخلافة ، وينهاه عن قرار مقاتلة الاتراك المسلمين ، مؤكداً ان الخلاف مع الاتراك المسلمين لا يبرر اطلاقاً التعاون مع الأجنبي ويقول : « اتقاتل العرب بالعرب ايها الامير حتى تكون ثمرة دماء قاتلهم ومقتولهم ، استيلاء انكلترا على جزيرة العرب ، وفرنسا على سورية ، واليهود على فلسطين » (١) وقد أملت تصورات شكيب القومية الدينية عليه موقفه المبدئي ، المعارض للثورة العربية ، والذي اكدته وقائع الاحداث السياسية . فالملك فيصل كتب اليه رسالة اثر سقوطه عن عرشه في دمشق يؤكد فيها فضله في اخذ مبادرة الدعوة الى الوحدة العربية : « اشهد بأنك اول من تكلم معي من العرب في قضية الوحدة العربية (٢) ، والحاج امين الحسيني ، الذي عرف ارسلان جيداً قال عنه : « ان شكيب لم ينخدع في الحلفاء مع المنخدعين وكان يجاهر بهذا ويقول لمخالفيه : أنا اشدُّ عربية منكم ، ولكني اعلم ان الحلفاء سينكثون عهودهم وستظهر الحقائق لكم » (٣) ولكن ارسلان بعد ان رأى حكام تركيا يديرون ظهورهم للعرب والاسلام ، نفض يديه من العثمانية ، واخذ يدعو الى القضيتين العربية والاسلامية ، مؤكداً اهمية تلازمهما ، لان فقد الواحدة عنده ، يعني خسران الاخرى ، ويعد ارسلان احد السباقين في العصر الحديث ، الى تصور الوطن العربي ممتداً من الخليج العربي الى المحيط الاطلسي ، واحد المطالبين ايضاً بعروبة لواء الاسكندرونة العربية السورية ، وقد اكد اكثر من مرة ان ثقافة الامة العربية ، ثقافة اصيلة وان العرب من آراميين وفنيقيين وكنعانيين وعرب بربر شمال افريقيا . . هم جميعاً سبَّاقون في معرفة العلوم والفنون والاداب ، وليسوا مقلدين كما يدعي اعداء العروبة الشعوبيون . ولم ينفرد داعية العروبة والاسلام شكيب ارسلان بموقفه المعادي للشريف حسين والانكليز ، بل شاركه الشاعر العراقي معروف الرصافي ، بتحريض ابناء الوطن الاسلامي على الانكليز دفاعاً عن الارض المقدسة وذوداً عن وطن يقام فيه دين الله .

يا قوم ان العدى قد هاجموا الوطنا   فانضوا الصوارم واحموا الاهل والسكنا
واستنفروا لعدوّ الله كل فتى   ممَّنْ نأى في اقاصي ارضكم ودنا

---

(١) محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ج ٢ ص ١٢٥ .

(٢) أحمد الشرباصي : شكيب ارسلان داعية العروبة والاسلام ص ٩٠ .

(٣) المصدر نفسه ص ٩٣ .

واستقتلوا في سبيل الذود عن وطن به تقيمون دين الله والسُّننا [١]

وهكذا أخذ رجال النهضة ، كل حسب منهجه واتجاهه ، يتحدثون عن أوجه العروبة ويوضحون مضامينها الانسانية ، مؤكدين ان العروبة ، الموجودة قديماً ، قبل كل دين ومذهب ، والتي طبعت شعوب المنطقة بحضارتها الواحدة ، قادرة الآن ومن جديد ان تجمع شمل ابنائها على اختلاف مذاهبهم ودياناتهم .

عززت التطورات المتكررة مكانة القومية العربية ، واضحى الطرح العلماني ، الذي يفصل الدين عن القومية ، ويضع حداً لحيثيات الأزمات المفتعلة ، احد الاتجاهات الحديثة في النهضة . وقد اعتبر اصحاب هذا الاتجاه ، ان الخطأ في ربط القومية بالدين يكمن في كونه ينحاز لطائفة معينة ولا يخدم المجموعة الأخرى . وان العرب في يقظتها القومية ، لا تريد ان تكون قوميتها دينية ، لانها تثير التفرقة ، والبغضاء وتورث مفاهيم متعصبة وتخلق القلق والاضطراب . وكان للبنان ومصر ، المميَّزين في المنطقة فضل ريادة هذا الاتجاه . فاللبنانيون مثلاً ، وقد عانوا من النعرات الدينية والمذهبية ، وتربوا في المدارس الاجنبية ، كانوا السباقين في هذا المضمار ، فهم من اوائل من ادخلوا المفاهيم القومية العلمية الى المنطقة ، ونشروا مبادئها . وشجعت المؤسسات الاجنبية والدول الاستعمارية الغربية ، هذا الطرح العلمي للعروبة ، واخذت منذ ذلك الحين تختلق أحداثاً طائفية ، وتلفق احاديث كاذبة ، تشوّه بها سير كبار القادة المسلمين . كل ذلك من اجل تجريد العروبة من وجهها الحضاري والانساني الذي بلغ أوجه في الدولة العباسية . لكن رواد النهضة الذين تأثروا بالحضارة العربية الاسلامية ، انبروا يدافعون عن العروبة ويؤكدون ، انها في ظل دولة الاسلام ، لم تعرف تعصباً دينياً وطائفياً . وقد اثبت المؤرخون ان الفتوحات الاسلامية التي حدثت في عصر الخلفاء الراشدين ، بمشاركة الطوائف والمذاهب الدينية المختلفة ، قد اصطبغت بالهوية العربية ، والدليل موقف عرب الشام والعراق ومصر ، النصارى والاقباط مع العرب المسلمين ، برغم خلافهم الديني والمذهبي فيما بينهم واستطاعوا جميعاً ان يبنوا حضارتهم العربية الواحدة ، في ظل حياة انسانية كريمة .

---

(١) محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج ٢ ص ١٢٤

القومية واللغة :

أعاد بعض رواد النهضة الحديثة العروبة الى العامل اللغوي والعلاقة الحضارية. الثقافية التي تصهر ابناء الوطن على مختلف شرائعهم ودياناتهم في وحدة متجانسة ودولة واحدة ، واعتبر اصحاب هذا الاتجاه ـ فصل الدين عن العروبة ـ ان للدين مقاماً آخر وشأناً اخروياً ، كونه علاقة الانسان بالخالق . يحاسبه ويجازيه على افعاله واعماله ، وقد برروا دعوتهم هذه ، بما حدث في البلاد من فتن ومذابح دموية ، اودت بالبلاد ، وبحياة الألوف من الابرياء . خصوصاً بعد ان تأكد لهم ، ان بعض السياسيين الطائفيين يستغلون احداثاً سياسية او فكرية ليؤججوا الاقتتال المذهبي والنعرات الطائفية . فقد رأى انيس الخوري المقدسي ، في العامل اللغوي اهم باعث نهضوي للامة العربيةالتي تشمل ـ حسب المقدسي ـ المناطق التي يتحدث سكانها العربية . « اذا لم يكن الدين اعظم جامعة لسكان الاقطار العربية فأية جامعة هناك تقام مقامه ؟ اي قوة تستطيع ان تضم هذه الاقطار وتؤلف في كل منها وحدة قومية ؟ هناك قوة واحدة تستطيع ذلك ، هي اللغة »[1] .وقد عزّز طرح المقدسي قول آخر اكثر قوة وتأثيراً ، أتى من بلاد الهند ، مع رسالة عبد الحق الاعظمي الى مجلة « المنار » البيروتية والتي يطلب فيها تعميم اللغة العربية في العالم الاسلامي كله . وجعلها لغة التكلم والتعلم والتعامل ، ويركز على ضرورة حماية العنصر العربي الذي أعزّ الله به الاسلام فيقول : « فاذا غلب الاجانب ، العرب على امرهم . وانشبوا براثنهم في احشاء بلادهم ، فلا عاصم للامة بعد ذلك من أمر الله ولا ملجأ ولا منجاة لها من نوائب الدهر وغوائله »[2] .

لقد دافع عن العروبة ، رهط من ادباء ومفكري النهضة ، فالشاعر المهجري رشيد ايوب المتحمس لعروبته ، يراها اعجوبة الدنيا ، لما ميَّزها الله من عهد آدم بأهم الخصائص والصفات :

فنحن بنو العرب كنا ولم نزل   بما خصَّنا المولى نفوق الاجانبا

---

(١) المصدر نفسه : الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ص ١١٩ .

(٢) انيس المقدسي الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ص ١٣١

ألسنــا الأُلى ســادوا العبــاد ودوخــوا البــلادَ وأبْدوا في الحــروب عجــائبــا
فــما روتِ الايــام من عــهــد آدم الى اليوم عن شعب يفوق الاعــاربا [1]

وأثبت الاستاذ محمد جميل بيهم في كتاباته التاريخية ، انتماء مختلف المذاهب المسيحية من روم ارثوذكس وكاثوليك وموارنة الى عرب الغساسنة اليمانية ، واكد ان العنصرية العرقية أو الجنسية ، لا تصح معياراً للقومية ، وذلك بسبب اختلاط العناصر وتشابكها ، وذكر ان الناس في عصر التمدن الحديث ، يعتبرون اللغة القومية الأم ، الأساس الرئيس لوحدة الامة [2] . ونرى ايضاً الاستاذ ساطع الحصري في تحديده لمقومات القومية العربية يركز ـ وهو الذي لم يتقن العربية الا بعد انهيار الامبراطورية العثمانية ـ على هذا الاساس الموضوعي الذي « هو في نهاية الامر ، وقبل كل شيء آخر ، اللغة » [3] . وقد اجاز كثير من أدباء ومفكري النهضة الحديثة ، من خلال هذا المفهوم اللغوي للأمة إطلاق لفظة الشعوب العربية ، بدل الشعب العربي ، وذلك لنطقهم بهذه اللغة الجامعة التي صهرتهم جميعاً وجعلتهم امة واحدة ، اما الافغاني الذي عرفناه ، علماً من اعلام الجامعة الاسلامية ، فقد اعطاها منزلة عالمية ، في حديثه ، عن مقومات القومية العربية واعتبرها معياراً اساسياً لتحديد الذات والهوية القومية ، فهي شريان الأمة ، وأقنوم الحضارة وقبلة الفخر والولاء ، ولو اضاعت امة لسانها ، لفقدت تاريخها وحضارتها .

وهكذا اظهر رواد النهضة ان العروبة ليست عرقاً ولا نسباً ولا فطرية ، وانما هي لغة وحضارة تكتسب خصائصها من المجتمع الذي يعيش فيه انسانها . فأهالي مصر ، تعربوا في فترة وجيزة وصار المسلم والمسيحي واليهودي فيها يذكرون ولاءهم للعروبة ، قبل ان يذكروا جامعتهم الدينية .ويؤكد التاريخ ان الجيوش العربية ، التي قامت بفتح بلاد الشام بقيادة ابي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ، لم تلق مقاومة المسيحيين الغساسنة ، بل على العكس فقد وقف هؤلاء الى جانب اخوانهم العرب المسلمين ، وخطبوا ودّهم غير مكترثين للرابطة الدينية التي تربطهم بالروم ، وان

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣٣ .

(٢) محمد جميل بيهم : عروبة لبنان ـ دار الريحاني ، بيروت ١٩٦٩ ص ٧٣

(٣) البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ص ٣٧٣ .

نصارى القدس العرب ، وبفضل الرابطة اللغوية ايضاً،ساندوا القائد صلاح الدين الايوبي ، ضد الأوروبيين المسيحيين . وفي العصر الحديث قاتلت جماهير الشعب المصري بمختلف اديانها ومعتقداتها ، الاستعمار الغربي ، الفرنسي والانكليزي واجبرته على الجلاء عن البلاد . وفي لبنان ، ندّد العرب من ساسة وأدباء ومفكرين ، بمجزرة ١٨٦٠ الطائفية التي افتعلها الاستعمار ، وكشفوا مخططاته ، مؤكدين القاسم المشترك لعروبة جميع الناطقين بالضاد ، فعبد القادر الجزائري ، بطل المقاومة في الجزائر ، قام بحماية نصارى هذه الفتنة في دمشق وأوضح ان العروبة الحق ، لا تعرف تمييزاً وتفرقة وقال : « ان اصحاب الاديان الثلاثة يشبهون ثلاثة اخوة من ثلاث أمهات » آخت بهم الحكمة الربانية ودفعت عنهم بواعث البغضاء والكراهية . وقد بيّن الرسول العربي ، زارع اول بذرة قومية ، منزلة اللغة من القومية ، عندما ناشد قومه قائلاً : « ايها الناس إنَّ الربّ واحد والأب واحد وليست العربية باحدكم من أب ولا ام ، وانما هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي»[1]. فاسماعيل بن الاعجميّين اصبح عربياً عندما فتّق الله لهاته بهذه اللغة ، وفطره على الفصاحة وسلخه من طبائع العجم . والكواكبي الذي ايد مسعى الافغاني في مطالبته الأتراك والسلطان عبد الحميد الثاني بالتعرب ، ضنّاً بالامبراطوريه وصوناً للاسلام ، نراه في غمرة القومية ، ودعوته الى الوحدة الوطنية ، يتجاوز استاذه الافغاني ويناشد العرب انتزاع السلطة من الاتراك ، واعطاء الخلافة الى قرشي ، يعرف اللغة العربية وعلومها [2] . وهو اذ يطلب الثورة على الاتراك ، فلأنهم اذلّوا العرب وحطّوا من شأن عروبتهم « يا قوم جعلكم الله من المهتدين ، كان اجدادكم لا ينحنون الا ركوعاً لله وانتم تسجدون لتقبيل ارجل المنعمين ولو بلقمة مغموسة بدم الاخوان ، وأجدادكم ينامون الآن في قبورهم مستورين اعزاء ، وانتم احياء معوجّة رقابكم اذلاء » [3] . وقد اثبت الاعلام الكبار ان عزّة العرب كانت تعود دوماً الى سياسة الحكام الرشيدة التي لا تعرف تمييزاً ولا تعصباً ، يقول

---

(١) محمد عمارة : الاسلام والوحدة القومية . المؤسسة العربية بيروت ١٩٧٩ ص ٦٠

(٢) سليمان موسى : الحركة العربية ص ٢٣

(٣) سامي الكيالي : الادب العربي المعاصر في سورية . المعارف ، مصر ص ١٢٦

الطهطاوي : « ان الملوك اذا تعصبوا لدينهم وتدخلوا في قضايا الاديان فإنما يحملون الرعيَّة على النقاق » (١) كصنيع محمد عبده الذي حمّل هؤلاء الحكام مسؤولية ما يجري في المنطقة من احداث سيئة نتيجة تلاعبهم بالدين ، وتحريفهم لنصوصه : « ان السبب فيما نرى الآن من تباين بين المسلمين واهل الكتاب هو سياسة الملوك والرؤساء » (٢).

القومية العربية والعلمانية :

وازاء تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية وخطورة الطروح الطائفية والمذهبية التي طغت على توجهات بعض الفئات المتعصبة ، دعا بعض مفكري النهضة ممن استهوتهم النظريات الأوروبية والافكار الليبرالية الى مبدأ علمنة الدولة ، وفصل الدين عن النظرية القومية معتبرين ان تقدم الامة وبعث نهضتها يتوقفان على نشر المفاهيم العلمية ، وحصر المؤسسات في دور العبادة، ومع اقرارنا بالدور البناء الذي لعبه اصحاب هذا الاتجاه ، فإنّ هذا الأخير ظل مرتبطاً بالدور الأوروبي ، لأن غرض اوروبا الحقيقي من ورا دعم وتنشيط هذا الاتجاه ، لم يكن من اجل نهضة هذه الشعوب وتقدمها ، بل من اجل تفكيك عراها والهيمنة عليها . وقد اثبت التاريخ خطل ادعاءات اوروبة واظهر ان الدين في مختلف المجتمعات والعصور ، لم يكن معزولاً عن تطلعات الحركات النهضوية . ألم تبدأ نهضة اوروبة نفسهافي القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، في ظل سيطرة الافكار الدينية والتمسك الشديد بالدين ؟ اذا كان البعض يعتقد ان نهضة تركية تفجرت بفضل حركة مصطفى كمال الليبرالية ، والمتأثرة بالنهج الأوروبي فإن اعتقادهم يحتاج الى إعادة نظر لأن تركية اليوم تعاني،رغم العلمنة ، من مختلف وجوه التخلف والاضطراب ، بينما كانت في عصورها الاولى والوسيطة ، أثناء سيطرة العنصر الديني على مؤسسات الدولة وتوجهات السياسة ، من اقوى دول المنطقة. ألم تزدهر الامة العربية ، في عصورها الاسلامية ؟

الم تتميز عن غيرها بعلومها وحضارتها وبمعاداتها للظلم ، وبناء دولة الحرية والتقدم ؟

(١) محمد عمارة : الاسلام والوحدة القومية ص ٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٩

رغم هذه الشواهد البيّنة فقد وقف بعض اعلام النهضة ، ممّن اساءت اليهم سياسة الأتراك ، ونكلت بهم ، يدافع عن المفهوم العلمي والمادي ، ويجتهد في رفد القومية العربية بأفضل القيم والمعاني الانسانية . ويُعْتبر المفكر العربي نجيب العازوري على حد قول بعض المؤرخين ، الوحيد الذي طرح العروبة على اساس علمي حديث إذْ تخطّى الروابط الدينية كليًّة ، وصفّى الدعوة العربية ، والنزعة القومية من العناصر الدينية . ولعل العازوري ذا التربية الفرنسية ، قد نجح في نقل يقظة العرب القومية الى الفرنسيين ، كما اثر في نمو الحركة العربية ، وقد فضح العازوري تحركات اليهود الصهاينة في فلسطين ،فدعا الى التصدي لمخططاتهم المشبوهة،الامر الذي اضطر السلطات العثمانية الى اصدار اوامرها الى متصرف القدس ، بمنع تمليك المهاجرين اليهود الأبنية والأراضي ، خوفاً من اثارة المشكلات الدائمة في الاراضي المقدسة . لقد عبّرت يقظة العازوري ، في عقدها الثاني من القرن العشرين ، عن طموحات الحركة العربية الثائرة ، المطالبة بالاستقلال الكامل عن الاتراك ، وحملتهم مسؤولية تدهور الأوضاع في المنطقة العربية . فدعا الى اقامة دولة عربية مستقلة ، في العراق وسورية ولبنان وفلسطين يكون اسلوب الحكم فيها دستورياً مبنياً على المساواة التامة بين المواطنين . وفي الحقيقة ، يعود طرح هذا المفهوم التوحيدي الجزئي للامة العربية ، الى سبعينات القرن التاسع عشر وصيحات بطرس البستاني الوطنية والقومية ، التي اكدت وجود شعور قومي،يضم اجزاء من الامبراطورية : « ان الامبراطورية هي وطننا ، لكن بلادنا هي سورية » وتشمل جميع اجزاء سورية الجغرافية الممتدة من جبال طوروس الى صحراء سيناء . ومنذ ذلك الوقت بدأ اسم سورية يحتل مركزاً هاماً في المحافل السياسية ، ولعل نشأة هذا المصطلح ـ التسمية ـ يعود الى متخرجي مدارس الارساليات الاميركية ، من ارثوذكس وانجيليين ، وقلة من المسلمين والدروز ، الذين رأوا ان استقلال لبنان يعني في تلك المرحلة ، هيمنة النفوذ الفرنسي ، ولذلك عملوا على دمجه في هذه المنطقة تخلصاً من وضع الاقليات والارتماء في احضان الدول الكبرى . وكأن العازوري الذي خلّده موقفه العروبي ، بمطالبته بتوحيد الكنائس الكاثوليكية المتعددة والمتنابذة ، تحت اسم الكنيسة الكاثوليكية العربية ، وتعريب لغتها وطقوس عبادتها ، لم يستطع ان يستوعب امتدادات الشعب العربي وسعة اراضيه ، فعزل مصر

وبلاد شمال افريقيا والمغرب عن جسم الامة العربية ، معتبراً ان الاتجاه القومي في هذه المناطق ، وخاصة في مصر ضعيف ، وان التضامن الديني فيها لا يزال القوة الوحيدة القادرة على تحريك الرأي العام . أما ساطع الحصري الذي ايد العازوري في فصل الهوية القومية عن الدين ، وعارضه في سلخ مصر عن عروبتها ، فقد دعا الى ضرورة عودتها الى أصالتها العربية التاريخية، خصوصاً وان الطبيعة كما يقول : « زوّدتها بكل الصفات والمزايا التي تحتم عليها ان تقوم بواجب الزعامة والقيادة في انهاض القومية العربية » .

وهكذا اخذت المفاهيم القومية تترسخ في اذهان الجماهير العربية وبدأ الرواد يواجهون بها التيارات الاقليمية والعالمية ، مؤكدين ان هذه القومية ليست عقيدة او فكرة طارئة، تجاوبت مع حركة الاستقلال والنهضة القومية ،بل هي وجود حيّ خلّاق ، متفاعل مع الظروف. واضحت اليوم تلبي تطلعات الانسان العربي بمختلف فئاته وطوائفه وتطرح قضاياه الانسانية .

الفصل الثالث

الحرية في فكر النهضة وأدبها

تعتبر قضية الحرية من اهم القضايا التي شغلت ادباء النهضة ومفكريها . وقد يكون مفهوم هذه الحرية من اغنى المفاهيم الفلسفية ، واكثرها غموضاً واثارة للاهتمام . خصوصاً بعد أن تسربت افكار ومبادىء اجتماعية وانسانية في كيان المجتمعات العثمانية والعربية . وقد أدى الانفتاح على دول العالم المتمدن ، والتقدم في وسائل الانتاج والعلاقات المجتمعية الجديدة الى التعرف على مختلف انواع الحريات ، من فردية اعتنت بالشؤون الذاتية والشخصية ، او مدنية استأثرت بتقدم الإنسان وتطوره ، او سياسية اهتمت بتأمين قوانين تصون الحقوق العامة . ونفهم بالحرية : « تلك الملكة الخاصة التي تميّز الكائن الناطق من حيث هو موجود عاقل ، يصدر في افعاله عن ارادته هو ، لا عن اية ارادة اخرى غريبة عنه » [1] وتكون بصورة اوضح ، عبارة عن قدرة الإنسان على فعل الشيء الذي اختاره ، عن روية ودراية ، دون اي ضغط او قسرٍ خارجي . ويمكن ان نميّز بين نوعين من الحرية : حرية التنفيذ ، وحرية التصميم ، او ملكة الاختيار LaFaculté de Choisir ويفهم من حرية التنفيذ ، المقدرة الذاتية الكاملة على فعل الشيء او الامتناع عنه . أما حرية التصميم ، فعبارة عن ملكة الاختيار ذات الدوافع العقلية كالأعراف الاجتماعية ، والبواعث الوجدانية كالأهواء والنزعات

(١) د زكريا ابراهيم : مشكلة الحرية . دار مصر للطباعة ١٩٧١ ص ١٨٥

الخاصة ، التي توجب فعل الشيء أو الامتناع عنه . ونحن في محاولة التعريف بجذور الحرية ، نلفت النظر ، الى انها ليست شيئاً ملموساً ، يمكن تحديد مميزاته ، بل هي حياة تعاش ، واثبات للشخصية ، وتقرير لوجود الإنسان . وإذا كان الحديث عن الحرية ، لا يفتأ يتردد صداه منذ وجود البشرية ونشأة المجتمعات المتمدنة ، كقول الخليفة عمر بن الخطاب المأثور : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً » ؟ فإنه من دواعي الأمور وبديهيتها احتفاء جهابذة العلم بهذا الموضوع الهام . فالفيلسوف الغربي « هوبس » عرّف الحرية بغياب المانع ، وغياب معارضة ما يمنع حركتها[1] ، وقال جان جاك روسو عنها في هتافه الشهير الذي شكل منطلق فكرة العقد الاجتماعي : « يولد الإنسان حراً ، ولكنه في كل مكان مقيد بالحديد » [2] . وقال ايضاً منددأ بالحكام والمسؤولين الذين يقمعون الأفواه الحرة باسم التقاليد والأراجيف الكاذبة : « ان عنف الأمهات في شد ولدهم باللفائف والأقمطة ، يضعف منهم الأعصاب . . . واين هذا العنف مما يرتكب الذين يشدون العقول بلفائف الأوهام حتى تضعف بل تتلف أعصاب الأذهان والأفهام » ؟[3] كل ذلك شكل البدايات الأولى في النهضة للتحدث عن الحرية والمطالبة بها .

هذه الحرية التي عرفها العربي لفترات طويلة ، وافتقدها اخيراً في ظل الدولة العثمانية ، اتهمت من قبل حكام القرن التاسع عشر وما يليه بالهرطقة تارة ، وهدم الحياة وقيمها تارة اخرى . لكن هذه التهم المؤيدة من كبار رجال الإقطاع والرأسمال والدين لم تستطع ان توقف سير تطور التاريخ المحتوم . فسرعان ما اندلعت الانتفاضات والثورات في البلاد العربية ، تطالب الدولة العثمانية بالحرية والاستقلال . وارتفعت اصوات اعلام العرب ، خاصة بعد نجاح الثورة الفرنسية ، تندّد بالقوانين الجائرة ، والقيود المصطنعة ، وتدعو الى حق الإنسان ، مهما كان

---

(١) برتران دوجوفينيك : بدايات الدولة الحديثة : ترجمة مصطفى صالح . وزارة الثقافة دمشق ١٩٨٤ ص ١٧٠

(٢) رئيف خوري : الفكر العربي الحديث ، دار المكشوف بيروت ١٩٧٣ ، ص١٨١

(٣) أديب اسحق الدرر . دار مارون عبود بيروت ١٩٧٥ ص ٢٧٠

مستواه ، في التعبير عن حرية الرأي والاجتماع والتملك والسياسة ، واصبحت الحرية محوراً رئيساً لكتابات النهضة التي ساهمت نصوصها في تعريف العقول على كيفية مواجهة استبداد الأنظمة الجائرة وتقليص القوانين التي تحدُّ من حرية الإنسان وسعادته . وبات المثقفون العرب الذي تذوقوا طعم الحرية ، من خلال اطلاعهم على مختلف الدراسات القديمة والحديثة ، يؤكدون ان الحياة في دولة الظلم والاستعباد ، المفتقرة لبنود حقوق الإنسان ، هي موت وهلاك ، وأن الحرية التي يحميها قانون عادل تحقق العزة والكرامة . وقد اشار هؤلاء الى أهمية التأمل بمعاني الحرية ، فألمحوا الى مكانتها في العالم المتمدن ، مشيدين بالحرية التي كلما ازدادت دراسة وتفهماً لواقع الحياة ، ازدهر الوطن وتحسن حال المواطن . وقد صدق احد الحكماء حين قال : « ان العقول البشرية متى بلغت مبلغاً عظيماً في فهم المعارف المعاشية ، اتسعت في المعاملات ، وتشبثت باختراع ما يعين على المنافع العمومية من الأدوات والآلات »(١) . واعتقد ان مثل هذه المنافع ، لا تتوافر إلا بوجود قانون عادل عام ، يؤمن بالحريات العامة والخاصة ، ويحرص على استلهام نصوصه من تطلعات المواطنين وأمانيهم . وهذا ما ألمح اليه رفاعة الطهطاوي الذي يعد من أوائل من تحدَّثوا عن الحرية في القرن التاسع عشر ، وحاولوا ترسيخها في الدولة الحديثة ، وذلك عندما تحدث عن أثر حماية القانون للحرية : « إذا كانت الحرية مبنية على قوانين حسنة عدلية ، كانت واسطة عظمى في راحة الأهالي واسعادهم في بلادهم ، وكانت سبباً في حبهم لأوطانهم »(٢) .

وإذا كان الطهطاوي قد عرَّف الحرية برخصة العمل المباح ، وتصرف المرء في نفسه ووقته وشغله كما يشاء ، لا يمنعه في ذلك إلا مانع محدود بالشرع او القوانين السياسية ، فإن أديب اسحق تغنّى بها ، ووصف عذوبة الموت في نسيم هوائها ، ورآها مورداً صافياً للعاشق الظمآن ، ومأمناً واقياً للخائف ثم حدد خصائصها بـ « ثالوث موحَّد الذات ، متلازم الصفات ، يكون بمظهر الوجود فيقال له الحرية

---

(١) الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي . دراسة محمد عمارة ج ٢ ص ٤٧٦

(٢) محمود فهمي حجازي : اصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي . الهيئة المصرية ١٩٧٤ ص ٦٤

الطبيعية ، وبمظهر الاجتماع فيعرف بالحرية المدنية ، وبمظهر العلائق الجامعة فيسمّى بالحرية السياسية »(١) . وأضاف الطهطاوي على هذا التعريف ، حرية العقيدة الدينية ، أي حرية المذهب والمعتقد ، معتبراً إياها عماد الوحدة الوطنية . وقد حذّر الطهطاوي من عاقبة التدخّل في الحرية الدينية ، وإكراه الناس على اعتناق مذهب أهل السلطة والنفوذ ، تقية للنفس ، وحماية للمصالح . فقال : « إن الملوك اذا تعصبوا لدينهم وتدخلوا في قضايا الاديان ، وارادوا قلب عقائد رعاياهم المخالفين لهم فانما يحملون رعاياهم على النفاق »(٢). وقد ايد رواد النهضة هذا المفهوم واعلنوا رفضهم للتعصب الديني وللنعرات الطائفية ، التي ، لأسباب سياسية واستعمارية ، استغلت لتمزيق وحدة البلاد ، وجعلها فرقاً متعادية ومذاهب متباغضة . ولذلك دعوا الى حرية المعتقد ونادوا بالدين الإنساني الموحَّد ، متسائلين عن الحكمة من بغض الإنسان لأخيه الإنسان ، لمجرد انه رفض معتقده الديني الذي ـ حسب ظنّه ـ سينجيه من النار . ويضيفون « أما كفاه قصاصاً ما سيلاقيه من عذاب الآخرة لرفضه اعتناق عقيدتي »(٣) . وكذلك الأديب المهجري أمين الريحاني الذي يضج ادبه بروح إنسانية متسامحة ، لا يعرف من الدنيا الا السماحة والأعمال الخيرة ، نراه يتساءل في حيرة : « أليس في وسع المرء ان يعيش في هذا العالم دون أن تطبع روحه بطابع الملة وتصبغ بصبغة الطائفية » ؟ (٤) .

لقد كان مفهوم الحرية الدينية عند الطهطاوي ، ومفهوم « ثالوثها الموحد » عند اديب اسحق (الحرية الطبيعية والحرية المدنية والحرية السياسية) نقطة انطلاق ادباء النهضة ومفكريها ، للتعمق في بقية ابواب الحرية ومواضيعها . واذا كنا قد تحدثنا عن الحرية الدينية ، فمن المنطق توضيح انواعها الأخرى . فالحرية الطبيعية هي تلك الخصائص والمميزات الفطرية والغريزية ، كالأكل والشرب والمشي ، التي لا

---

(١) اديب اسحق : الدرر ص ٢٦

(٢) غالي شكري : النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث . دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٨ ص ١٥٤

(٣) أنيس المقدسي : الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ، ص ٢٨٤

(٤) المصدر نفسه ٢٨٥

قـدرة للإنسـان على دفعهـا ، ولا تسبب أي ضرر لـلآخرين . والحـريـة المـدنيـة هي مجمل حقوق البشر ، المتعاونـين لتعزيـز كيانهم الإنسـاني والعمراني . وقـد اطلق عليها الطهطاوي في كتـابه « منـاهج الألبـاب » مصطلح الحقـوق المدنيـة . وقال في تعـريفها هي حقوق أهالي المملكة الواحدة ، بعضهم على بعض ، الناشئة من « ثمـرة التعاهـد بينهم لحفظ أمـلاكهم وأموالهم ومنـافعهم ونفوسهم وأعـراضهم ومـا لهم ومـا عليهم ، محافظة ومدافعة[1] .

وهكـذا أظهـرت هـذه الحقـوق ، العـلاقـة المصلحيـة التي تـربط المـواطنـين ، بعضهم ببعض ، من جهـة ، وأوجبت تأديـة الحقوق الشخصيـة ، من جهة اخـرى ، حفاظاً على حرية المجتمع وتقدمه . امـا الحريـة السياسيـة التي عرفت في البـداية عنـد الـطهطاوي بـالأحكام القـانـونيـة التي تصـون أمن الـدولـة ، وتحمي حق المـواطن في التصرف بأملاكه كيفما يشاء ، شريطة عـدم الإخلال بحـرية الأخـرين ، فقد اتسمت بطابع سياسي ، واستأثرت بالحيـاة النيابيـة الدستـورية ، وحكمهـا الديمقـراطي الذي جعل المواطنين رقباء على القوانـين الإدارية والتشـريعات السيـاسية . وفي هـذا الإطار نزعت خطب مصطفى كامل ومواقفه السياسيـة ، في المقام الأول ، الى اعـلان مبادىء الحرية السياسية ، وتشكيـل مجلس نواب مصـري يحدد صـلاحيات سلطات الـدولة . وهـو في مطالبتـه ، مراقبـة الشعب لتسيير امـور الدولـة ، اعتبـر في مقـالتـه « اشتـراك الشعب في حكم نفسـه سبب الرقي » ان الشعب هـو القوة الـوحيـدة الحقيقـة ، وهـو السلطان الذي يخضع لإرادته اكبر العظماء واعظم الأقوياء »[2] .

الإسلام والحرية

وفي هذا المقام ، ردّ أدبـاء النهضة عـلى دراسات المستشـرقين الـذين نفوا وجـود كتابات إسلامية في مـوضوع الحـرية ، فـأشاروا الى ان الإسـلام والأحاديث النبـويّة ، كانت دوماً الى جانب الحريات ، وان الدراسـات الإسلاميـة لمدرسـة الاعتزال (اهـل

---

(١) د . محمود فهمي : اصول الفكر الغربي ص ٥٩

(٢) رئيف خوري : الفكر العربي ص ٣١٠

العدل والتوحيد) قد اعطت بحوثاً متنوعة حول حرية الإنسان . ولعلّ الالتباس ناشيء عن ان هؤلاء استعملوا مصطلح « الاختيار » بدل كلمة الحرية ، مقابل الجبر الذي دلّ عندهم على انتفاء حرية الإنسان والانقياد القسري لمشيئة قوة قاهرة . والقرآن الكريم كثيراً ما أبان عن هذا الموقف المؤيد للحرية ، كقوله تعالى : ﴿ ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ (١) . وقوله : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا ﴾ (٢) ، اي الذين ظلموكم واعتدوا على حريتكم ، عندئذٍ فقط ، قد حق لكم مقابلة اعتدائهم باعتداء مماثل . وقوله تعالى ﴿ ولو شاء ربك لآمن منْ في الأرض كلهم جميعاً . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ يونس آية ٩٩ . هنا تظهر عظمة الدين وسعة نظرته السمحة . فالاستفهام الإنكاري في « أفأنت » يفيد نفي الاكراه على الإيمان . وقد أكد رواد النهضة ، حرية الاعتقاد وحق اختيار المذهب الذي يصطفيه الإنسان ، وألحوا الى حق نشر الدعوة عن طريق الإقتناع والمجادلة الحسنة ، انطلاقاً من أهمية نشر الرأي الجيد بين الناس كافة . ومن أجل ذلك أورد هؤلاء ، تأكيداً لفكرة ارتباط الحرية بالاختيار في الإسلام ، اقوالاً للرسول (صلعم) والخلفاء والفقهاء ، تثبت صحة وصف حالة الاستبداد بالنظرية الجبرية . ولا أدل على ذلك من تسمية العرب ، الحُكْمَ الجائر « بالجبرية » والحاكم بالجبار . وقول الرسول للرجل الذي ارتعد في حضرته : « هوّنْ عليك ما أنا بملك ولا جبار » (٣) . ومثله قول علي بن ابي طالب وهو يحث انصاره لقتال معاوية (الجبار) واتباعه (الجبارين) : « سيروا الى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين » . ومن هؤلاء الرواد الشدياق الذي وعى عواقب استغلال العنصر الديني والمذهبي من بعض الفئات والعناصر الوصولية ، حيث طلب من الدولة والمسؤولين فيها ، رفض فكرة استئثار مذهب او معتقد ، ناصحاً بالابتعاد عن فرض اي معتقد ، خوفاً من فقدان ثقة الرعية ، وذيوع النفاق . لكن هذا لا يعني ان الشدياق قد تنكر لفاعلية الدين وتأثيره في الدولة والمجتمع . فهو وان اعتقد أنه أمر وجداني ، وقناعة

---

(١) سورة النحل آية ١٢٥

(٢) سورة العنكبوت آية ٤٦

(٣) محمد عمارة : نظرة جديدة الى التراث ص ١٠٧ .

ذاتية لا يجوز لأي كان التدخل فيها ، فإنه أيّد تديّن الـدولة والـرعايـا بالـدين الواحـد الحق ، إعتقاداً منه ، ان هؤلاء متى تحلوا بالفضائـل الدينيـة واستحضروا خـالقهم في خلواتهم السرية والعلنية امتنعوا عن ارتكاب الأعمال الشريرة .

الاستبداد والحرية

وهكـذا ايقن الرواد أن الـدين الذي آزر الحـرية واعـطاها مقـاماً رفيعـاً في حياة الشعـوب لا يمكن له ان يـوافق على الحـالة الاستبـدادية التي تعيشهـا المنطقـة العربيـة آنـذاك . فعبد الـرحمن الكواكبي أحـد أكبر دعـاة المبادىء الـديمقراطيـة ، خصّ اكثر دراساته الأدبية والسياسيـة للتكلم على هـذا الأخطبـوط الذي كيفـما تلوّى نراه يكـوي بأنفاسه المحرقة الشعوب الهادئة ، ويقتل الأنفس البريئـة . ولهذا دبـج الكواكبي بحق الاستبداد والمستبدين اقـوى المقالات النـارية ، ووجـه نقداً لاذعـاً للحكم الاستبدادي المعادي للحريات ، مؤكداً ان الاستبداد غريب عن البلاد العربيـة ، ولا يتماشى مـع أخـلاق العـرب وعـاداتهم الكـريمـة . وقـد انبـرى في هجـومـه عـلى ادعـاءات « الدستوريين » المزيفة ، واصحاب نظريات انصاف الحلول ، ينافـح عن الديمقـراطية الحقيقية ، ويعرّي دولة الاستبداد الـظالمة قـائلاً : ان الحكـومة من اي نـوع كانت لا تخـرج عن وصف الاستبـداد مـا لم تكن تحت المـراقبـة الشـديـدة والمحـاسبـة التي لا تسامح فيها »[1] . وقد اقتضت دعوة الكواكبي الى الحرية ، محـاربة الاستبـداد وابراز مسـاوىء عيوبـه . وكان اهم مؤلف صـدر بهـذا الشـأن كتـابـه « طبـائـع الاستبـداد ومصارع الاستعباد » وكان أجرأ ما كتب في الدعوة الى الحرية والحياة النيـابية في هـذه المرحلة . يقول واصفـاً آثـام المستبـد وشـروره : « المستبـد يتحكم في شؤون النـاس وبإرادتهم ، ويحاكمهم بهواه لا بشريعتهم ، ويعلم من نفسـه أنه الغـاصب المعتدي ، فيضع كعب رجله على افواه الملايين من الناس ، يسـدها عن النطق بالحق والتـداعي لمطالبتها »[2] . وهو خير من ربط استبـداد الحاكمـين بحالـة البلاد المتخلفـة ، واشار

(١) رئيف خوري : الفكر العربي ص ١٩١ .

(٢) غـالي شكري : النهضة والسقوط ص ١٧٠ .

بوضوح الى أن علّة القوم ، وتواكلهم يعودان الى هذا الأخطبوط الذي أفسد العلم والأخلاق والدين والسياسة والإدارة والروابط الاجتماعية . وعن أثره في افساد الأخلاق مثلاً ، يؤكد انه يفقد ميزة الإنسان الرئيسة : الإرادة التي يسميها البعض بالناموس ويقول : « ومن اين لأسير الاستبداد ان يكون صاحب ناموس وهو كالحيوان المملوك العناق ، يقاد حيث يراد ، ويعيش كالريش ، يهب حيث تهب الرياح لا نظام ولا ارادة ؟ »[1] . ومما يقوله عن اثر الاستبداد في فساد الإدارة ، من اكبر موظف فيها الى اصغره : « الحكومة المستبدة تكون طبعاً مستبدة في كل فروعها ، من المستبد الأعظم الى الشرطي الى الفرّاش الى كناس الشوارع . . . »[2] . وقد أوضح الكواكبي درجات هؤلاء المستبدين في البنية الاجتماعية ، فقدم بالضرورة ، المستبد الحاكم ثم وزراءه المشاركين في آثامه وأوزاره . . . وهكذا تكون مراتب لؤمهم حسب مراتب « تشريفاتهم » . والكواكبي يحذر فئات الشعب باليقظة وعدم الأخذ بأقاويل أو تأفف بعض الوزراء والقواد من الاستبداد ، وتشدقهم بالاصلاح ، لأنهم ـ حسب اعتقاده ـ عاشوا حياة الذل وخنعوا للأوامر التعسفية ، ولا رادع لهم ، وجدانياً او تربوياً ، يصونهم مما شابوا عليه . فيقول مخاطباً المسحوقين : « كيف يجوز تصديق الوزير والعامل الكبير ، إنه يريد إلقاء سيفه لتكسره ، وهو قد الف عمراً طويلاً لذة البذخ وعزة الجبروت ، وهو من تلك الأمة التي قتل الاستبداد فيها كل الأميال الشريفة العالية » ؟ [3] . أما عن اثر الاستبداد في الدين فنراه يشبهه بريح صرصر ، يشلّ جدلية الدين ومكارمه الخلقية ويفرّغ محتواه ويجعله عبارات مجردة وعادات لا تغني ولا تفيد [4] . والكواكبي الذي صور بشاعة الاستبداد ، قدم حلاً للخلاص منه ، لا يتوافق ـ على ما أظن ـ مع ضخامة الأحاديث التي تناولت سوءاته . فقد آمن بالحل السلمي خلاصاً للمعذبين منه ، معتقداً أنه ـ لمجرد شعور المستبد بيقظة الشعب ، يندفع تلقائياً لإصلاح

---

(١) علي المحافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب ص ١٧٢

(٢) المصدر نفسه

(٣) عبد الرحمن الكواكبي : طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، مطبعة الرحمانية ، القاهرة . ص ٤٧

(٤) محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر . ص ٢٦٨

شؤون دولته . لكن هذا لم يمنع الكواكبي من ان يؤيد ، ولو بحماس اقل ، العنف الثوري والانقضاض على المستبدين ، لما تسببه الانتفاضات من تضحيات . أما أديب أسحق فقد تعمّق في باب الاستبداد ، فرآه في المجتمعات البورجوازية والليبرالية يتقمص وجه الحرية ويتغنى بالعدالة . وقد أدخل الرياء في الإخلاص، والعسف بالاستقامة والشورى ، جاعلاً من أهل « الندوة » ومجلسها التشريعي مطية لتنفيذ رغباته والموافقة على اوامره المستبدة . وحسبنا ان السلطان عبد الحميد الثاني ، ومعظم الملوك والأمراء الذين تولوا السلطة آنذاك ، كانوا ينفذون سلطتهم المطلقة ، بالرغم من وجود القوانين الدستورية الشكلية . ناهيك مثلاً بنابليون امبراطور فرنسا ، الذي اتى بعد اضخم ثورة في القرن التاسع عشر ، كان يتصرف في حياة الفرنسيين ، ويتلاعب بمصيرهم واموالهم كما يشاء ، دون سخط من مجلسه « الديمقراطي » . ولا نبالغ اذا قلنا ان بعض الجرائد ، وفي بلاد « الحرية » كانت ولا تزال تطالعنا عناوينها الرئيسة بأن الحرب والسلام بيد حفنة من السياسيين ، وان احدهم يغيّر هيئة الكرة الأرضية بكلمة . ولهذا صرخ اسحق مرة ، قائلاً : ان استبداد الملوك في الأزمنة السالفة ، تحت سيطرة الأفكار الخيالية ، ليس بأعظم من استبداد ملوك اليوم في بلاد المعرفة ، تحت سماء التمدن في القرن التاسع عشر[1] .

المثقفون والحرية

. اذا عرفنا ان العربي قد عاش عصوراً طويلة ، معتزاً بحريته الشخصية ، مضحياً بالمهج في سبيلها . فمن الطبيعي ان نتفهم ثورته في القرن التاسع عشر ، صد مغتصبيها العثمانيين ، الذين قيدوها بسلاسل حديدية ، وذلك من أجل اعادة مجده ودوره في ركب الحضارة الإنساني . وقد لاقت مبادىء الثورة الفرنسية (حرية ، مساواة ، إخاء) التي تسربت الى البلاد العربية عبر مختلف القنوات الاجتماعية والسياسية والثقافية ، تأييداً قوياً من المثقفين العرب الذين حاربوا الظلم والاستبداد ، ونادوا بالحرية والمبادىء الديمقراطية . وقد أخذ الأدباء يسطرون اقوى المقالات المنددة بالاستعباد والأنظمة الديكاتورية ، كشبلي الشميل الذي وصف حالة

(١) اديب اسحق : الدرر ص ٦٩

الارتقاء والتقدم العلمي في عهد الخديوي محمد علي باشا، وأكد حصول تغير في مفاهيم الإنسان للشرائع والقوانين والحقوق ، فقال : « ان حقوق الأفراد لا يجوز ان تبتلع في جوفها حقوق الجموع ، وان المنافع العمومية مقدمة على المنافع الخصوصية ، وان الشرائع التي لا يتوفر معها كل ذلك يجب ان تمزق تمزيقاً »[1] .
لقد دفع الحماس ببعض المثقفين الى المطالبة جهراً بالحرية والمساواة كما جاء في قصيدة الياس صالح (توفي ١٨٨٥ م) « الحرية الأدبية » التي ألقيت عام ١٨٨١ من على منبر الجامعة الأمريكية ، تصرخ وجداً على الحرية الذبيحة :

إن هذا الإنسان لم يك عبداً	اثبتتهُ الشرائع المدنيةْ
أنت حرٌّ فاعلمْ بهذا وعلِّمْ	أنتَ حر وهذه اوَّليَّة
ولكمْ قد رأيت من حيوانٍ	يقضم الحَبْلَ بغية الحريةْ
لستُ عبداً أنا ولا أنت مولىً	أيها اللابسُ الحِلى الذهبَّيةْ
هكذا الناسُ أيّها الناس طرا	ما لزيدٍ على عبيدٍ مزيّةْ [2]

وهذه مقالات أمين الريحاني المفعمة بحب الحرية والثورة على الأفكار البالية ، تدعو الى قطع يد الظالمين التي تنزّ من دماء الكادحين فيقول : « إنك انسان حر ، لا آلة في يد هذا أو ذاك يتصرف بها ساعة يشاء . . . التقية والخو ف والذلة والجبانة هي اعداء حرية الإنسان الحقيقية »[3] . . . ومن بين طلائع الكتاب العرب جبران خليل جبران ، الذي قاتل الظلم والجهل والتقاليد الرجعية ، واتصل اتصالاً روحياً بالحرية والعدالة ، وعبر في مقالته « يوم مولدي » عن اروع النفثات الملتهبة عندما قال : « قد احببت الحرية ، فكانت محبتي تنمو بنمو معرفتي عبودية الناس للجور والهوان ، وتتسع باتساع ادراكي خضوعهم للأصنام المخيفة التي نحتتها الأجيال المظلمة ، ونصبتها الجهالة المستمرة ، ونعَّمت جوانبها ملامس شفاه العبيد . لكني كنت أحب هؤلاء العبيد بمحبتي الحرية »[4] . وجبران كوته الحرب العالمية الأولى ،

---

(١) انيس المقدسي : الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث . ص ٢٣٧

(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٨

(٣) المصدر نفسه ٢٠٤

(٤) رئيف خوري : الفكر العربي ص ١٢٦

وخبر وبلاتها متمنياً الموت في سبيل الحرية . تفجرت عبقريته عن أسمى آيات البطولة عندما كتب يقول تحت عنوان « مات اهلي » : « لو ثار قومي على حكامهم الطغاة وماتوا جميعاً متمردين ، لقلت ان الموت في سبيل الحرية لأشرف من الموت في ظل الاستسلام »[1] . لقد عالج اساتذة النهضة مشكلات المجتمع العربي ، وتبينوا ان قضية الحرية ـ حبيسة السجون والقيود ـ هي القطب الجامع لجميع ازمات العالم المتخلف ، وهي الضالة المفقودة التي تعاديها السلطات الغاشمة ، وتناصرها الشعوب المظلومة ولذلك لم يكتف هؤلاء بإلقاء كلمات المدح والثناء عليها ، بل اعملوا الفكر العلمي : واستطاعوا ـ مستأنسين بما ورد في بيان حقوق الانسان الشهير ـ ان يصوغوا حدوداً للحرية لا تزال مضامينها سارية حتى أيامنا الحالية . وقد رَعَتْ هذه الحدود مجموعة قوانين أباحت للمرء فعل ما يريد شريطة الاّ يضرّ بالآخرين ، وألا يؤذي او يعتدي على حرية غيره . واصبح من غير الجائز للحاكم ان يصادر الحريات ويكم افواه اصحابها . ويبدو ان كثيراً من رجال الفكر الليبراليين في القرن التاسع عشر قد طالبوا بتخفيف هذه القوانين تدريجياً بهدف تحرير الفرد منها متمنين عتقه من واجباته القانونية وارجاع الأمور الى قانون العقل والوجدان .

الحرية والمساواة

كانت تعاريف الحرية الأولى على العموم نقطة انطلاق الدراسات الإنسانية والسياسية . واصبح مفكرو النهضة وادباؤها لا يطلبون الحرية لوحدها بل جعلوها ملازمة لبقية القضايا التي تهم المجتمع والإنسان . فالشدياق مثلا ، بالرغم من تأييده للمساواة التامة بين مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية ورفضه لمبدأ التمييز الطبقي ، تحفّظ امام موضوعة تعميم الحرية على المجتمع برمته ، معتقداً ان تسويد اللئيم على الكريم ، وحتى المساواة بينهما ، قد يضر بمصلحة المجتمع ، ولذلك

(١) المصدر نفسه١٢٦ وقد عقد د . ياسين الايوبي فقرة طويلة عن موضوع الثورة والحرية في حديثه عن المنحى الرومانطيقي لجبران (مذاهب الادب ج ١ ص ٢٠٢ طرابلس ١٩٨٠ .

يطلب من القاضي ان يفرّق في احكامه بين الاثنين ويقول : « والله تعالى لم يسوّ بين العباد ، بل فضّل بعضهم على بعض ، فكيف يسوي القاضي بين اللئيم الذي يبذل ماء وجهه ، والأوباش والسفلة ، وبين الكرام وذوي الأدب والعرض واهل الفضل »[1] ؟ . . ويُعتقد ان معارضة الشدياق إعطاء الحرية لجميع الناس ، تنبع من تذمره مما يجري في اوروبا المتمدنة من اضطراب وفوضى تحت غطاء الحريات . فهو في حديثه عن عدم جدارة البعض واهليته لها يؤكد ان « ليس للأوباش مثلاً ، ان يسكروا ويزأطوا كما يجري في المدن الأوروبية ويصيحوا في الشوارع مقلقين بال الناس وراحتهم ، برغم انهم احرار ، فتباً لهذه الحرية »[2]

وهذا ما تجلى بوضوح في كتاباته الأخيرة ، وذلك عقب الحرب الفرنسية الروسية عام ١٨٧٠ ، حين اضطربت مفاهيم الحرية والمساواة عنده ، ومال الى وجوب سلطة قوية قاهرة ، مشيراً الى ان جمهور الرعية لا يكون الا من الرعاع ، وانتقد الطهطاوي هذا النوع من الحرية « الانفلاشية » التي نادت بها الثورة الفرنسية « اللادينية » التي تكفل حماية القانون لكل الأعمال والأقوال التي تهز القيم الدينية والأعراف الاجتماعية ، وتجاهر بمخالفتها وتسفيهها ، والتي تنشر الفوضى وتفرق الجماعة [3] ، وطالب على العكس بضمانات دينية وقانونية تحمي المواطن من التعسف والاستبداد ، وتمنحه الحق في انتقاد الخطأ والظلم .

حرية الفكر والتعبير

وفّر الفكر الغربي الليبرالي أقصى حدّ للحرية الفردية ، وارتفعت أصوات غالت بدعوتها الى « الحرية المطلقة في مجال الاجتماع والفكر والسلوك . . . ورفع القيد عن كل انسان ليمارس ما يشاء من شؤون ، دون تقرير واضح للمسؤولية او

---

(١) عماد صلح : احمد فارس الشدياق . آثاره وعصره : ص ٢٠٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٦

(٣) د. محمد محمد حسين : الإسلام والحضارة العربية . ص ٢٢

التبعية »[1] . . . بالإضافة الى رفض كل التقاليد والأساطير الموروثة ، ودحض المفاهيم الدينية والقيم الاجتماعية . رفض أدباء النهضة ومفكروها مثل هذا المنطق الذي لا يتوافق مع مجتمعاتهم المتديّنة ، فجمعوا بين الحرية والمسؤولية وتوقفوا أمام مفهوم الحرية الشامل الذي تزامن مع ظهور الوطنية ومقاومة الاستعمار، وأصبح سلاحاً في يد الأحرار ضد الظلم والقهر والعدوان ، ومختلف الثورات التي حدثت في المنطقة واتخذت من شعار الحرية علماً لها . وهذا ما عبّر عنه أحد اساتذة الجامعة الامريكية في بيروت (اثر اعلان دستور ١٩٠٨ الذي تبنّى أفراده مبادىء الثورة الفرنسية ـ حرية ، مساواة ، إخاء) فكتب في مجلة « المقتطف » مقالاً اشار فيه الى معاني الحرية واشكالها في مبادىء هذا الدستور التحررية : « وبينما في هذه الظلمة المدلهمة وفي حال من اليأس والقنوط ما شهدنا مثلها ولا آباؤنا الأولون ، سطع علينا بغتة نور القانون الأساسي ، فأشرقت على آثاره شمس الحرية الشخصية ، والحرية القومية والحرية الفكرية والحرية الأدبية »[2] .

وقد دعّم أعلامنا المبادرات الشخصية ، معتبرين أنه بحرية الفكر والتعبير وحدها يتم بناء المجتمع الإنساني، الذي كلما ضم افراداً من مختلفي النزعات والميول والشخصيات ، كان أقرب الى ان يكون مجتمعاً ابداعياً خلاقاً ، قابلا للتقدم بسرعة . اما المجتمع الذي يصادر المبادرات الشخصية ، ويفرض رأياً معيناً ، فهو مجتمع لا حياة فيه ويدل على موات اكيد . ويكفي ان نذكر ما لقيه اعلام النهضة امثال الإمام محمد عبده والكواكبي والشدياق واسحق ويكن وغيرهم ، من قمع وتنكيل ، حتى نعرف كيف يكون موقف الأنظمة الفردية من الحريات والآراء الإصلاحية الجديدة . وقد اكد هؤلاء الروّاد ان كبت الرأي لا يعدم الرأي على الإطلاق ، وأن خنق الكلام وحرية الإجتماع لا يؤديان إلا إلى الكبت فالتكتلات السرية . وتكون النتيجة ثورة لا محالة . ففي جميع المناطق العربية ، حارب الأتراك والقوى الرجعية والاستعمار، الكلمة الحرة والرأي المستقل ، وكانوا

---

(١) انور الجندي : قضايا العصر ومشكلات الفكر . مؤسسة الرسالة . بيروت ١٩٨٤ ص ١٧٤ .

(٢) محمد عزة دروزة : نشأة الحركة العربية الحديثة . ص ٢٨٨ .

كلما ازدادت حربهم عنفاً في مكافحة الأراء ومصادرتها برزت خلايا جديدة قويت شوكتها لاحتمال الاضطهاد . ولذلك لم يتردد ادباء النهضة ومفكروها عن المطالبة الدائمة بحماية مختلف انواع الحريات كحرية الرأي والتعبير والتفكير والمطبوعات . . . ووضع النصوص القانونية التي تضمن الأمن والعدل لجميع الناس دون تفرقة او تمييز . فالطهطاوي الذي وجد صعوبة في التعبير عن الحرية الشخصية اثناء ترجمته لها في المادة الرابعة من ميثاق الدستور الفرنسي ، ما لبث ان أكد حق كل مواطن - مهما كان مستواه - في التمتع بها ، معتبراً إياها من اعظم الحقوق الإنسانية . وقد أدان في الوقت نفسه كل انتقاص وتعدٍ عليها . ويمكننا القول دون مبالغة ، ان معظم الانتفاضات السياسية التي حصلت في اواخر القرن التاسع عشر وبداية العشرين ، كانت بسبب تعطيل حرية الرأي ، وتحكم النزعة الفردية . والطهطاوي نفسه الذي عاش احداث ١٨٣٠ في فرنسا ، ووعى مسبباتها ، اكد انها ثورة دستورية مشروعة كونها حاولت اعادة الحريات التي اعتدى عليها الملك عندما اصدر اوامره بمنع المواطنين من نشر آرائهم ومعتقداتهم النظرية ووضع مراقبة صارمة على تحركات الأفراد وتطلعاتهم .

والسؤال الذي يطرح : هل شارك شعر هذه المرحلة النثر او تخلف عنه ؟

نقول بوضوح : ان الشعر لم يقلَّ عن النثر تأثراً بهذه الروح التحررية . ومن الشعراء الذين شغفوا بالحديث عن الحرية ، جميل الزهاوي الذي جعلها فتاة شعره وغاية مناه . يقول مهاجماً الرجعيين ، موصدي ابواب الحرية :

يُريدون ان يخفي الجريحُ أنينَهُ ويسكتَ أهْلُ الحقِّ عن طلَب الحق
ولكنني أبقى بحقي مطالباً الى أن يسدَّ الموتُ في ساعةٍ حلقي [1]

ومثله خليل مطران في « سياسياته » مهاجماً استبداد نيرون وظلمه للناس حيث يدعو الى معارضته والثورة عليه ، مبيناً ان الخضوع لأوامره التعسفية يزيد من جبروته :

مَنْ يلمْ نيرون إني لائمٌ أمّةً لو كهرتْهُ ارتدَّ كهرا

(١) أنيس المقدسي : الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث . ص ٢٤٤ .

كـلُّ قَـومٍ خـالـقـو نـيـرونهم قيصـرٌ قيـل لـه أمْ قيـل كسـرى[1]

اما معروف الـرصافي الـذي حمل عـلى الاستبداد الـداخلي ، وهـاجم الاستعمار مستهـزئاً بسيـاسته القمعيـة ، فقـد قـال في قصيـدتـه « الحـريـة في سيـاسـة المستعمرين »[2] :

يـا قـومُ لا تـتـكـلمـوا إن الـكـلام محـرم
فـإذا ظـلـمـتـمْ فـاضـحـكـوا طـربـاً ولا تـتـظلَّمـوا
نـامـوا ولا تـسـتـيـقـظوا مـا فـاز إلا الـنـوَّمُ . .
مـن شـاء مـنـكـم ان يـعـيـ ـيش الـيـوم وهـو مـكـرَّم . . .
فَـلْيُـمسِ لا سـمـعٌ ولا بـصـرٌ لـديـه ولا فـمُ

والـرصافي الـذي وعى دهاء الغـرب السياسي ، ينتقـد ادّعـاءاته الانسـانيـة ، ويؤكـد ارتداده عـلى شعارات الحقـوق العامـة التي اعلنتهـا ثـوراتـه الثـلاث المجيـدة الإنكليزية والاميركية والفرنسية ويقول :

وكم قـد سمعنا ساسة الغـرب تـدّعي بـأشيـاء من بـطلانها ضـحـكَ الحقُ
فـهـم مـنـعـوا رقَّ الأسـير وإنمـا اجـازوا لهـم ان يشـمـل الأممَ الـرّقُ

وهكذا اخذت ترتفع في دولة الظلم نفثـات الأحرار الثـائرة ، تنـدد بالاستبـداد والقمع الطائفي والطبقي ، وتدعو الى نبذ الضغائن والأحقاد من اجـل اقامـة المجتمع الحر الإنساني . وبالتالي ، وضع اعلام النهضـة تصوراتهم لهـذا المجتمع ، كـالكواكبي الـذي فاق اقـرانه في الحـديث عن مواصفـات هـذا المجتمـع والـذي اعجب بحـريـة الخطابة والتأليف والمطبوعات ، صاغ ثمانية بنود تكفل تأمين حياة حرة عادلة[3] .

وتوخّى اديب اسحق هذا الإصلاح على اساس اقامـة الحياة الـدستوريـة البديلة عن الأنظمة القائمة آنذاك . وانطلقت دعواه من « أنه لا قـوة للحكومـة إلا بالأمـة ،

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٤٧ .

(٢) معروف الرصافي : حياته وشعره . ص ٢٧٣ .

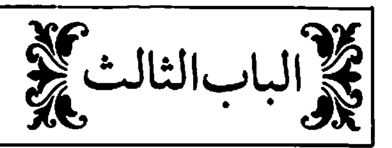
(٣) علي المحافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب ص ١٧٥ .

ولا ثبات إلا بالشورى ، ولا سطوة إلا بالحرية ، ولا سلطة الا بالمساواة »[1] .

وانطلاقاً من كل ما تقدم ، يتضح جلياً ان مطلب روّاد النهضة الرئيس هو قيام مجتمع ديمقراطي شعبي ، يحفظ للشعب حقه الطبيعي في الاعراب عن رأيه بصراحة ، وينهي عهود الاستبداد والتعسف التي لا تتفق مع عهود الحرية واليقظة الحديثة . وكانت هذه الحرية الديمقراطية ، بمختلف انواعها ، باعثاً هاماً لتنشيط الأماني القومية وعاملاً أساسياً في الإعراب عن طموحات الشعوب المقهورة حيث انطلق احرار العرب في فرض شخصيتهم العربية على مسرح السياسة الداخلية في الامبراطورية العثمانية ، والمطالبة بالحقوق الشخصية والقومية .

---

(١) اديب اسحق : الكتابات السياسية ص ٣٧ .



الباب الثالث

الاسلام والنهضة والتيارات الغربية الحديثة

الفصل الأول : الجامعة الاسلامية : موقف ومضمون

الفصل الثاني : اشكالية الدولة الاسلامية عند مفكري النهضة

الفصل الثالث : الاستشراق ومواقفه في العروبة والاسلام .

الفصل الرابع : العلمانية والفكر الاسلامي في عصر النهضة

الفصل الأول

الجامعة الإسلامية في عصر النهضة
موقف ومضمون

اذا آمنّا بنظرية السببيّة ، واعتقدنا بأنّ ظروفاً موضوعية وقوانين محددة ، تخلق مناخات فكرية ، وتعكس قيماً ومبادىء محددة ، فإن عصر النهضة ، في النصف الثاني من القرن الماضي ، عرف بواعث واسباباً فرضت تغييراً في اطر الحركة الاجتماعية ونظامها التحالفي ، وأدّت في النتيجة الى ظهور اتجاهات وتيارات ، عبّرت عن أمانٍ جديدة وتطلعات حديثة . وكانت الجامعة الإسلامية ، من خلال مفهوم التضامن البشري ـ المحلي والاقليمي والأممي ـ الذي عرفته المنطقة العربية والغربية ، لوناً تضامنياً جديداً ، استطاعت لفترة ان تستقطب اذهان الناس وتعلق عليها الآمال .

نادى بها مصلحون سياسيون ودينيون ، رأوا فيها خلاص شعوبهم ومجتمعاتهم من براثن تبعية الغرب ، والتحرر من ثقافاته وإدخال الإصلاحات العامة على مختلف مرافق الحياة ، أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد رشيد رضا . ورأى بعض الساسة كالسلطان عبد الحميد الثاني في الدعوة اليها مكسباً سياسياً ، ومغنماً شعبياً ، يستطيع من جهة ان يدعم سلطته الداخلية ، ويقوي نفوذه في الخارج ، ومن جهة اخرى يجابه سياسة اوروبة الإستعمارية التي بدأت تتحفز للإنقضاض على « الرجل المريض » ، واقتسام مناطقه ، « وان يحتمي بعطف العالم الإسلامي في وجه التعصّب الأوروبي ، المطبق عليه من كل

جانب »[1] .

بواعث الجامعة الإسلامية :

نشطت دعوة الجامعة الإسلامية عقب ولاية السلطان عبد الحميد بسنوات قليلة ، حيث عظمت مخاوف العثمانيين والمسلمين ، على مختلف اجناسهم ومعتقداتهم ، من الاستعمار الغربي ، الذي بات يكيد الدسائس والفتن ويقتنص الفرص للإنقضاض على الامبراطورية العثمانية ، خصوصاً بعد ان انفضحت مؤامراته التقسيمية التي اتفقت عليها دوله الكبرى في مؤتمر برلين لعام ١٨٧٨ عقب هزيمة الدولة العثمانية امام دولة روسيا التي احتلت مدينتي باطوم وقارص ، وتخلي الاتراك عن قبرص لانكلترا لقاء مساندتها عسكرياً ، في حال إقدام الروس على احتلال المزيد من اراضيها[2] ، وسماحهم ايضاً لدولتي انكلترا وفرنسا بالتدخل في شؤون البلاد ، وبأملاك السلطان الذي أمسى فريسة لرجال المال منهما[3] .

والواقع ان التدخلات العديدة التي حصلت من قبل الغرب ، سواء على الصعيد العسكري او الثقافي ، كانت احد المؤشرات الهامة لظهور فكرة الجامعة الإسلامية . فالحملة الفرنسية ، وان بعد بها الزمن عن فترة انطلاقة الدعوة ، الا ان ابعادها ظلت مترسخة عند المسلمين ، الذين شعروا اثناءها بسياسة اوروبة الاستعمارية ، التي جسدت من الوجهة الدينية خاصة هجمة مسيحية استعمارية ، على بلاد مصر المسلمة التي كانت لا تزال تنظر الى السلطان العثماني على انه خليفة للمسلمين ، وان اي مسّ بمركزه بمثابة اعتداء على الدين نفسه[4] . وإذْ باءت نتائج الحملة بالفشل وخصوصاً على الصعيد العسكري فقد عمدت الدول الغربية ، الى

---

(١) عباس محمود العقاد : عبد الرحمن الكواكبي . المكتبة العصرية . بيروت ١٩٨٣ ص ٦٦ .

(٢) راجع بهذا الخصوص احتلال انكلترا لجزيرة قبرص ومعاهدة برلين في كتاب « تاريخ الدولة العليّة العثمانية . لمحمد فريد المحامي . دار النفائس . بيروت . ١٩٨٣ ص : ٦٧٠ - ٦٩٩ .

(٣) د . حسن صبحي : اليقظة القومية الكبرى ص ٦٣ .

(٤) د . اسكندر لوقا : الحركة الأدبية في دمشق . دمشق ١٩٧٦ ص ٨٧ .

غزو مصر والمنطقة العربية والاسلامية ، اقتصادياً وثقافياً ، من خلال المداخلات الغربية والضغوط المتنوعة ، التي خوّلتها اياها حركاتها التبشيرية ومؤسساتها الدينية . لكن هذا الوضع لم يخدع رواد النهضة العربية الحديثة ، الذين ادركوا حقيقة هذه المغازي ، فكشفوها وبينوا اهدافها السياسية والثقافية مؤكدين رفضهم تقليد الغرب الأعمى والانسلاخ عن أصالتهم التراثية . فالأفغاني مثلاً الذي رفع لواء العقل ، وأيّد مسوّغات العلم ورفض بقوة محاكاة الآخرين وتقليدهم ، قال : علمتنا التجارب ونطقت مواضي الحياة بأن المقلدين من كل امة . . . طلائع لجيوش الغالبين، وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل ويفتحون الابواب ثم يثبتون اقدامهم ويمكّنون سلطتهم[1] .

رأى اعلام النهضة ان الجامعة الإسلامية خير رد على محاولات توسع الاستعمار الغربي ، وتدخله في شمال افريقيا بعد ان وطد مركزه باحتلال الجزائر ، وحاول القضاء على الاسلام وعلى اللغة العربية[2] . وبخاصة بعد تيقن هؤلاء الرواد ان النضال الإقليمي او المحلي لم يعد يجدي حيال قوّات الاستعمار المزود بأحدث الأجهزة واقوى الأسلحة . وتجربة عبد القادر الجزائري في صد الفرنسيين واخراجهم من الجزائر ، قرينة مادية استفاد منها دعاة التضامن الديني ، الذين طافوا مختلف المناطق الاسلامية ، يزرعون فكرة الجامعة الإسلامية ، ويدعون اليها ، موضحين ان مصلحة الشعوب الاسلامية ، بمختلف اجناسها والوانها وطوائفها ، تكمن في تعزيز رابطتها وحمايتها ، وأنه في حال اختراقها من قبل الأعداء المتربصين بها ، لا يكون وبالها على فئة او قطر بعينه ، بل على المجتمع الاسلامي ودينه نفسه . ولهذا طالب هؤلاء بضرورة الوقوف الى جانب الدولة العلية العثمانية ، والتغاضي عن كل ما يُسيء ، من تصرفات واعمال إلى الشعوب الاسلامية وبالأخص العربية ، التي ايدتها لفترة طويلة بقوة ، وتحملت سياستها الظالمة التي فرضتها عليها . وكان الافغاني احد كبار الدعاة الى الإلتفاف حول شعار الجامعة الإسلامية الممثل بالسلطان ـ الخليفة ـ ودولته العثمانية .

---

(١) الافغاني وعبده : العروة الوثقى . دار الكتاب العربي . بيروت ١٩٨٠ ص ٥٩ .
(٢) د . محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر . ص ١٦١ .

ظهرت دعوة الأفغاني هذه ، اثناء حَجِّه الى مكة عام ١٨٧٥ ، عندما أنشأ جمعية « ام القرى » التي ضمت اعضاء من مختلف البلدان الاسلامية ، وانحصر همها على العموم في النهوض بالأمة الإسلامية ، وتعزيز مكانتها ، ومواجهة الغرب ، والتصدي لسياسته الاستعمارية التي تريد شراً بالأمة والدين .

صادفت دعوة الأفغاني ارتياحاً عند السلطان عبد الحميد الثاني ، الذي ، ولأغراض خاصة به ، وبسلطته الفردية ، دعا اليها وأيّد فكرتها ، وارسل مبعوثيه الى البلاد الإسلامية ، يحضون قادتها على تأييدها والانصهار في فلكها . والواقع ان هدف السلطان عبد الحميد وغرضه من هذه الجامعة ، لا يقارن على الإطلاق بغاية الأفغاني ، أو التشبه به . فالسلطان عبد الحميد ، قصد من دعوته كما يقول العقاد ، الاحتماء بعطف العالم الاسلامي في وجه التعصب الأوروبي المطبق عليه من كل جانب[1] وكان عبد الحميد بالفعل ، قوة دافعة لهذه الحركة التي وجدت عنده رغبة عظيمة اتَّفقتْ مع تطلعاته المستقبلية خصوصاً ، حين اصبح خليفة المسلمين وحامي الحرمين الشريفين ، وقرن سلطته الزمنية بسلطة دينية ـ تشبُّهاً بطقوس النصارى التي جعلت من احبارها ظلّ الله على الأرض ـ عززت نفوذه ، وانقذته من خصومه السياسيين ، الذين أبْعَد خطرهم عن دولته العلية ، عندما تمكن على الصعيد الداخلي ، من إلغاء دستور مدحت باشا عام ١٨٧٦ ، وحل المجلس النيابي ، وتخلص من الزعماء الدستوريين والديمقراطيين ، وأقام حكمه الاستبدادي ، وسلطته الفردية . واستطاع على الصعيد الخارجي تدعيم السلطنه العثمانية واعتبارها دولة الخلافة التي تحمي الإسلام والمسلمين ، والتي اعطته كخليفة وسلطان تأييداً دينياً واسعاً ، خاصة بعد ان فاز بتأييد شريف مكة الذي نادى به خليفة وسط الحجّاج[2] واستطاع ان يضمن تأييد الأفغاني الذي استدعي عام ١٨٩٢ لينزل ضيفاً عليه في الاستانة ، ويتخذه رسول الدعوة الى هذه الرابطة بعد ان وضع الأفغاني يده لفترة من الزمن في يد السلطان عبد الحميد ، وعقد عليه كثيراً من الآمال .

---

(١) عباس محمود العقاد : عبد الرحمن الكواكبي . ص ٦٦ .

(٢) د . علي حسين الخربطلي : تاريخ الموحد للأمة العربية ـ الهيئة المصرية ١٩٧٠ ص ٢١٨ .

ولكن الأفغاني سرعان ما انفصل عن السلطان ، وسحب بيعته وهاجم سياسته وكشف ادعاءاته ، وجاهر بعدائه . حتى انه لم يحجم عن ان يدخل عليه يوماً ليقول له : « أتيتُ لأستميح جلالتك ان تُقيلني من بيعتي لك ، لأني رجعت عنها . . . بايعتك بالخلافة ، والخليفة لا يصلح ان يكون غير صادق »[1] . الا ان التفسيرات الخاطئة لأسس الفكر الإسلامي ، والمغالطات العديدة التي وقع فيها بعض الكتاب من اصحاب الكتابات المحافظة او الإصلاحية ، لا تزال حتى اليوم تلقي بثقلها السيء على مسيرة هذه الجامعة وتصوراتها الفكرية والانسانية ، وتحجب عن المفكرين التقدميين ما يتضمنه هذا الفكر[2] . من مكنونات ثمينة وكنوز ثورية ، وطاقة محركة لا بد منها لشعوب هذه الأمم في تطورها السياسي والإجتماعي . وفي الوقت نفسه اساء بعض الكتاب الى الأفغاني بسبب استخدامه سلاح الجامعة الإسلامية في معاركه ضد الاستعمار ، من دون ان يستوعبوا نظريته كاملة ، ويتفهموا الظروف التي املت عليه مواقف سياسية محددة جعلته يقاتل الاستعمار اينما وجد ، ويحارب الظلم والإستبداد وسياسة الحكام الجائرة اينما حلّ . ان فكر الأفغاني ومواقفه المبدئية ، تغنينا عن مختلف التفسيرات والتأويلات التي تحاول ان تحط من قدر هذا الثائر ، وتضعه في خانة الانهزاميين السياسيين ، الذين استغلوا هذه الرابطة ، لمآربهم الشخصية ، واقاموا حكماً ظالماً . وهو الذي لم يخف يوماً من هول الطغاة وأدواتهم القمعية ، ولم يتردد من السخرية بصولجان الملوك والاستهزاء بتيجان القياصرة . وهنا لا بد من لفت الأنظار الى تهم باطلة ، ألصقت بكبار اعلام النهضة الإسلامية ، الذين شوّهت مواقفهم واستُغلت بعض اقوالهم المنسلخة من سياقها التاريخي والموضوعي للحط من شأنهم وجعلهم أعوان الإستعمار او على الأقل ، من مهادنيه والمستسلمين اليه ، كالامام محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) في مصر ، والسيد احمد خان (١٨١٧ ـ ١٨٩٨) احد قادة حركة الإصلاح المدنية والتعليمية في الهند ، والحقيقة ان هذين العلمين ، لم يهادنا الاستعمار كما بدا لكثير من الدارسين ، من خلال موضوعات مجتزأة ، بُترتْ من

---

(١) جمال الدين الافغاني : الله والعالم والانسان ، المؤسسة العربية بيروت ١٩٧٩ ص ٨٠ .

(٢) محمد عمارة : مسلمون ثوار . ص ١٦٠ .

دراسات مطولة ، وكل ما في الأمر ان الإمام عبده والسيد احمد خان صاغا نظرية واقعية ، اخذت بعين الاعتبار ، واقع المحتل الانكليزي الجاثم على ارض الوطن فأقبلا على العلم ، وعملا على رفع مجتمعهما ، واصلاح احوال العامة بالتربية الحديثة والعلوم الجديدة . وتجنبا السياسة ورأيا ضرورة مسالمة الانكليز والتفاهم معهم ، لا من باب الخضوع والإستسلام بل من جهة اخذ ما يستطاع منهم تدريجياً لخير الشعب ، حتى اذا ما نضجت الأمة ، امكنها الحصول على حقوقها كاملة[1] . وذلك ايماناً منهما ، ان ما انتاب مصر مثلاً « من تفكك وانحلال ، وما فتك بأهلها من ادواء ، لم يجىء ، في رأيهما نتيجة للاحتلال ، بل على العكس ، كان الإحتلال من نتائجه وآثاره »[2] .

انتقدت اقلام عربية وغربية هذا الاتجاه المسالم والمهادن ، وعدَّته حليفاً للاستعمار الانكليزي خصوصاً بعد تقرير كرومر السنوي لعام ١٩٠٥ ، الذي جاء مؤيداً لمزاعمهم ، عندما أشار الى ضرورة التعاون مع امثال محمد عبده المتعمق بالشريعة الإسلامية ، والمستنير بأراء متحررة ، ودعا الى التعاون مع اتباع الإمام عبده في مصر ، واتباع السيد أحمد خان ايضاً ، وتشجيعهم وتقديم كل ما يستطاع من عطف اوروبة[3] . ويبقى للتاريخ ان يجلو حقيقة اصحاب هذا الاتجاه وان كنا نعتقد كما ذكرنا آنفاً ، انه من غير الجائز لسعة علمهم ومبادئهم الإنسانية والإصلاحية ، ان يقوموا بلعب ادوار مزدوجة ، وهم الحريصون على كلمة الحق وقضية حرية الإنسان وتقدمه .

مضامين الجامعة الإسلامية واتجاهاتها :

تحدثت الدراسات العربية والإسلامية ، عن اهداف هذه الجامعة ، فأكدت ان نشأتها قامت على محاربة الاستعمار والدفاع عن وحدة الشعوب الإسلامية وتضامنها حيال الدول الغربية التي تتربص بها ، بغية تفتيتها والقضاء عليها . وهي بقدر ما عبّرت عن مضامين فكريّة متقدمة في محاربتها للإستعمار ، عملت على اصلاح

---

(١) احمد امين : زعماء الاصلاح في العصر الحديث ص ١٢٣ .

(٢) محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر جـ ١ ص ٢٥٤ .

(٣) محمد محمد حسين : الاسلام والحضارة الغربية . ص ٧٤ ، ٧٥ .

احوال المسلمين ، وعلى تحررهم من عقلية العصور القديمة. فكتّاب النهضة ، في حديثهم عن الإستعمار وسياسته الاحتكارية ، كانوا متقدمين على غيرهم ، عندما ربطوا الاستعمار بالنهب الاقتصادي والسيطرة السياسية ، وفصلوه عن الناحية العرقية والدينية . فالأفغاني ـ احد اكبر دعاة الجامعة الاسلامية ـ لم يفهم الإستعمار على أساس عرقي او جنسي ، ولم يحصره في مجرد سيطرة غربي على شرقي ، بل اوضح ان الإستعمار ، قضية سياسية واقتصادية ، تقوم على القمع والنهب والإستغلال [١] ، وأن المسألة الشرقية ليست نزاعاً بين النصرانية والإسلام وحروباً صليبية كما صوّرها كتّاب من الشرق ومن الغرب ، بل هي حرب سياسية اقتصادية ، غرضها استغلال الدول الضعيفة ، ونهب ثرواتها وخيراتها . واستطاع الأفغاني من خلال وعي تام لشعار الجامعة الإسلامية ، المتحرر كلياً من التعصب ، ان يقدم مضموناً واضحاً لأهم جوانب معركة الشعوب الإسلامية ضد الاستعمار الغربي ، حيث لم يكن يهدف في نضاله ضد الاستعمار ، الى التحرر السياسي فقط ، بل تطرق الى مختلف جوانب الحياة الدينية منها والثقافية والإقتصادية . فاستوعب شمولية معنى « كلمة التحرر » وعمل على توحيد الأمة الإسلامية ، لنيل حقوقها كاملة ، وتحقيق ريادتها الإنسانية ، محذراً من المتاجرين بالدين ، اصحاب العقول الجامدة ، والمومياءات المحنطة ، الذين اصطنعهم الاستعمار ، نسبة لمقامهم الديني والإجتماعي ، مؤكداً في الوقت نفسه انهم كانوا وما زالوا مطيّة له ، يستعملهم لتمرير خططه ، وضرب التطلعات الوطنية والحركات السياسية التحررية . وهذا ما يفسّر موقف الأفغاني المبدئي ، في السنوات الأخيرة من حياته ، من الإسلام والمسلمين ، عندما تحدث عن وجود اسلامَين : إسلام الجماهير الكادحة ، المؤمنة بالحرية والعدالة والكفاية ، واسلام الملوك والحكام والطبقات المسيطرة على مقدرات الأمة وثرواتها ، التي تتعامل مع الشيطان من اجل الحفاظ على مكاسبها ومصالحها الطبقية ، والتي وضعها في خانة الاستعمار ، عندما ركز على ان الحكام والملوك وكانزي الذهب والسلطان عبد الحميد هم في الواقع اعوان للاستعمار على الشعب ، بحكم كونهم عقبات كبيرة امام تقدم الشعوب

---

(١) مروّة ، العالم ، وذكروب وسعد : دراسات في الاسلام . دار الفارابي بيروت ١٩٨٠ ص ١٤٥ .

وحريتها [1] . هذه الرؤية الشمولية لقضية التحرر جعلت الأفغاني يرفض قيام دولة اسلامية واحدة ، ويعارض دعوة السلطان عبد الحميد الى توحيد المسلمين تحت سلطة واحدة مؤكداً فكرة التمايز القومي بين ابناء الدين الواحد ، والخصائص التي تنفرد بها كل امة فقال : « لا ألتمس بقولي هذا ان يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً ، فإن هذا ربما كان عسيراً ، ولكن ارجو ان يكون سلطانهم جميعهم القرآن . . . » [2] لكن إزاء تكالب الدول الإستعمارية على إوطان المسلمين ، بهدف الاحتلال والهيمنة ، رأى اهمية قيام جبهة دفاعية بين مسلمي العالم من اجل حماية استقلالهم فقال : « ان العالم الإسلامي يجب ان يتحد اتحاداً دفاعياً عاماً ، مستمسك الأطراف ، وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الذود عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل . . . » [3] وهذا ما رمى اليه عبد الرحمن الكواكبي من خلال جمعيته الاسلامية « ام القرى » التي دعا فيها الى الوحدة الدينية والروحية للمسلمين في العالم اجمع [4] واقترح ، على ما يبدو من بعض اقواله ، الوحدة السياسية للبلاد الإسلامية على قاعدة الأنظمة الاتحادية الفيدرالية ، معتقداً ان تعزيز الرابطة الدينية ، والاتحاد الديني ، يساهمان في خلق الاتحاد السياسي . وهو إذ يؤكد عروبة خليفة المسلمين ، ينطلق من حرصه على الدين وازدهاره ، كون العرب ـ لغة وحضارة وتاريخاً ـ حماة الدين ، وهم اينما حلوا ، عكس الأتراك : « جذبوا اهلها بحسن القدوة والمثال لدينهم ولغتهم » [5] . وهكذا تتضح اكثر فأكثر ان فكرة الجامعة الإسلامية عقيدة متطورة ، ليست رجعية ولا طوباوية ، ارتكزت عند الأفغاني على سمات محددة ، وعدّت انطلاقة جيدة ، في حركة تحرير العقل العربي من الجمود والتقليد . وكانت لفترة معينة ، وبفضل عالمية الدين ونظرته الشمولية ، قد ابتعدت عن طروح الفكر الوطني والقومي ، إلا انها سرعان ما افاضت في

---

(١) المصدر نفسه ص ١٦٤ .

(٢) الافغاني وعبدة : العروة الوثقى ص ١١٢ .

(٣) علي المحافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ص ١١٢ .

(٤) نوربير تابيرو : الكواكبي المفكر الثائر . ترجمة علي سلامة . دار الآداب . بيروت ١٩٨١ ص ١٧٢ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٧٦ .

حديثها عن دعائم الوطنية والرابطة القومية الجنسية في حياة تقدم الشعوب ، فمن يقرأ كتاب « العروة الوثقى » للأفغاني وعبده ، يرى بوضوح ، معارضة الجامعة الإسلامية عند الأفغاني مثلاً لنزعة العصبية الجنسية والرابطة الوطنية ، وبالتالي رفضها المطلق لفكرية التعصب للجنس الذي عدّه بعض المفكرين من الوجدانيات الطبيعية ، لكونها حركة اسلامية عالمية ، ترفض الإنصهار في جزئيات ضيّقة ، والاعتماد على قواسم محدودة . ولا تقبل رابطة على رابطتها الدينية التي ميزها الخالق الشارع عن بقية الروابط الممقوتة ، وجعل مؤيدها مذموماً . وقد استدل الأفغاني احقية هذه النظرة من اقوال الرسول (صلعم) ، في هذا الشأن : « **ليس منا من دعا الى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية** » ، وأبان التاريخ الإسلامي ، على اختلاف المراحل والأزمنة ، ان الأمم والشعوب تقبّلت برضى حكم مختلف الجنسيات ، بفعل رابطة الدين وايمانها بالله وتعاليمه الشرعية . ففي مقالة : « الجنسية والديانة الإسلامية » أكّد الأفغاني ان الوازع الحقيقي لدعوة الحق والخلق الكريم هو التمسّك بأحكام الشريعة والقدرة على تنفيذ احكامها ، التي تغني عن رابطة الشعوب وعصبيات الأجناس قال : « ان المتدين بالدين الإسلامي متى رسخ فيه اعتقاده ، يلهو عن جنسه وشعبه ويلتفت عن الروابط الخاصة الى العلاقة العامة وهي علاقة المعتقد [1] » . وفي مقال « الوحدة الإسلامية » الذي اكد فيه : ان الرابطة الدينية وفّرت لمختلف الأمم والشعوب ـ على تباين جنسياتها ـ حياة العز والوفاء ، واثبت ان التخاذل والضعف تسرّبا الى كيان الأمة الإسلامية ، يوم ابتعدت عن رابطتها الدينية وتأثرت بالروابط الأخرى ، وتناست « ان لا جنسية للمسلمين الا في دينهم » [2] . وان الإعتصام « بحبال الرابطة الدينية ، هو احكم رابطة ، اجتمع فيها التركي بالعربي ، والفارسي بالهندي ، والمصري بالمغربي ، وقامت لهم مقام الرابطة النسبيّة » [3] . كل ذلك من دون تأفف او تذمر من الرعية ، التي رأت في السلطة القائمة آنذاك ، حاكماً ، حافظاً لشأن الشريعة ، مطبقاً احكام تعاليمها .

---

(١) الافغاني وعبدة : العروة الوثقى ص ٥٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ٨٨ .

ومن يتتبع دراسة هذه الأقوال يجدها مُثْبتة كاملة ، في كتاب « العروة الوثقى » ، اما اذا انتقلنا الى كتابه « الخاطرات » فسنجد التطور الذي لحق فكره ، من جراء اعلائه لمقام الرابطة الجنسية ، وتبيانه دورها في تدعيم وحدة البلاد وتمتين العلاقات المختلفة ، بين ابناء الوطن الواحد ، وتأكيده في الوقت نفسه ، اهمية تلاحم الرابطتين الجنسية والدينية اللتين شكلتا ، كل على حدة ، ميداناً للحمية على الملك ، ومنشآن للغيرة عليه »[1] .

اذا كانت الجامعة الإسلامية دفعت الأفغاني لمعاداة السلطان العثماني والاستعمار البريطاني ، على الرغم من مختلف التعقيدات والمشاكل التي واجهته ، سواء على الصعيد الوطني او القومي ، فإن كبار دعاة الجامعة الإسلامية ، كالإمام محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا ، ساروا على نهجه ، في تقوية بنيان التضامن الديني . واذا كانت الظروف والوقائع المستحدثة ، اجبرت بعضهم على اللجوء الى مخارج وفتاوي تسوّغ مهادنتهم للاستعمار ، وتقربهم من الأتراك . فلأنّ هدفهم الأول والوحيد ، هو الحفاظ على بقاء الدين ، وعلى استمرار دولته العثمانية . وهذا ما اثبتته كتاباتهم واماطت اللثام عن مختلف الأقاويل التي لصقت بهم . فالامام محمد عبده عندما أيّد بقاء الامبراطورية العثمانية ، وصيانتها من القوى الدولية ، التي كانت تحيك المؤامرات والفتن المستمرة بقوله : « انها ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله[2] - فإنه لم يكن يهدف على الإطلاق ، الى بقاء تحكم الأتراك بالمصريين ، وتأييد ظلمهم واستبدادهم في الديار المصرية ، لكنه كان يدرك ان اضعاف الدولة العثمانية وتفكيكها ، يعني سيطرة اوروبة واحتلالها للدول العربية والإسلامية . ولهذا فقد آثر ، انطلاقاً من ايمانه بالجامعة الإسلامية ، الدعوة الى انهاض الدولة العلية ، التي اصبحت - حسب ظنه - عاجزة عن القيام بدورها ، إن بالنسبة للإسلام ، او للمسلمين انفسهم . ودعا من جهة الى اصلاح ما اصابها من فتور وانحراف ، وما آلت اليه سياستها من ظلم واستبداد ، ومن جهة اخرى الى تنقية الدين من شوائب

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣٠ .

(٢) الاعمال الكاملة للامام محمد عبدة : تحقيق وتقديم محمد عمارة . المؤسسة العربية بيروت ١٩٧٩ ج ١ ص ١١٣ .

الطقوس الدينية الأخرى ، وادخال العلوم العصرية والتربية الحديثة الى المجتمع الإسلامي . وهذا ما يفسّر قوله لرشيد رضا : « ان كثيراً من وجهاء المصريين يكرهون الدولة العثمانية ويذمونها (وإن كان اكثرهم يحبها) ، وانا ايضاً اكره اعمال السلطان ولكن لا يوجد مسلم يريد لهذه الدولة سوءاً . . . » [1] أما محمد رشيد رضا ، الذي دعا إلى الوحدة الإسلامية ، ونبذ العصبية الجنسية ، التي اماتها الاسلام ، فقد عمد ، حرصاً منه على بقاء الدولة الاسلامية (العثمانية) ، إلى محاولة أعادة بنائها ، من خلال دعوته إلى سياسة الشورى في الحكم ، ومحاربة تحكم السلطان العثماني عبد الحميد واستبداده ، او عبر جمعية الاتحاد والترقي التي اقامت دستور مدحت باشا - ابي الأحرار - من جديد ، الذي اوجب - حسب قول رضا - امتزاج العناصر كلها ، واتحاد التركي والعربي والرومي والأرمني وسائر الاجناس العثمانية للقيام بالأعمال التي ترفع من شأن البلاد ، على قواعد المحبة والمساواة . . . » [2] أو من خلال تأييده لثورة الشريف حسين ، التي اعتبرها مشروع انقاذ للدولة الإسلامية المنهارة .

الموقف النقدي من الجامعة الاسلامية :

استغل كثير من الحكام السياسيين دعوة الجامعة الإسلامية من اجل دعم مركزهم وتمرير مخططهم ، وتثبيت مصالحهم . وكان على رأس هؤلاء ، كما ذكرنا ، السلطان عبد الحميد الذي خدع بعض المثقفين ورجال الفكر ، من تنفيذ مخططه التسلطي ، فحكم بقوة الحديد والنار ، مختلف شعوب المنطقة .

واذا كان الأفغاني ، كما بيّنا آنفاً ، قد نفض يديه من هذا الطاغية ، فقد عيب عليه استخدام فكرية الجامعة الاسلامية ، من أجل تحكم السياسة الفردية برقاب الأمم ، وهو بالطبع تفسير خاص لفكر الأفغاني ، لما خالطه من مزج بين فهمه الناضج لفكرة التضامن بين ابناء الجامعة الإسلامية ، وبين الوحدة السياسية لمختلف

---

(١) محمد عمارة : الامام محمد عبدة مجدد الاسلام . المؤسسة العربية . بيروت ١٩٨١ ص ١١٦ .

(٢) رشيد رضا : مختارات سياسية . تقديم ودراسة وجيه كوثراني . ص ١٣١ .

الـدول الإسلاميـة . فقد أكـد هو نفسـه ، عدم تحكم مـالـك الأمـر بمفـرده في شؤون البلاد، ثم ظلم ايضاً من الفـريق الذي هلّل لـه ، عندمـا عـرضـوا فكـريـة الجـامعـة الإسلامية لـدى الأفغاني ، بمنـظار يعادي الفكـرة القوميـة وحركتهـا العربيـة ، وفصل بعسف الرؤى القومية لكل شعب دان بالإسلام .

وهكذا نتبين ، ان قـوى سياسيـة متعددة ، ابستغلت شعـار الجامعـة الإسلاميـة إمّا لمكاسب شخصية ، وإما جهـلاً بمعرفـة ايجابيـاته الـواسعة ، وفـرّغته من مضـامينه التحررية والثقافية المتطورة ، ومن محتواه الريادي الذي يخبيء طاقـات ابداعيـة وكنوزاً انسـانية للشعـوب الناهضـة . وشنت في الوقت نفسـه ، حملة انتقاديـة قاسيـة ضده ، واتهمت مؤيديه ، بـاستغلال الشعـار لتسليط الاحتكار الـرأسمالي ، وتثبيت امتيـازات طبقيـة ، وتفـاوت اجتمـاعي . لكن رد مفكـري النهضـة جـاء من خـلال تـأكيـداتهم المنـاهضة لتسلط هـذه الطبقـات ، وتأييـدهم لنصرة الفئـات الفقيرة ودعـوتهم لحمايـة امـوال المسلمين وثـرواتهم الواسعـة من اطماع الـدول الكبرى . وذلـك عندمـا رفعوا شعـار (ثـروة المسلمـين للمسلمـين) وهـاجـوا امتيـازات الـدول الأجنبيـة التي تنهب خيرات البلاد ، وطالبوا بـوقف الاعتماد عـلى مصادر الـرأسمال الأجنبي والاستعـاضة عنـه بالـرساميـل الاسلاميـة . هذه الانتقـادات ، اضعفت من الـدعـوة إلى الجـامعـة الإسـلامية ، خـاصة بعـد موت الأفغـاني ، وخلع السلطان عبـد الحميـد ، وجعلتهـا تـأخذ اتجـاهات مختلفـة . فكانت عنـد مصطفى كـامـل مجـرد دعم ، وتـأييـد للدولـة العثمانية . وعند مصطفى الخلاييني ، اتفاق المسلمـين في مشرق الأرض ومغـربها عـلى مـا يرفـع من شأنهم ، ويعـزز مكانتهم ، بينـما اخـذت عنـد بعض القـوميـين العـرب المتشـددين ، دعوة إلى تحقيـق وحـدة المسلمـين الـدينيـة عن طـريق تـوحيـد منـاهـج التعليم . . . وجعـل اللغـة العـربيـة اجبـاريـة في التعليم بـاعتبـارهـا لغـة القرآن . . . »[1] .

ولو اردنا ان نلقي أضواء على اسباب فتور هـذه الدعـوة ، لأشرنـا ، باديء ذي بـدء ، إلى تحوّل الحكـام والمسؤولين ، في الفتـرة الأخيرة ، من السيـاسـة الاسـلاميـة الحكيمة ، التي انتهجها الخلفـاء الراشـدون والصفوة من الصحـابة والمفكـرين الأوائل

(١) علي المحافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب ص ١١٧ .

إلى سياسة بعيدة عن اصول الدين وتقاليده ، وقريبة من مفاهيم الغرب وتصوراته الحديثة ، التي اخذت تغزو مؤخراً الأراضي العثمانية ، بالإضافة إلى اسباب اخرى أرجعها عبد الرحمن الكواكبي ، في كتابه « ام القرى » إلى :

أولاً : دينية ، وذلك بتأثير عقيدة الجبر في افكار الأمة ، المنافية لتعاليم الدين الإسلامي الذي يدعو إلى حرية الانسان وارادته ، وادخال المدلسين بدعاً واوهاماً ، توافقت مع التعصب الديني والتحجر العقائدي .

ثانياً : سياسية تبدل اوضاع الأمة ، وتغير احوال الرعية ، خصوصاً بعد تفرقها إلى عصبيات واحزاب ، وفقدانها الحرية والعدالة . . .

ثالثاً : اخلاقية ، وذلك بالاستغراق في الجهل والجحود ، وفساد التربية والتعليم [1]

وهكذا تتضح شمولية نظرة اعلام النهضة لشعار الجامعة الإسلامية الذي قدموه كردّ للطروح العلمية الغربية التي اخذت تغزو المنطقة العربية والإسلامية ، وكحلّ لمعالجة مشاكل المجتمع الفكرية والإجتماعية والسياسية من دون ان يتعصب هؤلاء الأعلام للنزعات الطائفية والوطنية والقومية ، وتتناقض مواقفهم المبدئية مع تصوراتهم الاسلامية التي جعلتهم في منأى عن ممالأة الحكام وكبار السياسيين .

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي : ام القرى . دار الرائد العربي . بيروت ١٩٨٢ . ص ١٥٨ .

الفصل الثـاني

اشكالية الدولة الاسلامية عند مفكري النهضة

فـي حيـاة الامة العـربية صفحـات مشرقـة ، يقف امامهـا الدارس منـدهشـاً لكونها عرفت مختلف اشكال الأنظمـة المعروفـة في عصرنـا الحديث . والآن ونحن نمـر في ثمـانينيَّات القـرن العشرين ، نشهـد صراعـات دوليـة ، بسبب الايـديـولـوجيـات المختلفـة ، والعقـائـد المتباينة ، فنـرى دولاً تـرفـع لـواء الفكـر الليبـرالي او تتبنى الاشتـراكية ، واخـرى يحكمها الـدين والشريعـة او تحاول مـزاوجـة الايمـان بـالمفهـوم القـومي الانساني. وسنحـاول في هذه الـدراسـة تسليط الاضـواء عـلى مفهـوم الـدولـة الاسلامية لدى اعلام النهضة العربية ومفكريها . . .

الاسلام والدولة :

فُهم من تعبيـر لفظة الـدولة ، اسم الشيء الـدّال على السيـادة والسلطان الذي يتداوله النـاس من دون ان يكون محصـوراً بفرد او جمـاعة معينـة ، وقد ورد ذكـر هذه الكلمة في القرآن الكريم من خلال رفضـه لفكرة استئثـار الاغنياء للمـال ، يتداولـونه فيـما بينهم ضرورة انتقاله الى الفئات الفقيـرة ، حتى لا يصبح قـوة نافـذة في ايديهم . يقول تعالى : ﴿ **ما أفاء الله على رسولـه من أهل القـرى فلله وللرسول ولـذي القربى واليتـامى والمسكـين وابن السبيـل كي لا يكـون دُولـة بـين الاغنيـاء منكم** ﴾[1]. ومن يتعمق في دراسـة الاحكام الـطبيعية والقـوانين الـوضعية ، يـرى بوضـوح ان تقلبـات

---

(١) سورة الحشر . آية ٧ .

الأيام ، وتبدل احوال الدول واشكالها ، هي من سنة الله في المجتمعات البشرية ، حيث تكون الدولة تارة للحق ، وتارة للباطل . والدولة الاسلامية الأولى ، اخرجت العرب من الظلمات الى النور ، وقلبت مؤسساتهم الالهية والمدنية . وبنت نظاماً جديداً ، حلّت فكرة الامة فيه محل فكرة القبيلة ، والوحدة الفكرية والتماسك الاجتماعي محل الفرقة والانقسام ، كما حل الوئام والالفة محل التخاصم والتعادي ، جاعلة هدف الدولة في الدرجة الأولى ، تأمين مصلحة الجماعة . وهذا ما أثبتته الدراسات الدينية والسياسية الحديثة ، التي اشارت الى ان دولة الاسلام هي دولة الصالح العام ، بصرف النظر عن الجنس واللون والدين واللغة . ولهذا الغرض خلق الله سبحانه ، كائنات متنوعة ، سخرها كلية لخدمة الجنس البشري ، طالباً اغناءها وإنماءها ، لتزيد الاستفادة منها ، ويكثر الانتفاع بها . يقول تعالى : ﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وانزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾ ويقول أيضاً ﴿ وسخر لكم ما في السموات والأرض جميعاً ان في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون ﴾[1] .

كل هذه المخلوقات بالاضافة الى التشريعات ، وضعها الله سبحانه خدمة لعباده ، ليسلكوا الدرب الصحيح ، ويشيدوا دولة الحق والعدل ، ويجلبوا المنافع ويدرأوا المفاسد ، ويدعوا الى تنمية الأساليب العلمية والقانونية التي تخدم مسيرة الانسان وتقدمه .

وانطلاقاً من ان الانسان عبد مطاوعه يمارس الحياة على اساس دوافعه وعواطفه الخاصة ، وقد ينحرف عن طريق الحق والعدل ، أيّد الاسلام والائمة غالباً ضرورة وجود الدولة ، واوجبوا تنصيب زعيم أو إمام او رئيس يمنع التظالم والتقاتل ويحول دون الاستغلال والاستعباد .

وقد أعطي هذا الزعيم أو الامام سلطة دينية وزمنية ، جعلته وفقاً لاغلب المصادر ، الآمر الناهي ، الذي يحرم الخروج عليه . فعن أبي هريرة ان الرسول (ص) قال :

---

(١) سورة ابراهيم . آية ٣٢ . والآية الثانية في سورة الجاثية آية ١٣ .

من أطاعني فقد اطاع الله ، ومن اطاع الامام فقد اطاعني ، ومن عصاني فقد عصى الله ومن عصى الامام فقد عصاني . وعن الحسن البصري ان رسول الله (ص) قال : لا تسبوا الولاة فانهم أن أحسنوا كان لهم الأجر ، وعليكم الشكر ، وان ساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر[1] . . . وعلى الارجح فان مثل هذه الاحاديث ، الموجبة للطاعة ، اختصت بالرسول مباشرة وربما ببعض قواده الثقاة المعروفين ، والدليل على ذلك وجود الاحاديث الرافضة للطاعة التي تحث على مقاومة السلطة الجائرة مثال : الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر . . . ، ومن رأى منكراً منكم فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك اضعف الايمان . . ، ومن مشى مع ظالم يعينه وهو يعلم انه ظالم فقد خرج من الاسلام ، وهو عكس موقف فرق الخوارج في العهد الاموي ، وحركات فرق المعارضة للامويين والعباسيين[2] فيما بعد .

وفي عصر النهضة ، تبنى الاعلام الكبار من علماء دين ومفكرين سياسيين ليبراليين فكرة مقاومة السلطة الغاشمة وطالبوا نتيجة لتشابك السلطات وتمازجها باتخاذ موقف واضح من ماهية علاقة السلطة السياسية بالسلطة الدينية . وقد عمل هؤلاء الاعلام ، من خلال عملية الفصل بين السلطتين الى إثبات هويّة الدولة القومية واقامة نظام ديمقراطي عادل من دون التضارب مع النزعات الدينية والمذاهب المختلفة . مثلها كمثل الدولة الاسلامية الأولى ، التي عملت لمبدأ التضامن الديني والتعاون الاجتماعي والاقتصادي ، وذلك عندما نجحت في اصلاح المؤسسات الدينية والسياسية ، والقضاء على العصبية القبلية التي طمستها الحياة الانسانية الجديدة ، وتمكنت من تكوين دولة في إطار امة ، لها سيادة وقوانين وتشريعات خاصة بكل الطوائف والمجموعات الدينية من يهود ومسيحيين ومسلمين . وهنا نلفت النظر الى ان غاية هذه الدولة لم تكن على الاطلاق ، دولة حظوظ لفئة من الناس ، ولم تكن ايضاً غاية في حد ذاتها ، بل كانت دعوة قائمة على العدل والمساواة والاخوة ، وتبليغ الدعوة في داخل الجزيرة العربية وخارجها[3] .

---

(١) هادي العلوي : في السياسة الاسلامية . دار الطليعة . بيروت ١٩٧٤ ص ١١٨ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٣) حمادي العبيدي :الدعوة الاسلامية وظهور الدولة . الدار التونسية للنشر . ص ٩١ ، ٩٢

والدليل على ذلك ان الرسول (ص) لم يوص بالخلافة من بعده لاحد ، كما انه لم ينص على نوع السلطة وطريقة نظم الحكم فيها ، مع العلم انه أمر ابا بكر ان يصلي في الناس ، باعتبار ان الغاية الاساسية للدولة ، هي الحفاظ على ديمومة الدين واستمراريته ، ونشره بين الناس ، وان الدولة في ظل الاسلام لا تمنح المؤسسة الدينية اية سلطة ، مؤكدة ان الانبياء والمرسلين ، اختصت دعوتهم في العبادات وقضايا التحليل والتحريم الديني ، وفي توجيه الناس وارشادهم الى طريق الحق والعدل ، لا في علم الغيب ولا في الشفاعة من لدن الآلهة : « وقل لو كنت اعلم الغيب لاستكثرت في الخير » ولهذا كان تأكيد الله للرسول على الدوام انه بشر مثل بقية البشر « قل اني انا بشر مثلكم ، يوحى اليّ إنما الهكم واحد ﴾[٦] وقد فوّض الله تعالى جميع ما يتعلق بامور الحياة المدنية والسياسية والاقتصادية الى أولي الأمر ، واهل الحل والعقد .

أشكال الحكم :

كثر الحديث في عصرنا عن إشكالية الدولة وتنظيماتها التشريعية والقانونية ، وأصبح النظام الديمقراطي ـ الشورى ـ يستأثر باهتمام البعض ، وهو نظام قائم على نصوص دستورية ، تقيّد السلطات وتحد من جموح تحكم الافراد ، كما اصبح النمط الرأسمالي عند البعض الآخر ، مثالاً لهم . ذلك النظام الذي طبع ، اقتصاده الحرّ ، الحياة العامة ، بطابع التفاوت الطبقي والتمايز الاجتماعي ، واذا ما عدنا الى قاعدة الدولة الاسلامية في عصورها الزاهية ، وعقدنا المقارنة ، فاننا نجد ان هذه الاخيرة استطاعت ان تحقق العدالة الاجتماعية على اتم وجه ، إذ كفلت الحريات الاجتماعية والسياسية والدينية ، وعملت بمبدأ الديمقراطية والشورى . ولكن المتغيرات التي طرأت على الحياة السياسية الاسلامية ، مع بروز الدولة الاموية وما تلاها ، جعل الامور تسير في غير مجراها الطبيعي ، واصبحت التعاليم الدينية والسياسية سلعة وتجارة في أيدي الحكام والامراء والملوك الذين راحوا يروّجون لفكريّة سلطاتهم الدينية ، ابتزازاً للشعوب واستغلالها . ونتساءل : هل استمر الوضع على هذا المنوال حتى عصر النهضة العربية الحديثة ، بحيث تمكن الحكام من

---

(١) سورة الكهف آية ١١٠ .

ان يستميلوا بعض رجال الدين الى جانبهم ، مقدمين لهم مختلف الاغراءات المادية والمعنوية؟ لكن اعلام النهضة وعلى رأسهم جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ، استطاعوا ان يزيلوا هذه الاشكالات ، وان يعارضوا بكل جرأة وشجاعة ، طروح الأنظمة السياسية الاسلامية في العالم ، مؤكدين ان الاسلام لم يكن يوماً مع الاغنياء المحتكرين ، ولم يأت لجباية الضرائب والمكوس الباهظة ، واقامة سلطة الفرد والتحكم برقاب الناس ، بل جاء لاحقاق الحق واقامة العدل .

ضمن هذا الاطار نعالج النقاط التالية :

السلطة الدينية والسلطة السياسية :

كثيراً ما استغل الحكام ، العنصر الديني تحقيقاً لمصالحهم الشخصية . وليس ادل على ذلك من زعم فرعون مصر وجود علاقة ، تربط ما بينه وبين سلطان السماء بغية تسخير الناس في بناء مقابر خلوده . وفي ظل الامبراطورية الفارسية اضفى كسرى صفة الشرعية على سلطته الجائرة ، كما احتكر كبار رجال الدين في الدولة القيصرية الرومانية السلطات السياسية فظُلمّ الناس وساد الذعر والخراب . وفي العصور الاخيرة تسربت هذه النظريات الى بعض قطاعات الفكر السياسي الاسلامي وخاصة مشيخة الاسلام العثمانية التي ايدت من قبل السلاطين المستبدين بسبب دعمها لفكرية السلطتين الدينية والزمنية وتوحيدهما في سلطة الملك . ازاء ذلك عارض مفكرو النهضة بقوة مثل هذا الطرح وأكدوا ان الاسلام ، بمختلف تياراته الفكرية ومَذاهبه ، رفض وجود السلطة الدينية ، ونفى ادعاء فرد او جماعة صفة الحديث باسم الله او إضفاء القدسية الالهية على ما يصدر من احكام وقوانين . فالافغاني كرر نفي الاسلام لوجود سلطة دينية مقترنة بسلطة زمنية معتبراً ان الاسلام لا يجعل لهؤلاء ادنى سلطة على العقائد وتقرير الاحكام . وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية (٧) . وقد ذهب بعيداً في نظرياته السياسية ، عندما جهر ان الاستعمار الحديث كثيراً ما يلجأ الى حركات دينية ، يصطنع وجهاءها ويحركهم باحاديثه السياسية الى ضرب الافكار التحررية والتطلعات القومية ، ولذلك

---

(١) د . محمد عمارة : تحديات لها تاريخ . المؤسسة العربية بيروت ١٩٨٢ ص ٢٣١ .

فضح الافغاني المتجِّرين بالدين ، الذين جعلوا منه سلعة تشرى وتباع ، وأدان العملاء وعَرَّاهم من لباسهم الديني المزيف الذي يسترون به خياناتهم ، وبهذا استطاع ان يعيد الأصالة الى الدين فيبرئه من وصمات الذل والخيانة التي ألصقتْ به زوراً ، من قبل المتدينين ، المتزمتين .ويذكر ان كثيراً من رجال الدين قد ارتبطوا زمن المماليك بالسلطة الحاكمة وتحولوا الى موظفين لديها ، الامر الذي جعل السلطان في ذلك العصر ، ظل الله على الارض وسيفه المسلط على رقاب العباد . واصبح الخروج عليه ولو بمعارضة ضعيفة كفراً . لكن اعلام النهضة ، لم يتركوا هذه المسألة تمر بسهولة . فقد تصدوا لها ، وعارضوا مزاعمهم واعتبروها نبتاً غريباً في روح الاسلام ومفاهيمه . فانبرى الامام محمد عبده ، يطالب بضرورة فصل السلطة الدينية عن السلطة الزمنية ، وهو لا يرفض الدين ، ولا ينكر تأثيره في الحياة البشرية ، بل على العكس ، أهاب بالاجيال الصاعدة ، ان تنكب على دينها وتراثها الانساني الخلّاق ، لتفيض بالاخلاق والقيم الرفيعة ، تنعم بالسعادة والحياة الحرة . وفي الوقت نفسه أفاض في نقد الزعامات الدينية ، التي اتخذت من مقامها الديني ، تجارة تدر عليها الاموال والهدايا،وشنَّ بالمقابل هجوماً قوياً على أنصار التغريب الليبراليين العرب ، الذين ارادوا ان يشوهوا تقدمية الاسلام ، ويفرضوا حضارة الغرب ومفاهيمه العلمانية اللادينية .

اما الكواكبي فقد وجّه انتقاداته الى العلماء المدلّسين الذين روَّجوا الأراجيف الدينية الكاذبة ، والخرافات القديمة ، وأوَّلوا الأيات القرآنية والاحاديث الشريفة ، فجلبوا الشر ، وضيعوا الدين وأهله[1] . حتى صارت الاوهام والهرطقات ، في القسطنطينية خاصة ، اشبه بطقوس دينية . ويزداد هجومه قوة وشراسة ، عندما يُقرِّعهم لإتخاذهم من اماكن العبادة ، تكايا لهم ، لسلب اموال الناس ، وإسرافهم في اغراق الملوك والسلاطين بالنعوت القدسية امثال : « حاكم امور ولاة الزمان » « واهب الحياة » ، « ظل الله » ، الى غير ذلك من مصارع الشرك والوثنية[2] .

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي : أم القرى . دار الرائد العربي . بيروت ١٩٨٢ ص ٣٩ .

(٢)راجع ذلك بتفصيل في كتاب صبح الاعشي ـ المختارات ـ السفر الثالث ، وزارة الثقافة دمشق ١٩٨٢ ص ٤٣٦ وما بعدها .

وربما عدّهم الكواكبي كفاراً ، بسبب محاربتهم جهراً لله ، خصوصاً وهم يتكالبون على عتبات الحكام طلباً للمجد والسؤدد والمكانة العليا . ولذلك تراهم ، كما يقول الكواكبي ، لا يرتضون بسرقاتهم الدينية ، فيعمدون الى مختلف انواع الدكاكين ليزيدوا جشعهم المادي ويذيقوا الفقراء العذاب والمهانة .

السلطة السياسية : دينية او مدنية

حيال هذه الأوضاع الخطيرة، بل قل ، ازاء تداخل الأمور وتضاربها ، كان على اعلام النهضة العربية ومفكريها ، اتخاذ موقف حاسم من مسألة السلطة السياسية . هل هي سلطة دينية ام سلطة مدنية ؟ في الواقع لم يتردد هؤلاء الاعلام في حسم هذه المسألة : فقد فصلوا السلطتين ، وحصروا صلاحية السلطة السياسية كاملة في الحكومة المنتخبة مباشرة من الشعب ، ورفضوا مزاعم رجال الدين الذين مزجوا بين السلطتين بحجة ان الله قد منحهما لمن ينوب عنه في حماية دينه ، وينفذ شريعته . حيث اكد الاعلام ان الرسول ترك هذا الامر شورى ، يتداوله اولو الأمر فيما بينهم لانتخاب الافضل . وكثيراً ما تحدث المؤرخون عن خساسة الاعمال وفظاعتها ، يوم تحكّم بالعباد رجال ادعوا الدين فجلبوا الويلات والهزائم ، وفقاً لما يذكره الدكتور محمد عماره في قوله « ولقد دفعت البشرية ثمناً باهظاً من التضحيات ، كي تتخلص من مثل هذه الفلسفات في نظم الحكم »[1] .

وقام الامام عبده بتقديم ثلاثة ثوابت تاريخية . اولاً ، ان الاسلام ليس فيه سلطة دينية : ثانياً له فقط سلطة الموعظة والارشاد والدعوة الى الخير ، والنهي عن المنكر والأعمال الشريرة ، ثالثاً واخيراً ان الاسلام جاء لتأكيد السلطة المدنية ، ومنع سلطان اي انسان على عقيدة الآخر وايمانه [2] .

ولهذا استنكر عبده بشدة الاجراءات القمعية والأوامر التعسفية التي لجأت اليها السلطات العثمانية الغاشمة المتسترة باسم الدين ، او باسم الخروج على دولة الاسلام . كل ذلك بغية القضاء على الحركات التحررية المعارضة لسياستها ،

---

(١) د . محمد عمارة : الاسلام والسلطة الدينية ص ٤٤ .

(٢) د . محمد عمارة : الامام محمد عبده مجدد الاسلام . ص ٨٩ .

واظهار ان ما يقوم به قد عرفته الدولة الاسلامية عبر العصور وخاصة في زمن الرسول والخلفاء الراشدين .

ولهذا دان الامام هذا الطرح ، مبيناً خطل هذه التهم والإدّعاءات الفارغة ، واكد ان السلطة في المجتمع الاسلامي ودولته تعود أولاً واخيراً الى السلطة السياسية ، وهيئتها المنتخبة ديمقراطياً ، وليس الى حكم السلطان وتفرده بالقرارات وبمقدرات الامة. وبرهان الامام ، ان الحاكم في دولة الاسلام يخضع لشروط وقيود ، ان خرج عليها وجب عزله . وهو ما تحقق في الفتوح والحركات الاسلامية التي كانت منطلقاتها سياسية لا دينية ، أشعلها تباين الافكار في أنظمة الحكم السياسية ، والتي جعلت الامام عبده يعارض حكم الاتراك للعرب ، لمجرد الرابطة الدينية الاسلامية . وهو إن طالب بضرورة الالتفاف حول الجامعة العثمانية الاسلامية ، فقد عاد الى خوفه من خضوع البلاد لبراثن الاستعمار والى الرغبة في اصلاح الخلافة الدينية ، كما يتجلّى ذلك في موقفه المعادي للسلطة التركية في محاولتها ، العودة الى حكم مصر ، والغاء المكاسب التي جعلت مصر على عتبة الاستقلال الذاتي . ولمّا حاولت تركيا ، اثناء ثورة أحمد عرابي استغلال الأحداث وارسال قوات الى مصر للسيطرة عليها ، اعلن امامنا موقفه صراحة ، في رسالته الموجهة الى صديقه الايرلندي المستشرق بلنت وقال : والآن اريد ان ازيل من العقول هذا الوهم السائد ، في ادعاء البعض ان عرابي او الحزب الوطني ، آلة في يد الاتراك ، وان كل مصري ، سواء كان من العلماء أم الفلاحين او الصُنّاع او التجار او الجنود . . . يكره الاتراك ويمقت ذكرهم ، ولا يستطيع مصري ان يفكر في نزول الآتراك ببلادنا دون ان يشعر بعاطفة قوية تدفعه الى امتشاق سيفه ، والهجوم على هذا المعتدي . . .[1] . . . »

ويذكر « بلنت » نفسه ، ان قادة الثورة العرابية امثال : محمود سامي البارودي وعبد الله النديم ومحمد عبده كانوا يلعنون السلاطين والامم التركية من عهد جنكيز خان وهولاكو الى عهد عبد الحميد . وهكذا يتبين جلياً ان اساتذة النهضة قد

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٠ ، ١١١ .

وضعوا الامور في نصابها الصحيح ، فلم يخلطوا بين الدين والسياسة من جهة وحددوا للسلطات المدنية المسؤولة عن سياسة الدولة عامة ، قوانين وتشريعات ، تصون البلاد من افتآت الحكام من جهة اخرى ، ولهذا عارض رفاعة الطهطاوي التعصب الديني وعده من مخلفات القرون الوسطى ، ودعا الى حماية الدين الحنيف من افكار المتعصبين ، الذين لا يعرفون منه ، الا نصوصاً جامدة ، وخاصة اذا كان ذلك التعصب مشرَّعاً من الدولة والمسؤولين فيها . كما في قوله : « ان الملوك اذا تعصبوا لدينهم ، وتدخلوا في قضايا الاديان وارادوا قلب رعاياهم المخالفين لهم ، فإنما يحملون رعاياهم على النفاق . . »[1] .

الطائفية بين الحكام واعلام النهضة :

كثرت الاسباب والدوافع لتكريس النعرة الطائفية الدينية . فمن تباينات دينية وتشنجات مذهبية ، ومواقف انتهازية لحكام سياسيين راحوا يؤججون نار الفتنة الدينية ، بهدف الكسب السياسي الى النزعة الطائفية التي غذتها البعثات الاجنبية والارساليات التبشيرية التي أمت البلاد في القرن الماضي . كل ذلك وغيره قد اعاق من تقدم البلاد وتطورها ، وجعلها ألعوبة في ايدي الدول الكبرى ، والمسؤولين عن السياسة العامة في البلاد ، الذين لم يتورعوا ، حفاظاً على مكاسبهم السياسية والاقتصادية ، ان يزجّوا البلاد في اقتتال داخلي وحرب اهلية ، لا يعرف عقباها . ان نظرة متفحصة للتاريخ القديم والحديث ، ترينا بوضوح بشاعة الاحداث الدموية ، وهوّل العواقب الوخيمة ، التي لولا تصدي قيادات وطنية ، وهيئات سياسية لها ، لكان الخطب اعظم والخراب أشمل، والسؤال الذي يطرح . ما هو دور رجال النهضة ومفكريها من هذه المسألة المزمنة ؟ وكيف تصدوا لها ؟ الجواب جاء واضحاً ومباشراً ، على لسان هؤلاء الاعلام الذين هزتهم الاحداث ، والطروح الطائفية والمذهبية المريضة ، فانبروا يؤكدون ان الاديان السماوية بريئة من كل الاعمال الاجرامية والهرطقات الدينية ، التي لا يقبلها دين ولا عقل ، لأن هذه الاديان سمحة وعادلة تنبذ التعصب ، وترفض الاقتتال ، وتوصي بالمحبة والاخاء . فالافغاني الذي ادرك اصول الدين وتعاليمه الانسانية ، وعي خطورة المرحلة التي تمر

---

(١) محمد عمارة : تحديات لها تاريخ ص ١٧٧ .

بها البلاد ، من جراء تحكم فئات رجعية ، استغلّت العنصر الديني ، الطائفي والمذهبي ، فأخذ يهاجم التعصب ويبين مساوئه ، داعياً الى المساواة والحرية ، من دون تمييز بين الأديان والمعتقدات المذهبية . وموقفه هذا لم يكن نابعاً من سبب طارىء ، او ظروف سياسية قاهرة ، وانما كان صادراً عن نظرة دقيقة الى انسانية الانسان ، وتفهم متقدم الى وحدانية الدين ورسالاته السماوية الثلاث ، « ووحدة الغايات السامية التي تنشدها التعاليم الأساسية ، المبرأة من الزيف والتحريف التي اشتملت عليها المنابع الأولى النقية لهذه الاديان »[1] . ويرى في تنافس الاديان - إن صح التعبير - الخير والمنفعة البشرية العامة ، على عكس الصراعات الحالية والاختلافات الدينية التي تجلب الشر والخراب يقول : « واما اختلاف اهل الاديان ، فليس هو في تعاليمها ولا أثر له في كتبها »[2] . ويؤكد ان المستفيدين من هذه الاوضاع الشاذة هم رجال الدين الذين تاجروا بدينهم ، وجعلوا طائفتهم حانوتاً للربح ، ومنجماً للذهب والفضة . وفي هذا المعنى ، جاء كلام الامام عبده ، عن مغزى الحكمة الآلهية في تعدد الديانات راداً كالافغاني ، الاختلافات بين اهل العقائد الى سياسة الملوك والرؤساء . ورأى ضرورة قيام وحدة وطنية ، ترعى مصالح البلاد من التفتيت والانقسام ، وهذا ما اكده في صياغته لبرنامج الحزب الوطني الذي ألّفه من رجال انتموا الى عقائد ومذاهب مختلفة ومن كل من يحرث ارض مصر ويتكلم لغتها ، وما جعله يلح على محاربة الانحياز الى طائفة او مذهب معين ، مشيراً الى ان التعصب ، يمجُّه الاسلام ، ويرفضه العقل السليم ، لأن في ذلك إنحرافاً فكرياً ، يلتقي مع المفهوم القبلي والعصبية الجاهلية الضيقة[3] ، وهكذا حرص رجال النهضة على انفتاحهم على الآخرين ، فاستوعبوا ثقافتهم وحضارتهم ، وعملوا بكل امكاناتهم على تجديد الدين ، وتصفيته من ادران فكرية العصور الوسطى .

---

(١) جمال الدين الافغاني : الله والعالم والانسان - المؤسسة العربية بيروت ١٩٧٩ ج ١ ص ٦٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٩ .

(٣) محمد ابو زهرة : الوحدة الاسلامية . دار الرائد العربي . بيروت ص ٧٥ .

فقد جهر عبد الرحمن الكواكبي على الرغم من سياسة التنكيل والتخويف التي مارستها حكومة الاستانة بحق الاحرار بضرورة تطوير الدين والاحتكام الى العقل وقال : « ما أحوج الشرقيين أجمعين ، من بوذيين ومسلمين ومسيحيين واسرائيليين وغيرهم الى حكماء لايبالون بغوغاء المرائين الاغبياء ، والرؤساءالقساة الجهلاء ، فيجددون النظر في الدين . . ويهذبونه من الزوائد الباطلة ، مما يطرأ عادة على كل دين يتقادم عهده . . »[1] . وهو في محاولته اصلاح الفكر الديني ، لم يكن يهدف الى الاصلاح الديني والثقافي فحسب ، بل كان وزملاؤه الاعلام ، يتطلعون الى الفكر السياسي العام ، وخاصة في معناه النضالي ، لتغيير حال بلادهم ، وتعميق النظرة الانسانية في مختلف اساليب الحكم .

الاصلاح الديمقراطي عند اعلام النهضة :

لقد عمد هؤلاء المصلحون الى بلورة المفاهيم الديمقراطية ، وجعلها نموذجاً للحياة ، في وقت ، كانت العقلية السائدة - حاكمة ومحكومة - لا تزال تتغنّى بما يملى عليها من فكرية القرون الوسطى ، والنظم الاقطاعية الجائرة ، داعين الى اقامة الدولة النموذج ، ذات الحكم الديمقراطي النيابي ، المقيد بالنصوص الدستورية ، مؤكدين سلطة الشعب ، ورقابته الكاملة على سلوكية الحكام وأعمالهم ، رافضين اي مجلس ، يأمر بتشكيله ملك او أمير ويكون اداة طيّعة في يده ، ووقفاً على ارادة من أحدثه[2] . كالذي فعله الأفغاني عندما نصح الخديوي توفيق باشا بالاسراع في انتخاب ممثلي الأمة وفي تمكين السلطات التشريعية والتنفيذية من ممارسة دورها كاملاً ، من اجل النهوض بالبلاد من حالتها المتردية ، وترسيخ قاعدة النظام الديمقراطي . ويستفيض في شرح حالة الأمم المحكومة من قبل سلطة دكتاتورية وفردية ، فيبين انها معرضة لارادة الحاكم ، ومشيئته ، إنْ كان حاكماً حازماً ، اصيل الرأي،ساس الامة بسياسة العدل ، ورفع فيها منار العلم ومهّد لها طرق اليسار والثورة وان كان جاهلاً شرهاً مغتلماً جباناً ضعيف الرأي . . . اسقط الامة بتصرفه الى مهاوي الخسران ، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل وجلب اليها غائلة الفاقة والفقر[3] ،

---

(١) محمد عمارة : تحديات لها تاريخ . ص ٢١١ .

(٢) مروة ،ومكروب، والعالم : دراسات في الاسلام . ص ١٨٠ .

(٣) الافغاني : الله والعالم والانسان ج ١ . ص ٣٢٩ .

لقد سخر الافغاني من بقاء الامة على هوى السلطان ، ورأى الخلاص في تجارب التاريخ وضربات المقهورين في الارض ، الذين تمكنوا من انهاء دول القياصرة واقامة دول تدين بالديمقراطية وبالمبادىء الانسانية . والغريب ان بعض الاقلام الهوائية ارادت تشويه سمعة هذا الرجل ومواقفه النضالية ، فادعت تأييده لقيام دولة ، يديرها حاكم منفرد مستبد ، فأصلح الخطأ عندما قال : « لا تحيا مصر ولا يحيا الشرق ، بدوله وإماراته ، الا اذا اتاح الله ، لكل منهم رجلاً قوياً عادلاً ، يحكمه بأهله على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان ، لأن بالقوة المطلقة الإستبداد ، ولا عدل الا مع القوة المقيدة » [1] ولذلك اعتبر مبدأ الشورى في الاسلام ـ الديمقراطية في المجتمعات الليبرالية الحديثة ـ من أهم قواعد الانظمة السياسية المتحررة ، ورأى الافغاني في حال الخروج على هذا المبدأ والإخلال بمبادئه ، ضرورة الثورة على الدولة ، والاطاحة بالحكم ، عملاً بما رُوي عن النبي (ص) :

« ما خاب من استخار ولا ندم من استشار » [2] . ان اعلام النهضة استهجنوا حدوث مثل هذه الانظمة الديكتاتورية في دولة الاسلام الذي لا يعتز بذليل ، وعَدوّها غريبة عليه ، لا تتوافق مع عقلية المسلمين وعاداتهم ، خصوصاً وان احاديث الرسول (ص) ومواقفه واضحة ترفض التفرد ، وتنكر الاستبداد بالرأي : فالرسول في بدر وأحد قد استشار الصحابة حين علم بخروج قريش من مكة للحرب ، ونزل عند رأي الاكثرية المخالفة لرأيه . ورأى ابن تيمية ان الرسول (ص) كان يطلق الشورى في الأمور المدنية والسياسية ، وفي كل امر لم ينزل به وحي . « ليعلم الحكام من بعده ، انه لا يستقيم امر المسلمين الا بالشورى[3] » .
والخليفة عمر بن الخطاب كان له نوعان من الشورى : احدهما شورى خاصة مؤلفة من كبار علماء الصحابة ، والثانية عامة حيث يكون التقرير فيها لأمر خطير ، ذي شأن مثل موقفه من قضية ترك ارض العراق وفارس في ايدي زارعيها [4] . وقد ثبت

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٣ .

(٢) محمد ابو زهرة : الوحدة الاسلامية ص ٢٤٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٥٠ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٢٧ .

فعلاً ان واقع الدول الاسلامية المتخلف ، او المتقوقع على ذاته والمنعزل عن تيارات المدنية الحديثة ، يعود بالنتيجة ، الى هوية النظام ، وطبيعة السلطة الفردية والاستبدادية وليس الى طبيعة الدين الذي تدين به الدولة . وهذا ما اكده الكواكبي في رده على مزاعم بعض العلماء المغرضين في أنَّ مشاركة الامة في تدبير شؤونها . . . يخلُّ بنفوذ الامراء ، ويخالف السياسة الشرعية [١] . . وانتقد في الوقت نفسه المشتغلين بالدراسات الاسلامية السياسية ، الذين رأوا في الاسلام سلطة استبدادية ، تتنافى مع الديمقراطية السياسية ، مستغرباً مثل هذا التحامل على الاسلام الذي لا يستطيع الحاكم باسمه أصلاً ان يخرج عن الاحكام الشرعية التي هي قاعدة القوانين السياسية .

اما الامام عبده فقد تعقب المستبدين ودحض افتراءاتهم مؤكداً وجود سلطتين تشريعيتين ، سلطة المولى التي تصور الذات الإلهية وتوضح المعتقدات الدينية ، وسلطة الرسول واولي الأمر البشرية ، التي كان ميدانها متعلقاً بجميع المسائل الدنيوية ، من امن وحرب ومسائل سياسية واجتماعية وادارية وغيرها . واذْ فصّل « الامام » هذه المسألة بقوله : « وشاورهم في الامر العام الذي هو سياسة الامة ، في الحرب والسلم والخوف والامن وغير ذلك من مصالحهم الدنيوية »[٢] . فقد اعتمد اساساً على أقوال الرسول (ص) : انتم اعلم بأمور دنياكم . « وقوله »: ما كان من أمر دينكم فإليّ وما كان من دنياكم فأنتم اعلم » .

الدولة الاشتراكية عند اعلام النهضة :

وكما جاهد هؤلاء الرواد ، من اجل نشر الديمقراطية البرلمانية والسياسية ، فقد دافعوا عن المساواة الاجتماعية والاقتصادية ورفعوا لواءها واعلنوا وجوب مساواة الجميع أمام القانون ، من دون تمييز بين جنس ولون او طائفة ، إن في الحماية والعقاب ، او في مراكز الدولة ومناصبها . قال تعالى : ﴿ إن اكرمكم عند الله

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي : ام القرى ص ٥٢ .

(٢) د . محمد احمد خلف الله : القرآن والدولة . المؤسسة العربية للدراسات ١٩٧٣ ص ٥٥ .

اتقاكم ﴾ وقال محمد (ص) : « الناس سواسية كاسنان المشط الواحد » ، «لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأحمر على اسود [1] » .

وهم في الوقت نفسه ، لم يهملوا موضوعة الكفاية والاشتراكية ، بل على العكس ، فقد صعّدوا من مواقفهم النظرية ودبجوا مقالات تؤيد نظرية دولة الاشتراكية ، وتناصر قضية التحرر الاقتصادي من الاستغلال والتبعية والاحتكار ، مطالبين باقامة الفرص المتكافئة لجميع الناس وفي الاستمتاع بالثروات الاقتصادية . هذا الموقف الواثق من الكفاية والاشتراكية جاء بعد ان طرحت اسئلة عن كيفية استساغة الظلم الاقتصادي والتفاوت الطبقي ، وقد خلق الله الانسان في مجتمع لا يستطيع ان يعيش الا بتعاونه مع الآخرين ، وباقامة علاقات اجتماعية متبادلة ؟ فنادى الاعلام بالاشتراكية ، وهم على ثقة أكيدة ، ان مختلف الشرائع والاديان السماوية التي أنزلتْ لخير الانسانية وسعادتها ، لا تعارضها ، بل تؤازرها وتعاضدها . أولم يحددها الاسلام بحتمية التعاون وتوزيع الثروات بين الناس ؟ ألم يكفل الغنيّ الفقير ، في الدولة الاسلامية الأولى ، ويحمي قويُّها ضعيفها ؟ . بهذه الثقة المطلقة لنظرية العدالة الاجتماعية ، دعا اعلامنا الى قيام دولة الاشتراكية . وكانوا حقاً سباقين في هذا المضمار . ساهمت اشعاعاتهم الفكرية الجديدة في تقدم حركة الفكر العربي الحديث . وخاصة عندما ربطوا قضية التحرر السياسي الخارجي من الاستعمار بالمسألة الاجتماعية والتحرر الاقتصادي ، وعارضوا مختلف المفاهيم الليبرالية التي تُبقي على التفاوت الطبقي والتمايز الاجتماعي. ونلفت النظر الى ان الاشتراكية ليست دخيلة على المجتمعات العربية ، كما يزعم البعض ، ولا هي ردة فعل على نظيرتها الغربية ، لأن هذه الاخيرة لم تكن بعْدُ قد ظهرت في حركات وتنظيمات ، لا في مصر ولا في سائر الدول العربية ، بل تنبع من صميم الأمة العربية التي رآها الكواكبي قد سبقت غيرها من الامم ، في تبني المفهوم الاشتراكي ، في دولتها الاسلامية التي لم تعرف ـ دائماً حسب الكواكبي ـ رتباً وألقاباً كما في قوله الذي تضمنته الابيات الشعرية التالية :

---

(١) د . احمد الحوفي : تحت راية الاسلام ، دار مطابع الشعب . القاهرة ١٩٦٥ ص ١١٣ .

ومنذ نشأتها امتازتْ بعفّتها عن البرية وَحْشيها وَحْضريها
بالاشتراكية الكبرى فلا رتَبٌ تنبي ذوي الجاه فيها عن ادانيها
ولا ضخامة القاب تميّز من بين الاعارف عُلْويها وسفليها[1]

ويعتبر الكواكبي الرسول (ص) امام الاشتراكيين عندما عالج مشكلة الفقر ، وساوى بين الجميع ، وأحدث أخوة صادقة لا تكاد توجد بين اشقاء يعيشون تحت سقف واحد ، وعائلة واحدة :

الاشتراكيون انت امامهم لولا دعاوى القوم والغلواء
والبر عندك ذمة وفريضة لا منة ممنونة وحباء
انصفت اهل الفقر من اهل الغنى فالكل في حق الحياة سواء »

ويبدو أن الكواكبي لا يؤمن بحصر ثروات البلاد العامة في يد قلة من البشر ، بل يراها ملكاً للجميع ، يجب الاستفادة منها ، وتجييرها لمصلحة المنفعة العامة ، مؤكداً ان المسلمين لوعاشوا في القرن التاسع عشر مسلمين كما ينبغي ، لعاشوا حياةرغدة، يتمناها أغلب دول عالم الغرب المتمدن [2]. وهو لذلك يدعو الى تحديد الملكية الزراعية كي لا يفترس المرابون الأرض ، ويهضموا عرق الفلاحين . مبّيناً ان الاسلام [الدولة الاشتراكية] قد ترك معظم الاراضي الزراعية ، ملكاً لعامة الامة ، يستنبتها ويتمتع بخيراتها العاملون فيها فقط [3] . واذا كانت بعض الاقاويل قد زعمت ان مفكري النهضة كالافغاني والطهطاوي عارضوا الاشتراكية وادانوها ، فان كتاباتها ومواقفها تنقض هذه الاتهامات وتؤكد تأييدهما للفكر الاشتراكي . فالافغاني اتهم بانتصاره لنظام الاقتصاد الحر والفكر الرأسمالي بسبب رسالته الفكرية الوحيدة . « الرد على الدهريين » التي كتبها في الهند عام ١٨٨١ ضد طائفة هندية مسلمة ، تبنت موقفاً اوروبياً متطرفاً ، وتعاونت مع الاستعمار الانكليزي . ورأت في وجوده عاملاً حضارياً لنقل الحضارة الأوروبية الى

---

(١) ـ (١) المصدر نفسه ص ١٢٥ .

(٢) عبد الرحمن الكواكبي : ام القرى ص ٦٠ .

(٣) د . محمد عمارة : مسلمون ثوار . ص ٢٢١ .

شعبها المتخلف . ولئن تناولت رسالته هذه نقداً لاذعاً لافكار الثورة الفرنسية والنظرية الاشتراكية والشيوعية ، فاننا نعتقد انها جاءت في سياق موقفه السلبي من الطائفة المذكورة . ودليلنا ان اسمه سرعان ما اصبح متألقاً في عالم الدفاع عن الاشتراكية والاشتراكيين ، وبخاصة في « خاطراته »، التي كتبها في عام ١٨٩٧ ومنها هذه الكلمات التي تعبر عن نبوءة مبكرة بالاشتراكية ، وان قل نصراؤها اليوم (اي الاشتراكية) فلا بد ان تسود في العالم ، يوم يعم فيه العلم الصحيح ، ويعرف الانسان انه وأخوه من طين واحد او نسمة واحدة ، وان التفاضل انما يكون بالانفع في المسعى للمجموع[1]. وبذلك يرى في الدولة الاشتراكية النظام الأمثل لرخاء الانسان وسعادته داحضاً من يزعم ان الاشتراكية التي تضمن حقوق الكادحين ، منافية للدين ، ومبيّناً بادلة قاطعة ، ان أول من دعا الى مثل هذه الدولة ، الرسول (ص) نفسه وكبار الصحابة[2] . لكنه ميز الاشتراكية الاسلامية عن اشتراكية الغرب التي اتت حسب قوله كردة فعل على انظمة التعسف والجور من جهة ، وكانتقام ثوري من قبل العمال والمحرومين ، تجاه من يكدسون الثروات ، من جهة اخرى . بينما اتت اشتراكيته منسجمة مع مفاهيم اهل البادية واخلاقهم التي عمل بها، اكابر الخلفاء الذين انشأوا مجتمعاً تعاونياً يقوم على اشتراك عموم الناس فيه ، بمنافع الحياة وخيراتها . الا ان موقفه السلمي من الاشتراكية لم يجعله اطلاقاً يعادي ثورة المتألمين المسلحة ، بالرغم من كون التراث الاسلامي للمسألة الاجتماعية ، احد المصادر الهامة عنده . فقد ايد الثورة المسلحة ووقف الى جانب الكادحين ، يندد بالملوك والامراء، الذين يكنزون الذهب والفضة ويدعو الى الثورة عليهم .

ونتساءل : هل وافق بقية الرواد نظرة الافغاني الى الاشتراكية ؟ ان المعطيات التي بين ايدينا تظهر ان الامام عبده ـ رائد حركة الاصلاح العام ـ كان اقل حدة من استاذه الافغاني حيث ركز على مثالية التعاون وطالب بالحقوق العامة في اطار مساعدة الفقير حقاً معلوماً من أموال الاغنياء على قاعدة الزكاة الاسلامية . فهو القائل : « وقد اغفل اكثر الناس هذه الحقوق العامة التي حث عليها الكتاب العزيز ، لما

(١) حسين مروة ومحمد دكروب و. . . : دراسات في الاسلام ص ١٩٠ .

(٢) ز . ك . ليفين : الفكر الاجتماعي والسياسي . ترجمة بشير السباعي . ص ٢٨٤ .

فيها من الحياة الاشتراكية المعتدلة الشريفة[1] ». فالامام كما نظن دعا الى الاشتراكية من خلال حركته الاصلاحية العامة ، التي طالت مختلف قضايا البلاد من دينية وفكرية وسياسية واجتماعية ، وحض على التعليم وإصلاح خُلق الانسان للانتقال بالمجتمع الظالم الى حياة عادلة وهذا ما جعله يحث على نشر الوعي بين الكادحين والمظلومين ويؤيد النشاطات والدعوات الرافضة للظلم الاجتماعي ، طالباً من مسؤولي البلاد ، وضع قيود على حرية التجارة والصناعة ، بهدف نمو الامم الضعيفة الواقعة تحت سلطان الرأسمال الحر والامتيازات الاجنبية . وهو في الوقت نفسه ، كالافغاني يندِّد بحصر الثروات في يد قلة من الناس تُختزن للاستغلال والاستثمار .

اما الطهطاوي فقد تراوحت الاقوال فيه : فهو صاحب اتجاهات انسانية ، تعارفت عليها الاديان ، او هو الرجل الذي عرف الاشتراكية اثناء اقامته فيباريس بين ١٨٢٦ ، و١٨٣١ . او هو ذو نزعة راديكالية او ليبرالية اراد الاصلاح على الطريقة الأوروبية والنظام الرأسمالي ، وذلك من خلال جملة انتقادات كان الطهطاوي قد وجهها الى الفكر الاشتراكي وهاجم فيها سان سيمون (١٧٦٠ - ١٨٢٥) شاملاً كل الافكار المماثلة له في التاريخ كحركة القرامطة والمزدكيين [2] .

والواقع ان الطهطاوي الذي اعجب بحضارة اوروبا وبطريقة تقدمها ، ايَّد النظام الرأسمالي الذي عرفته اوروبا بعد تصفية الاقطاع الذي كان الشرق يئن من نظامه الجائر وقيمه الاقطاعية ، التي حالت دون النمو الرأسمالي للبلاد . وأعتقد ان الطهطاوي اخذ النمط الرأسمالي كقاعدة مادته لتطور الاقتصاد والعلاقات الاجتماعية . وكان بذلك تقدمياً ، اذ نفذ من خلال استيعابه لطبيعة المرحلة الاقطاعية التي تعيشها البلاد ، الى صياغة نظريات ساهمت في تطوير الفكر العربي الحديث ، والاسراع في تصفية مرتكزات الاقطاع ومفاهيمه الاستغلالية . وحَسْبُ الطهطاوي ، أنه كان من اوائل الرواد ، الذين وضعوا مقاييس جديدة للحياة ، عندما رفع من قيمة الفقراء وعملهم ، وفضَّلهم ، شرفاً وقيمة ، على الاغنياء قائلاً : « فمن كان ممولاً مترفاً كانت الفضائل اصعب عليه ، اما الفقراء فالامر

---

(١) د . محمد عمارة : محمد عبده مجدد الاسلام . ص ١٨٢ .

(٢) د . محمد عمارة : تحديات لها تاريخ ص ١٧٩ .

عليهم اسهل »[1] . وكانت نزعته المؤيدة للعمل هذه ، احد المؤشرات الهامة التي قادت البلاد لاحقاً الى تبني نظريات جذرية ، ضد أبشع انواع الاستغلال . فقد وقف الى جانب الفلاح ضد استغلال الاقطاع ، لكنه لم يسطل حق التملك للأرض ، الأمر الذي باعد بينه ـ حسب بعض الأقوال ـ وبين الاشتراكية ، خصوصاً بعد ان طالب بحرية التجارة والصناعةوانشاء الشركات المساهمة ، وتأسيس البنوك .

أن اعظم حرية في المملكة المتمدنة : حرية الفلاحة والتجارة والصناعة . . . وقد ثبت بالأدلة والبراهين أن هذه الحرية من اعظم المنافع العمومية ، وان النفوس مائلة اليهامن القرون السالفة ، الى هذا العصر [2] .

ولذلك نميل الى الاعتقاد بأن **الطهطاوي** لم يفكر بالاشتراكية ، لأن تفكيره وطبيعة المرحلة التي عاشها . كانت تتطلب تصفية الاقطاع وكسر قيوده التي اثقلت كاهل الرعايا والدولة معاً . وارساء قواعد الفكر البورجوازي الليبرالي المتطور . فعلى سبيل المثال ، في حديثه عن المساواة ، اكد انها نسبية ، يحميها القانون ، من دون ان يتطرق الى المساواة في الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية كشأن الاشتراكيين ، وهو موقف أئمة المفكرين البورجوازيين الذين ارسوا دعائم الثورة الفرنسية في إعلان حقوق الانسان [3] . واخيراً حسب **الطهطاوي** أنه كان مبرزاً في تقدم الفكر الحديث ، خصوصاً في حديثه المستفيض عن نظرية العمل ، وحق التملك وان لم يناقش في آثاره الفكرية ، العلاقة بين العمل وبين ملكية ادوات الانتاج ، في ميدان الصناعة ، لأن مثل هذه المسائل ، لم تكن مطروحة كما بيّنا او بالأحرى لم يكن وجودها قوياً [4] .

وهكذا جمع مفكرو النهضة العربية الحديثة ، على ان الامة العربية ، التي

---

(١) الاعمال الكاملة للطهطاوي : دراسة محمد عمارة ، ج ١ ص ١٧٩ .
(٢) محمد عمارة : تحديات لها تاريخ . ص ١٨٠ .
(٣) الاعمال الكاملة للطهطاوي : دراسة محمد عمارة ، ج ١ ص ١٨٥ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٩٠ .

تمتّعتْ في ظل الدولة الاسلامية الكبرى بالسيادة والعدل ، تغير حالها في الازمنة اللاحقة ، وعاشت حياة مثقلة بالذل والمهانة وقد أخذ ذلك يتقلص تدريجياً في العصر الحديث ، في ظل خطى التحرر السياسي والاقتصادي الوئيدة ، وذلك بسبب تخفّي النظام وراء العمائم الواسعة والطيلسانات المفعمة بالأبهة ، وتستُّر أصحابها على مظالم مختلف الدول ، الملكية منها والجمهورية ويجهدون العقل لإضفاء المنطقية والعلمية على تحركاتهم المشبوهة . لكن عظمة التاريخ ، هي كونه لا يعود الى الوراء ، بل يتسلح بالتراث الخلاق لينطلق من جديد لبناء المستقبل المشرق ؛ وهكذا أمتنا اليوم التي تيقظت لواقعها المؤلم تتجه نحو إيديولوجية عربية علمية تعتبر النظام القومي الديمقراطي الاشتراكي هو الأمثل لتحقيق آمال الناس وتطلعاتهم ، مؤكدة ان هذا النظام لا يجافي الدين ولا ينافي تعاليمه ، بل ينبع من دستوره العام وتعاليمه الانسانية . خصوصاً وانه يكشف طروح رجال الدين المريضة ، ويفضح ممارسات دعاة البورجوازية والليبرالية غير الانسانية .

الفصل الثالث

الاستشراق ومواقفه من العروبة والاسلام

يعتبر موضوع الاستشراق من اهم موضوعات عصر النهضـة العربيـة الحديثـة ، لما له من بصمـات بيّنة عـلى الحياة العـربية والاسـلامية ، وبخـاصة بعـد أن توضحت أهداف بعض مدارسه ، التي تلاقت مـع دعوات التبشـير ، في تشويـه التاريـخ العربي والاسلامي ، وتتبع اخباره الساقطة والضعيفة ، من اجل السيطرة والاحتلال .

علاقة الاستشراق بالحروب الصليبية :

اثبتت الدراسات الحديثة ، أن الحروب الصليبية التي خـاضتها دول أوروبـة ، في عصـورها المظلمة ، لم تكن لاحتـلال مدينـة الـقدس ، لأنّ العـداوة بـين الشـرق والغـرب سياسيـة واستعماريـة . ودليلنا خـطبة البـابا الشهيـرة أربـان الثـاني ، الـذي حرّض فيها ملوك اوروبة ، على غزو بلاد الشـرق ، للقضاء عـلى اتباع محمـد ، وذبح انصـاره ، الذين يفـرضون سلطانهم ـ دائماً حسب قول البـابا ـ عـلى بيت المقـدس ، ارض المسيـح . . .[1] . وكلمـة اللورد اللّنبي الـذي كشف فيهـا ، بعـد أن استـولى على القدس ، في الحرب العالمية الأولى ، عن عدم انتهاء هذه الحـرب الاستعماريـة ، عنـدما قـال : « الآن انتهت الحروب الصليبيـة » . وكـذلـك تسميـة وزيـر خـارجيـة بريطانية لويد جورج هذه الحرب بالحروب الصليبيـة الثامنـة والأخيرة[2] . كـلّ ذلك

(١) د . نجيب الكيلاني : الاسلامية والقوى المضادة . مؤسسة الرسالة ١٩٨٠ ص ١٣٤ .

(٢) جلال العالم : دمّروا الاسلام ابيدوا اهله . مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٤ ص ٣٣ .

يثبت استمرارية هذه الحرب التي اخذت طريقة جديدة ، منذ أن تداعى رجال السياسة الاوروبية ، لوضع خطة تلائم المرحلة الجديدة ، وتكفل لهم احتلال القدس ، واعادة الاراضي الاسلامية ، الى السيطرة الاوروبية . وقد تبلورت الخطة الجديدة باستخدام حركات التبشير والاستشراق ، بدلاً من الحروب المسلحة ، لغايات سياسية ، ضاعفت من حقد الاوروبيين وتعصبهم . وكان المستشرق الاسباني ريمون رول ، الذي تعلم العربية ، وجال في بلاد المسلمين ، وناقش علماءها ، أوّل من استخدم هذا السلاح الجديد ، ونادى بايجاد كرسي للدراسات الشرقية والاسلامية ، في جامعات اوروبة ، وذلك للاسباب الثلاثة التالية :

١ ـ ايجاد دراسات تاريخية ودينية ، تشوّه الاسلام ، وتحط من تعاليمه وقيمه .

٢ ـ ادخال مفاهيم الغرب العصرية ـ العلمية والمادية ـ للطلاب الموفدين من البلاد الشرقية .

٣ ـ القضاء على قوة العرب والمسلمين ، والسيطرة على بلادهم .

وهكذا تسلل المستشرقون والمبشرون معاً الى بلاد العرب والاسلام ، واخذوا ينفثون سمومهم ، ويحيكون مؤامراتهم مستخدمين المدارس الرهبانية ، والمعاهد التبشيرية التي فشلت الدولة العثمانية ، في اغلاقها ، بسبب ضغط دولها الاوروبية (١).

لقد أساء المبشرون استخدام الروح الدينية السمحاء ، كما أساء بعض المستشرقين استعمال العلوم ، عندما حولوها لمصالح دولهم السياسية ، وجعلوا الغرب في مواجهة عسكرية مع الشرق ، الذي مدّهم بمختلف انواع العلوم والمعارف الانسانية . ولهذا نحن نتقبل بارتياح مفهوم الاستشراق عندما يقوم على معرفة الاروربيين لغات الشرق ، وأديانه السماوية ، ويطلع على علومه وثقافاته المتنوعة ، انطلاقاً من حاجة الانسان للتعاون مع اخيه الانسان ، للتغلب على الصعاب ، التي تعرقل تقدمه وتطوره . اما الذي لا نستسيغه ولا نقره ، فهو تحول عملية التبادل المعرفي والثقافي بين الامم والشعوب الى منفعة سياسية ، يراد منها التحكم

---

(١) د . مصطفى الخالدي و د . عمر فروخ : التبشير والاستعمار . ص ١١٨ .

والسيطرة . وهذا ما حدث مثلاً لأوروبة ، التي اتصلت بالشرق ، إبان الحروب الصليبية عبر بلاد الأندلس ، واخذت عنه علومه المتنوعة ، بعد ان درس أبناؤها في الأندلس وتعلموا في مدارسها وجامعاتها ، وخاصة في جامعة طليطلة ، التي بقيت لغتها العربية - الثقافية والفكرية - قبلة طلاب العالم ، لمدة طويلة ، وظلت الفلسفة الاسلامية وبقية العلوم العربية ، تدرس في اوروبة لقرون عدة . علماً بأن كتابات ارسطو لم تكن تفهم الا بشروح ابن رشد ، وان طب ابن سينا ، كان أمثولة لكل مشتغل بالطب . في حين كانت اوروبة ، تعيش في ظلام قاتل ، يقول المستشرق الهولندي رينهرت دورزي (١٨٢٠ - ١٨٨٣) الذي اشتهر بدراساته المتنوعة عن تاريخ العرب الحضاري في اسبانيا ، « إنه لم يكن في كل الأندلس أمي ، يوم لم يكن في كل اوروبة ، من يعرف القراءة والكتابة ، الا في الطبقة العليا من القساوسة » .[1] وهذا ما عبّر عنه روجيه جارودي حين تحدث ، على لسان احد المؤرخين متسائلاً ، عن أسوأ يوم عرفته فرنسا ،فأجاب بلا تردد « هو عام ٧٣٢م تاريخ معركة « بواتيه » حيث تراجعت الحضارة العربية امام البربرية الافرنجية[2] .

وهكذا يتبين ان كثيراً من رجال الاستشراق ، بعد ان نقلوا حضارة العرب ومعارفهم الى لغاتهم ، اساءوا الى اللغة العربية وقذفوا تاريخها بأبشع النعوت . ونرى ان معظم القضايا الهدامة ، والأخطار التي بمعظمها ابتليت بها المنطقة العربية والشرقية - الدينية والاجتماعية والسياسية - هي بمعظمها من صنع هؤلاء المستشرقين ، الذين لا يتميزون بشيء عن المبشرين . وهذا ما اوضحه مصطفى السباعي بعد لقاءاته لعدد من المستشرقين في دنى الاغتراب ، في حديثه الذي أشار فيه الى « أن المستشرقين في جمهورهم ، لا يخلو احدهم ، من ان يكون قسيساً او استعمارياً او يهودياً ، وان الاستشراق ينبعث من الدول الاستعمارية[3] . والحال ان مؤامرة الغرب على البلاد العثمانية ، لم تهدأ وبخاصة بعد ان ادخل السلطان العثماني محمود الثاني (١٧٨٤ - ١٨٣٩)

---

(١) د . عمر الدسوقي : في الادب الحديث - جـ ١ ص ٣٧٢ .

(٢) انور الجندي : الاسلام والحضارة . المكتبة العصرية - بيروت ص ٢١٤ .

(٣) د . مصطفى السباعي : الاستشراق والمستشرقون . المكتب الاسلامي بيروت ١٩٧٩ ص ٥٧ .

اصلاحات الغرب الى الدولة والجيش ، واستعان بالمناهج التربوية الغربية والتنظيمات الادارية والعسكرية . واخذت القوى التغريبية ، التي تربت في احضان الغرب ، وتبنت تعاليمه ، ترفع شعارات الثورة الفرنسية ، وأوْرَبة البلاد من جهة ، وتتهجم على المقدسات العربية والاسلامية من جهة اخرى ، زاعمة ان هذه المنطقة ، ستبقى بعيدة عن التقدم ، وغريبة عن روح العصر .

لقد عمل عدد من المستشرقين في تحوير مضامين الاسلام ، وتشويه مبادئه السماوية ، فالمستشرق الانكليزي هاملتون جب (١٨٩٥ - ١٩٧١) - احد اكبر المستشرقين المتزمتين - والذي عرف بكتاباته العربية ، الادبية والتاريخية ، كان يعتقد أن اتحاد المسلمين هو بمثابة لعنة على العالم ، اما اذا بقوا مشتتين ، فلا وزن لهم ولا تأثير . ويليه ارنولد توينبي الذي بفضل عنجهية بلاده الاستعمارية ، حذر ايضاً من تأثير وحدة المسلمين على الغرب ، التي كانت بعبع المستعمرين[١]، وان كان في مجال آخر ، قد اعترف بتسامح المسلمين مع الطوائف الأخرى ، وبأن الاسلام اكثر الاديان اتفاقاً مع المنطق .

وهذا ما يفسّر موقف الدول الكبرى المتناقض ، فعلى حين يرفعون في داخل بلادهم الشعارات العلمانية والملحدة ، نراهم في الخارج يؤيدون الدعوة الدينية ويشجعون المنادين بها . فامريكا التي تعبد الذهب والبترول ، قد غطّت المنطقة بمبشرين يزعمون انهم يدعون الى حياة روحية وسلام ديني[٢] .وفرنسا التي كانت تعادي في بلادها الحركة الدينية ، نجدها في الخارج تؤازرها . اما إيطاليا التي ناصبت الكنيسة العداء ، وحجزت البابا في الفاتيكان ، فقد بنت سياستها على التوسع والاحتلال .

وهكذا استطاعت المؤسسات الغربية - المحافل الماسونية مثلاً - ان تزرع الافكار المشبوهة ، وتغزو بعض العقليات الشابة . فباسم المعاصرة اخرج المسلمون

---

(١) صلاح الدين الايوبي :الاسلام والتمييز العنصري .دار الأندلس بيروت ١٩٧٢ ص ٢١٠ . . .

(٢) د . مصطفى الخالدي و د . عمر فروخ : التبشير والاستعمار ص ٣٤ .

من ذاتيتهم ، وباسم التحرر من العادات القديمة إتّهم المصلحون بنعوت الرجعية والجمود والتخلف . وهذا ما يوضح موقف فولتير العدائي من الاسلام[1] . والغريب في الامر ان البابا برنو الرابع عشر ، لم يتردد في مباركة فولتير ـ المعروف بعدائه للكنيسة ـ عندما اصدر مسرحيته محمد ، وتهجم فيها على الاسلام وتاريخه [2] .

اسباب الاستشراق ووسائله :

تركت الحروب الصليبية ، آثاراً سلبية على البلاد الأوروبية ، وخلّفت نزعات تعصبية ، طبعت الحركات الاستشراقية ، على الخصوص ، بطابع الحقد والاستعداء للاسلام وبلاده الشرقية . الأمر الذي حدا بعض المؤرخين ، ان يعيد سبب نشأة الاستشراق الى الناحية الدينية والسياسية ، في القرن الثالث عشر الميلادي ، عندما قصد بعض الرهبان بلاد الأندلس ، وترجموا القران ، وكثيراً من الكتب العربية ـ العلمية والفلسفية ـ الى اللغة اللاتينية . وقد انتشر الاستشراق ، وذاع امره ، بعد حركة الاصلاح الديني التي ، بحكم شروحها الدينية الجديدة ، اتجهت الى الكتب العبرانية ، ومنها الى الدراسات العربية والاسلامية ، حيث تلاقى التبشير والاستشراق في غاية واحدة ، وكوّنا اقنوماً واحداً . فاذا كانت الرغبة الدينية المسيحية اعتمدت طريقة التبشير للوصول الى المسلمين وجذبهم الى معتقدها ، فان حركة الاستشراق ومعها كثير من المبشرين ، احدثت تغييرات في التصورات الذهنية والعقلية ، واستطاعت ان تؤثر في الانشطة السياسية والقضايا الأيديولوجية .

ونحن في حديثنا عن اسباب الاستشراق ، التي اوجزنا دوافعه بنزعة التعصب الديني والاستعلاء السياسي ، نعترف بأن نفراً من المبشرين والمستشرقين على السواء ، كانت لهم دوافع شخصية ـ سياحة وأسفار ومغامرات ـ ممن تهيأ لهم المال والفراغ ، او حوافز ثقافية ، ممن اغوتهم فكرة الاطلاع على حياة الآخرين ،

---

(١) هشام جعيّط : اوروبة والاسلام . دار الحقيقة . بيروت ١٩٨٠ ص ٣٢ .

(٢) اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة .المكتب الاسلامي، بيروت ١٩٨٠ ص ١٢٥

والتعرف على احوالها الدينية والتاريخية والحضارية . . . لكن هؤلاء جميعاً لم يكونوا على درجة واحدة من الاخلاص في ابحاثهم المتنوعة ، على الرغم من ان معظمهم ادعى حب العلم ومنهجه العقلي ، تقصياً وراء الكشوف العلمية المجردة ، والحقائق التاريخية والحضارية الثابتة . إلا ان مؤلفاتهم على اختلافها ، ومقالاتهم المتنوعة ، اتت متناقضة مع مزاعمهم الواهية ، ومتوافقة مع اهوائهم الشخصية ، وذلك لسبب اساسي هو ان هؤلاء قد سخّروا العلم لمخططات دولهم السياسية والفكرية واغراضها المشبوهة .

ونستطيع ان نصنف الفرق الاستشراقية وطوائفها فئتين :

الاولى : طائفة اخلصت للدين وللحقائق العلمية والتاريخية ، من دون زيغ او هوى ، وهي على الرغم من قلة عدد عناصرها وضآلة كتابتها ، استطاعت ان تنصف شخصيات تاريخية بارزة ، وتنزّه الدين الاسلامي وتاريخه على الخصوص ، من الافتراءات المردودة والمغالطات الضعيفة ، التي قصد منها تثبيط الهمم عند المؤيدين ، واضعاف معتقدهم . وكان على رأس هذه المجموعة المستشرق ليوبولد فايس ، المعروف باسم محمد اسد ، الذي انصف الاسلام ورسوله ، وكتب بموضوعية عن منهجية الحكم الاسلامي ونظامه الذي هدف الى اقامة الدولة الدستورية المقيّدة ، التي تحمي المواطن وتصون الكرامة ، وتؤمن العدل والمساواة . وكذلك المستشرق والمبشر ابراهيم خليل احمد[1] ، الذي اكد ، بعد ان هداه الله الى الاسلام ، ان التبشير والاستشراق دعامتان من دعائم الاستعمار ، وانهما تقاسما الاعمال المقررة لغزو البلاد الاسلامية[2] .

الثانية : طائفة تعمدت الدس والتشويه ، وتقصت الهنات والهفوات ، التي عرفتها المجتمعات الاسلامية ، في مختلف المراحل . فضخمتها محاولة ان تجعل من التفاصيل والجزئيات ، قضايا عامة ، ملحقة اخطاء بعض الحكام المسلمين بالدين نفسه ، بغية اضعاف مواطن القوة ، واغتنام اماكن الضعف .

---

(١) لم اهتد الى اسمه الاعجمي الأصلي .

(٢) عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني : اجنحة المكر الثلاثة . دار القلم بيروت ١٩٨٢ ص ١١٢ .

اما عن وسائل المستشرقين والطرق المتبعة ، فتؤكد اكثر المصادر المتخصصة ، ان هؤلاء لجأوا الى مختلف وسائل الاعلام والدعاية ، ولم يتركوا منفذاً ، يؤمن مصلحة دولهم السياسية ، الا واستفادوا منه ، سواء عن طريق التأليف والنشر ، او عن طريق الجمعيات التبشيرية والمدارس والجامعات التعليمية والعلمية ، واقامة المؤتمرات . التي تجدّف من جهة بالقرآن ورسوله ، وتثني من جهة اخرى ، على مؤلفات المستشرقين واعمالهم الانسانية .

فعلى صعيد التعليم يقول رئيس الجامعة الاميركية سابقاً المستر ستيفن بنروز : « برهن التعليم على انه اثمن الوسائل التي استطاع المبشرون ان يلجأوا إليها في سعيهم لتنصير سورية ولبنان »[١٣] وضرب المجتمعات العربية والاسلامية ، وتفتيت مرتكزاتها الدينية والسياسية والاقتصادية . وهذا ما صرّح به ايضاً رئيس وزراء بريطانيا هارولد ويلسون ، في حديثه عن مصر ، التي عانت كثيراً من سياسة التعليم ، وبخاصة بعد ان وفد اليها في ظل الاحتلال البريطاني المستشرق الانكليزي دنلوب ، الذي أطلقت يده في السياسة التعليمية .

وعلى صعيد التأليف والنشر ، يُعتقد أن اخطر ما اتى به المستشرقون حتى الآن ، اصدار دائرة المعارف الاسلامية ، المترجمة الى عدة لغات ، والتي يعاد طبعها حديثاً . ومصدر الخطر هو التحريف في النصوص الدينية والاحداث التاريخية ، التي توافقت مع رغبة المستشرقين وتصوراتهم الغربية . ونظراً لأهمية هذا المؤلَّف ـ الموسوعة ـ فقد عبّأ كثير من هؤلاء المستشرقين اقلامهم ، وجندوا انفسهم في معرفة كيفية وضع السم في الدسم ، كي يستسيغ القارىء الأخبار والنصوص المحرَّفة . والأدهى في الأمر ، ان دائرة المعارف ، كانت ولا تزال حجة علمية ، ومرجعاً هاماً لكثير من الدارسين والمثقفين ، الذين تمكنوا من التسلل الى داخل الصروح العلمية والأكاديمية ، ولعب ادوار رئيسة وواضحة في توجيه الثقافة والسياسة حسب مخططهم المرسوم . وأصابع الاتهام تشير اليهم ، من خلال المجمع اللغوي في مصر ، الذي كان من أعضائه هاملتون جب ورينولد نيكلسون ، والمجمع العلمي في بغداد ودمشق الذي كان من اعضائه كارلو نالينو ، الذي تحوم حوله اكثر من شبهة في مواقفه من الاسلام ، هذا فضلاً عن المؤتمرات التي عقد اولها في باريس عام

١٧٨٣ ، ودامت الحال على هذه الطريقة حتى وقت متأخر من القرن الحالي ، حيث ظهر فشل هذه المؤتمرات وافتضحت الخطط ، فتقرر إلغاء صفة الاستشراق وأعلن ان الاجتماعات القادمة ، ستكون تحت اسم مؤتمر العلوم الانسانية [١] .

وقد شجعت الولايات المتحدة الاميركية في العصر الحديث الدراسات الاستشراقية ، فَرَعَتْ عام ١٩٤٧ الدراسات الاستشراقية في جامعة برنستون - أولى جامعاتها المهتمة بالدراسات العربية والحضارات السامية القديمة - وتبنّى المؤتمرون طرقاً اربعاً للنفاذ الى اعماق ثقافة الشرق الأدنى والتأثير فيها . وهي الفن والآثار والأدب والعلم والدين ، وبذلك تكون الدول الاستعمارية ، قد ضمنت السيطرة على مقدرات الامم الضعيفة ، واستطاعت عن طريق الانقسامات الداخلية تعزيز الروح الاقليمية والانعزالية ، وصنع كيانات محلية هزيلة . وهذا ما حدث للدولة العثمانية ، عندما تكالبت الدول الكبرى عليها ، بعد ان احيت العصبيات الضيقة ، وخلّفت نزعات عرقية وجنسية ، بغية تعزيز الركائز الانفصالية - الوطنية والقومية - التي تميزت - حسب المخطط المرسوم - بقيم مستقلة ومتغايرة . فبعد إقالة السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ١٩٠٩ ، بسبب موقفه المبدئي المعارض للتفريط بأرض فلسطين العربية والاسلامية ، استطاعت الماسونية والقوى الدولية المتآمرة ، القضاء على دولة مسلمة ، بعد ان ملأت الدنيا صراخاً عن الحريات الضائعة في الدولة العثمانية ، وافرطت في الثناء على الحركات السرية والعلنية المتأوربة . قالت دائرة المعارف الماسونية ، اثر نجاح انقلاب مصطفى كمال والغائه الخلافة الاسلامية : « أليس هذا الاصلاح هو ما تبتغيه الماسونية في كل امة ناهضة ؟ فمن يماثل اتاتورك من رجالات الماسون سابقاً ولاحقاً ؟ » [٢] . وليس بمستغرب إطلاقاً ان يبارك معظم المستشرقين فعلته ، وان يقوم ارنولد توينبي بتأليف كتاب « الخلافة » ليسوّغ ما فعله اتاتورك ويدافع عن اعماله . ظناً منه ان الاسلام دين عبادة ، وليس منهج حياة ونظام مجتمع متكامل .

---

(١) انور الجندي : اطار اسلامي للفكر المعاصر . ص ١٧ .

(٢) اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة . المكتب الاسلامي بيروت ١٩٨٠ ص ١٩٥ .

هـدف الاستشراق :

ان معظم المعطيات التي بين ايدينا - من ادبية وتاريخية وسياسية ودينية - تدين حركة الاستشراق وأهدافها المشبوهة ، وتربطها بعجلة السياسة الغربية ، التي لم تتردد يوماً عن استخدام مختلف الوسائل للوصول الى غاياتها الاستعمارية . ويمكن تلخيص أهداف حركة الاستشراق بنقطتين بارزتين :

الاولى : التبعية للغرب ، وخلق نوازع الاستسلام لقيمه المادية الحديثة - الاجتماعية منها والخلقية - واظهاره ، كما هو عليه من طروح مبدئيه ، ونظريات عصرية ، وكأنه شبكة خلاص للأجيال الناشئة من اوهامها القديمة وأدران القرون البالية ، التي ما زال الشرق العربي والاسلامي يخضع لها من دون وعي ومعرفة .

الثانية : بث روح التخاذل الديني بين المسلمين والتشكيك بالتاريخ العربي وقيمه الاجتماعية ، وذلك بايجاد نواقص مختلفة ، وافتعال احداث وهمية وتأويلات خيالية .

هذه الروح الهدامة ، وعاها عمر فروخ جيداً حين وصف حالة الاستشراق في بلادنا وغاياتهم : « بخلق تخاذل روحي في نفوس المسلمين ، وحملهم على الرضى والخضوع للمدنية الغربية المادية »[1] ، التي تنكرت من جهةٍ لمقومات امتنا العربية والاسلامية - التاريخية والحضارية - في ماضيها الطويل والعريق ، واستخفت من جهة اخرى باللغة العربية الفصحى ، وشجعت اللغات المحكية والعامية ، بهدف تقطيع وحدة الشعب العربي . وهذا ما توخته حركة الاستشراق من جراء تغريب العقلية العربية ، وترويج مناهجها التربوية والتعليمية ، واغراق المنطقة بفكرها المادي ، لتمكين الاستعمار - الثقافي والسياسي - من ان يفرض طروحه المختلفة ، ويتدخل في شؤون البلاد الداخلية . وهذا ما جعل معظم الدارسين لحركة الاستشراق يؤكدون ان عمل هؤلاء قد انطوى على نزعتين رئيستين :

الاولى : سيطرة الاستعمار الغربي وتمكينه من توجيه السياسة ، حسب مصالحه ، ومنفعته الخاصة .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣٢ .

الثانية : تشويه مواقف العرب والمسلمين ، وغرس شبهات حول مقدساتهم تحت غطاء البحث العلمي والغاية الانسانية العامة .

تجلت النزعة الأولى في اضعاف المفاهيم العربية ، وتأويل النصوص الدينية ، ووضع شروح وتعليقات منافية للأعراف العربية والتعاليم الاسلامية ، مما يقوّي فكرة الشك ويوهن الرابطة الدينية ، ويؤدي الى الانجرار وراء القيم الغربية . فالمستشرق الفرنسي أرنست رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) يصور عقيدة التوحيد في الاسلام بأنها عقيدة ، تؤدي الى حيرة المسلم[1] . وأن الديانة الاسلامية ، بشرية المصدر ، ومشوبة بتأثيرات المذاهب السامية الدينية السابقة ، في حين يقر رينان، بربانية المسيحية . اما المستشرق اليهودي اجنتس جولد تسهير (١٨٥٠ - ١٩٢١) فقد ادعى استمداد الاسلام من اليهودية وتأثيرها فيه ، وزعم في بحث القاه في المؤتمر الدولي للأديان ، الذي انعقد في باريس ١٩٠٠ بعنوان : الاسلام والدين الباريسي ، قائلاً : كان لدين دولة الأكاسرة تأثير في الاسلام ايضاً في اول عهده . ورأى ان الأحاديث النبوية هي من صنع القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، وليست من اقوال الرسول ، مرتكزاً على روايات ساقطة . أيّده من بعده المستشرق الانكليزي نيكلسون (١٨٨٥ - ١٩٤٥) الذي اكد بشرية القرآن معتبراً ان محمداً تأثر بتعاليم الديانات السابقة ، وحرّف في نصوصها ، وهذا ما جعل فقرات القرآن - على حد قوله - مضطربة : « والقارئون للقرآن من الاوروبيين لا تعوزهم الدهشة من اضطراب مؤلفه - وهو محمد - وعدم تماسكه في معالجة كبار المعضلات . . . »[2] ويمجّد نيكلسون في مكان آخر ، كغيره من المستشرقين ، فكرة التصوف الاسلامي في الحب الالهي ، ظناً منه انه يصرفهم عن الجهاد في سبيل الله ، منتقداً في الوقت ذاته فكرة الاله ، الذي يبسط رحمته على من يتقون غضبه بالتوبة والخضوع ، ويواصلون اعمال البر . . . مؤكداً انه إله خوف اكثر منه اله حب . »[3] .

(١) د . محمد البهي : الفكر الاسلامي وصلته بالاستعمار الغربي. مكتبة وهبة . القاهرة ١٩٧٥ ص ٤٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٠ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٩٤ .

وهكذا يتبين بوضوح ، ان هدف المستشرقين ليس اظهار الحقائق ، وجلاء الامور وكشف غوامضها ، لأن ديدنهم الحقيقي هو التشكيك والتقليل من قيمة الفقه الاسلامي وتشريعه ، الذي يردُّه بعضهم الى اصول الفقه الروماني . وكذلك الافتراء على الحضارة العربية ، وانتقاد لغتها الفصحى ، على اعتبار انها غير قادرة على مواكبة لغة العصر ، بأشكاله الجديدة ، ومضامينه الحديثة ، ونَعْت الأدب العربي بالفقر والجدب .

كل ذلك من اجل ان يبقى ادبهم مسلطاً علينا ، وتبقى لغتنا عالة على مصطلحاتهم ، يكيدون لنا ولحضارتنا وتراثنا ، ويلعبون بشعوب المنطقة على هواهم ، وحَسَب مصالحهم السياسية والاقتصادية .

أخطار الاستشراق ومكائد قواه العالمية :

أظهرت دراسات معظم المستشرقين ، نواقص المجتمع العربي والاسلامي ، واغفلت جوانب القوة والعظمة فيه . وقد تكلَّف المستشرقون في خلق قصص ، ونشر اخبار لإظهار عقم الفكر العربي والاسلامي ، وجمود مذاهبه ، التي لم تعد تتماشى ـ حسب رأيهم ـ مع عصرية القرن العشرين ، وحضارته الحديثة .

والمؤسف ان بداية اليقظة العربية الحديثة ، لم تكن مشجعة ، لأن كثيراً من كتّابنا قد تأثروا بحركة الاستشراق واتخذوا من نظرياتهم طروحاً علمية ، وقواعد ثابتة . لكن خمسينيات القرن الحالي ، أفرزت تصوراً مغايراً ونضجاً علمياً ملحوظاً ، من خلال تصدي بعض هؤلاء الكتاب للأفكار الاستشراقية ، حيث راحوا ينبهون إلى خطورة أعمالها ، وفداحة المكائد والمؤامرات التي تلحقها بالأمم الشرقية الناهضة . ولم يكتفوا بردودهم التي تدفع الفكر الغربي بالتعصب والكراهية ، بل عادوا الى تراثهم يستلهمون منه الحقائق الثابتة ، ويكشفون زيف ادعاءات المستشرقين وافتراءاتهم المتناقضة . فعلى حين يزعمون ان كتاب الله وشريعته حصيلة ثقافة محمد العالية ـ وهو الامي غير المتعلم ـ نراهم في مكان آخر ، ينقضون اقوالهم ، ويدّعون أنه استقاها من تجاربه ، ومن اليهود والنصارى ، او من فلسفات اليونان وشرائع الرومان ، حتى ان بعضاً آخر منهم قال انه من وضع الراهب بحيرى الذي صاغ الانجيل من جديد مضيفاً اليه تشريعات

تتوافق والزمن . من ذلك انّهم (المستشرقون) باسم تحديث الشرائع والمعاصرة المدنية ، يظهرون ان الشريعة لا تصلح لحكم البشر في العصر الحاضر ، من دون ان يأتوا بحجة علمية ، متناسين تعاليمها التي تحث من جهة على التعاون الاجتماعي والتضامن ، ومن جهة اخرى على المساواة والحرية والعدالة ، التي لم تعرفها القوانين الوضعية ، الا بعد الثورة الفرنسية .

واجه كتّاب النهضة هذه المزاعم واكدوا خطلها ، موضحين ان القانون الاسلامي ، يختلف في طبيعته واغراضه عن بقية القوانين الوضعية ، لأنه ليس من صنع فرد أو طبقة ، ليأتي منسجماً مع مصالح هذا الفرد أو الطبقة ، وانما هو من صنع الله وشرعه ، الذي سوى بين جميع الناس . ورد كتّابنا على تأويل الآيات وتحريف مفاهيمها في قوله تعالى ﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ﴾[1] ﴿ والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ﴾[2] . بأنه اعتراف منطقي بالامر الواقع ، وبالسنة الطبيعية للخلق ، ما دام الناس متفاوتين في استعداداتهم الفطرية وقدراتهم .

والواقع ان كثيراً من المستشرقين افتروا على الاسلام والعروبة ، ونظراً لكثرة هذه الافتراءات ، وتعددية اصنافها ، رأينا ان نلقي بعض الأضواء على القضايا الهامة التي استأثرت باهتمام روّاد الفكر العربي والاسلامي .

فعلى سبيل المثال ، عندما يتحدثون عن الكرد والعرب ، يبرزون فوارق الشعبين ، في الجنس والعقيدة والأهداف والعادات ، بغية خلق هوّة جغرافية وثقافية ، تمزق وحدة هذه الشعوب ، بحيث يصبح الاسلام ديانات متعددة ، وليس واحداً ، كاسلام الهند ، واسلام مصر ، واسلام تركيا . وهكذا . . .

وفي موضوع القضاء والقدر ، شوّهوا مفهومه ، وأنكلوه بأفكار التخاذل والتواكل والاستسلام ، وبخاصة في قضية الجبر والاختيار ، وهل ان الانسان يحيد عما تأمره ارادة الله ام لا ؟ وهل له ارادة مستقلة في اعماله ؟ الأمر الذي حيّر كثيراً

---

(١) سورة الزخرف آية ٣٢ .

(٢) سورة النحل آية ٧١ .

من العلماء والفقهاء ، فاعتبروه مما يشل قوى الانسان ، ويحمله على الاستسلام والرضا بما يقع منه وعليه [1]، متغاضين عن حقيقة المراد من قضاء الله وقدره ، ومن حكمته في ان جعل الامور تسير مطابقة لارادته وترتيبه ، على الرغم من تبيان ذلك في آيات كثيرة [2] .

كتّاب النهضة العربية وحركة الاستشراق :

تصدى كثير من كتّاب النهضة العربية الحديثة ، لكتابات المستشرقين ، وعارضوا تصوراتهم ، ونقضوا اراجيفهم ، وكشفوا اخطار حركاتهم ـ السرية والعلنية ـ التي تعمل مع الاستعمار ، وتتآمر على حرية الشعوب الناهضة واستقلالها الوطني ، تحت اقنعة وهمية ، وبأسماء مضلّلة اخرى .

ومن أبرز الاعتراضات التي وجهها اعلام النهضة للمستشرقين ، ردّهم على منْ اتهم القانون الاسلامي بالقدمية والبلى والرجعية من جهة ، وبالهمجية والوحشية من جهة اخرى ، لوجود نصوص في قانون العقوبات الاسلامي ، تدعو الى قطع يد السارق ، ورجم الزاني والزانية ، وجلد الكافر ، فبيّنوا ان هذا القانون في ظل الدولة الاسلامية ، قد استظل بسلطتها نصف العالم ، طيلة اثني عشر قرناً ، مما يثبت انه صالح لكل زمان ومكان ، وأن العقوبة في الاسلام هي ارحم من قانون المجتمع الحديث وافانين عذاباته ، التي تظهر في ابادة الجسم ونسفه بالاسلكة الكهربائية ، أو رميه بالقنابل المحرقة والمدمرة .

وعلى الرغم من ردود كتّابنا على المقولات المشبوهة ، فان فئة تعلمت في دنى الاغتراب ، قد تأثرت بثقافتهم وطروحهم ، واعتمدت الفكر الغربي الذي قام على النقل والمحاكاة والموالاة للمنهج الاوروبي . فبرز اتجاهان حيال افكار المستشرقين واقوالهم . اتجاه متغرّب وكان على رأسه علي عبد الرزاق في كتاب « الاسلام واصول الحكم » الصادر عام ١٩٢٥ ، واتجاه قاوم الانحرافات والادعاءات الملفقة ، وقد مثله الافغاني ومحمد عبده ورشيد رضا .

---

(١) محمد عزة دروزة : القرآن والملحدون ـ المكتب الاسلامي . بيروت ١٩٧٣ ص ٢٦٤ .

(٢) انظر سورة الانعام آية ٥٩ ، وسورة الرعد آية ٨ .

والواقع ان كتابنا المعارضين لاتجاه الاستشراق ، في ردهم على عبد الرزاق ، يكونون قد ردوا على جميع الذين جاءوا من بعده ، وتبنوا نظرياته ، ونسجوا على منواله ، لأن كتابه تضمن معظم طروح المستشرقين المتعصبين .

فعلى حين تكلم علي عبد الرزاق على العلمانية ـ متأثراً طبعاً بنظرية اوروبة الحديثة ـ فصل الدين عن الدولة ـ فقد اعتبر ان الدين علاقة فردية بين الشخص والخالق ، وان الاسلام دين لا دولة ، وان الأئمة المسلمين لم يعطوا ابحاثاً في انظمة الحكم وأشكاله السياسية [1] ، متجاهلاً المصادر العديدة المختصة بهذا الشأن ، ككتاب « السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية » لابن تيمية ، الذي بحث في اسس الحكم والشروط السياسية لبناء دولة عادلة .

انتقد محمد عبده وغيره من اعلام النهضة نظرية المستشرقين ، المطالبين بفصل الدين عن الدولة ، فأكد من خلال تضمين القرآن لكثير من الآيات التي تدعو إلى السلطة السياسية والقضائية والعدلية . . . صلة الدين الاسلامي بالدولة ، مبيناً أن احد اصول الاسلام الأساسية ، الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة . لكنه وهوالعليم بحال سلطة السلطان الالهي ـ ثيوقراتيك ـ عند الافرنج ، الذي كان يستمد سلطته من حق الطاعة على الناس ، بمقتضى الايمان [2] ، فقد ميّز السلطة الاسلامية عن ذلك ، واشار الى طبيعة الحاكم ـ الخليفة ـ عندما تخلعه الأمة او اهل الحل والعقد ، متى رأت فيه اعوجاجاً ، منتقداً مزاعم وترهات المستشرقين التي تظهر ان سلطة محمد « صلعم» روحية، منشؤها الايمان، بينما ولاية الحاكم ولاية مادية. فالافغاني الذي إنتُقد بقوة من قبل المستشرقين ، بسبب هجومه على الاستعمار الغربي ، واشادته بعزة الاسلام وقوته ، دحض ما جاء في محاضرة المستشرق الفرنسي ارنست رينان ، في السوربون ، اثناء اقامته (اي الأفغاني) في باريس بعنوان : « الاسلام والعلم » وقد تضمنت محاضرته نقطتين بارزتين :

الاولى : ان الديانة الاسلامية لا تشجع الجهود العلمية ، بسبب كثرة المعتقدات الغيبية ، والايمان بالقضاء والقدر .

الثانية : ان عقلية الأمة العربية لا تصلح لدراسة العلوم الفلسفية وعلوم ما

---

(١) علي عبد الرزاق : الاسلام وأصول الحكم . القاهرة ص ١٢٣ .

وراء الطبيعة .

أظهر الأفغاني في رده ، ضبابية فكرة رينان الأولى ، وجهله بالعرب والديانة الاسلامية ، التي كثرت فيها الآيات والأحاديث التي تحضّ على طلب العلم وتدعو الى المعرفة . فبيّن ان من أولى أيات القرآن امرين بالقراءة ، وان كلمة العلم فيها ، وردت ثلاث مرات (سورة العلق) . وكانت احاديث الرسول صريحة وواضحة في طلب العلم والترغيب فيه : طلب العلم فريضة . . . واطلبوا العلم ولو كان في الصين ، والنظر في العلم ساعة ، خير من عبادة ستين سنة ، ومجلس العالم خير من صلاة الف ركعة . كل ذلك يؤكد ان الاسلام خاطب العقل والقلب معاً ، واحتوى على تأملات بالظواهر الطبيعية ، وبسنن الخلق والاجتماع والكون . . . التي هي من عمل رجال الفلك والطب والكيمياء والنبات وغيرها . . . قال تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾[1] ﴿ قل سيروا في الأرض ، فانظروا كيف بدأ الله الخلق ﴾[2] .

وأما النقطة الثانية ، التي تكشف الحقد العنصري والديني عند رينان ، فقد انتقدها الأفغاني ، وبيّن ان العرب اخذت عن اليونان والفرس علومهم ، وصقلتها واضافت اليها من معارفها وسلامة ذوقها ، في وقت كانت فيه بقية الشعوب الغربية القريبة من اماكن هذه الحضارة ، تغطُّ في سباتها ، ولم تفعل شيئاً ، بدليل ان اوروبة استقبلت ارسطو بعد ان تقمّص الصورة العربية[3] .

تأثر كثير من كتابنا العرب بالفكر الاستشراقي ، وروّجوا للمعرفة العلمية والعقلية التي اعتبروها تتناقض مع المعرفة الدينية . وكان من جملة المتأثرين بهذا الفكر طه حسين الذين هزّ الثقة في القرآن وفي كثير من اصول الدين وشؤونه الدينية ، وبخاصة في كتابه في الشعر الأدب ، عندما شك في قصة النبي ابراهيم،

---

(١) يونس آية ١٠١ .
(٢) العنكبوت آية ٢٠ .
(٣) الافغاني : الكتابات السياسية جـ ٢ ص ٣٢٣ .

واسماعيل ، واعتبر ان ورود الاسمين في القرآن غير كاف لاثبات وجودهما[1]. وان قريشاً ، مستعدة لقبول مثل هذه الاسطورة.وعندما ووجه من قبل النيابة العامة بأقاويله اجاب بأنه يؤمن بما ورد ، بصفته مسلماً معتقداً ، ولكنه لا يقرها بصفته عالماً واديباً .

إذا كان معظم المستشرقين قد شوّهوا التاريخ العربي والاسلامي ، وحاولوا القضاء على قيمه وتراثه ، فان التاريخ نفسه ترك لنا اسماء ، عرفت بانصافها واعتدالها ، على الرغم من الهنات التي وقعوا فيها في أكثر من جانب ، وعلى مختلف الصعد . فإضافة الى ليو بولد فايس (محمد اسد) وارنولد توينبي وغوستاف لوبون ، فاننا نضم اليهم المستشرق مونتجمري وات الذي أيّد فكرة اختتام الديانات بالاسلام ، معتبراً انه الدين الوحيد الذي اشتمل على كل فضائل الديانات السابقة . وتضمن اعترافاً مبدئياً بين العلم والعقل . وقد وجه مونتجمري وات انتقاداً لاذعاً لاوروبة ، التي بسبب تعصبها الديني ، واعتمادها الكلي على القانون العلمي بقيت في دياجير القرون المظلمة ، مظهراً عدم معرفة البشرية حضارة قبل الاسلام ، ظناً منه ان الامم المسيحية واليهودية عرفت ثقافة مسيحية وثقافة يهودية ، هما حسب رأيه ، محدودتان في حين ان الحضارة الاسلامية شاملة .

وهكذا يجب ان لا تعمينا كتابات بعض المستشرقين المشبوهة ، عن رؤية الايجابيات المعرفية والحضارية لمستشرقين بحثوا عن المعرفة وجهدوا في ان تصبح هذه المعرفة ملكاً للبشرية كافة . ونعتقد ان الدور المطلوب حالياً من رجال الاستشراق ، بعد ان اصبحت عملية التعارف بين الشرق والغرب ممكنة وسهلة ، هو دور يقوم على دراسة العلوم الاجتماعية والانسانية ، والاخذ بمنجزات العصر الحديث ومكتشفاته ، والانفتاح ، باخلاص وموضوعية على منجزات الشرق العربي وحضارته الاسلامية العريقة .

---

(١) طه حسين : في الأدب الجاهلي ـ ص ٢٦ .

الفصل الرابع

العلمانية والفكر الاسلامي في عصر النهضة

كثر الحديث في السنوات الأخيرة عن العلمانية او دورها في بناء مجتمع الانسان والتقدم ، الذي يلبي تطلعات البشر ، على اختلاف أديانها ومذاهبها . وقد أوضح كثير في أدباء النهضة العربية الحديثة ومفكريها ، مواقفهم من هذه القضية ، واعتبروها من أهم موضوعات المجتمع العربي ، دقة وحساسية ، واكثرها افتقاراً للمعالجة ، لما تثيره من ردود فعل ، وتتضمن من مفاهيم تمس القيم والأعراف .

وسنحاول في هذه الدراسة تحديد منطلقات العلمانية وتبيان جذورها عبر تسليط الأضواء على ظروف نشأتها واهدافها المبدئية ، وعلى الموقف النقدي ـ المؤيد والمعارض ـ لقضايا العصر ومشكلاته الانسانية المزمنة .

مفهوم العلمانية وميدانها الأصولي :

ليست العلمانية نظرية فلسفية مجردة عن واقع المجتمع وحركة تطوره وتقدمه ، بل هي موقف فلسفي ومفهوم علمي ، يتصل بواقع الحياة الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، وينبع من جدلية علاقاته المترابطة ، ويقدم لها مشاريع وصيغاً انمائية ، بغية عملية التغيير المتواصلة ، التي تخدم مصلحة الانسان ، وتحقق تصوراته المبدئية . وقد عُرفت لدى مختلف الكتاب بانتسابها الى كلمة العلم او العالم ، التي ترمز من جهة ، الى مكانة المفاهيم العلمية ، ومنزلة القوانين العلمية من تفسير مشكلات المجتمع والكون ، ومن جهة اخرى إلى تجنب الطروح الغيبية ، وفصل

الـدين عن الدولـة ، وتسيير سلطات البـلاد ، من قبـل قيـادة زمنيـة ، تـرفـع لـواء المبـادىء العلمية ، وتستمـد منهج التخـطيط ، في الادارة والسياسـة والاقتصـاد ، من مبتكـرات العلوم الانسانيـة والمكتشفات الحـديثة ، التي تـوصل اليهـا الجنس البشري عبر مختلف العصور والأزمنة .

وبـذلك تكـون الروح العلميـة ، دعـامـة الحيـاة الأسـاسيـة ، وتكـون بـالتـالي المؤسسات التشريعية والقضائية ، لا دينية ، تقوم نصوصهـا السياسيـة وغيرهـا ، على معطيات الواقع ومستلزمات المرحلة التاريخية . وقد ابان مؤيـدو هذه النـظرية ، اهميـة تخلي الدين عن التعـامـل مـع الانسـان في حقـل السيـاسـة ، وضـرورة حصـره - اي الـدين - في النواحي الـطقوسيـة ، والافراج عن الانسـان ، على حـد قول عمـانوئيـل كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤) من الوصايا الدينية ، التي اعتبرها « ارذل الوصايـا وأشدهـا ضرراً »[١] والحؤول بين نفوذ السلطة الكنسية وبين سلطة الدولة .

لقـد صيغت العلمانيـة في مفهـوم تحـديثي متـطور ، فـوضعت مقـابـل التقليـد والجمود « المقدس » الذي ينكر التغيير والتجديـد ، ومقابـل ما هـو ديني وكهنوتي[٢] . وهذا ما اوضحه فيلسوف العلمانية هـوارد بيكر في صيـاغته مصـطلح العلماني مقـابل مصطلح « المقدس » ، والمجتمع العلماني مقابل المجتمع المقدس الديني[٣] .

ولعلّ أفضل تعريف اعطي للعلمـانية ، مـا ورد في مناقشـات المجلس الفرنسي لـدستور ١٩٤٦ ، الـذي جاء فيـه ان العلمانيـة هي حيـاد الـدولـة تجـاه الـدين[٤] ، واحترام حريـة المواطنـين الدينيـة ، على شـرط عدم تعـرضها لِنـظام البلاد ، ومسّهـا بنصـوصه التشـريعية . في حـين اننا نقـع على تعـريف يحدد العلمـانية بـأنها إنحـلال التقاليد الدينية او تقلصها ، والعلمنة بأنها العملية التي تفقـد فيها العقـائد والـطقوس والمؤسسات الدينية تأثيرها الاجتماعي »[٥] والعلماني كل ما يتعلق بـالحياة الـدنيويـة ،

(١) انور الجندي : سقوط العلمانية . دار الكتاب اللبناني ١٩٧٣ ص ٢٢ .
(٢) د . محمـد عمارة : الاسـلام والعروبـة والعلمـانيـة . داز الـوحـدة . بيـروت ١٩٨١ ص ٥٧ .
(٣) المصدر نفسه ص ٥٩ .
(٤) جوزيف مغيزل : العروبة والعلمانية . دار النهار . بيروت ١٩٨٠ ص ٢١ .
(٥) اديب صعب : الدين والمجتمع رؤية مستقبلية . دار النهار ١٩٨٣ ص ١٢٠ .

من غير ان يكون له قداسة تجاه الشؤون الكنسية[1]. وقد اعتبر اول قرار ، لأول دولة علمانية في اوروبة ـ فرنسا ـ الصادر في آب ١٧٧١ ، اعتبر اليهود المقيمين في الأراضي الفرنسية ، مواطنين ، لهم نفس الحقوق والواجبات ، وهذا ما جعل اصابع الاتهام تتجه نحو اليهود وبالتالي الصهيونية ، التي غذت هذا المفهوم واستخدمته في تحقيق مآربها الاستعمارية .ولفْتاً للنظر ، وخوفاً من كل التباس ، نود ان نوضح نقطة هامة في موضوعة العلمانية ، وهي ان العلمانية لا تعني ضرورة الأخذ بالعلوم الطبيعية والانسانية ، فهذه امور بديهية ، من متطلبات كل دولة ، سواء كانت علمانية او غير علمانية . بل الذي نعنيه هو ان تستمد دولة العلمانية ، خططها وانظمتها من علوم البشرية ، والقوانين الوضعية ، ويمكننا ان نربط علمانية الدولة بأمرين هامين :

الأول : ان يكون مصدر الشرعية في السلطة السياسية مستمداً من سلطة الشعب الذي يضفي الشرعية في عملية انتخابية او استفتائية ، وليس من نصوص الكتب الدينية التي تصبغ شرعيتها بالسلطة الدينية ، كما كان يجري في القرون الوسطى ، من مزج السلطتين الدينية والزمنية ، وتحكم الأولى في سلطات البلاد العامة .

الثاني : ان يكون التشريع الدستوري والقانوني مستمداً من قوانين الانسان الوضعية التي لا علاقة لها بالدين وبالشريعة الالهية ، بما فيها قانون الأحوال الشخصية ، وما يتعلق بشؤون الفرد من زواج وطلاق .

والواقع ان الانسان في مجتمع القرن العشرين ، اذا تقبّل الأمر الأول الذي يتعلق بسلطة الشعب وشرعيته ، فانه لا يستسيغ اطلاقاً قوانين تشريع الاحوال الشخصية غير الدينية ، لأنها تمس قيم الفرد واعرافه الوجدانية ، وهو لا يرفضها لكونها مستوردة ، وانما لعدم ملاءمتها لواقع البيئة والظروف الحياتية .

المنطلقات التاريخية لنشأة العلمانية والدعوة اليها :

تسربت مفاهيم الغرب الحديثة اثر عملية اتصال الشرق بالغرب ، عبر الحملة

---

(١) اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة ص ٢١٥ .

الفرنسية على مصر ، وما اثمرته من لقاح فكري وثقافي ، صبغ طابع المرحلة ، بشيء من الاحتواء الحضاري ، فشقّت العلمانية طريقها الى المثقفين والمجددين ، وأظهرت انها الحل الموضوعي لأزمة المجتمع والرد العلمي على تخلف العصر وحيثيات قضاياه المعقدة ، خاصة بعد ان ظهرت معالم الحضارة والتقدم على أوروبة الحديثة . ويلاحظ من خلال تاريخ العلمانية الأوروبية ، انها مرت بمرحلتين متمايزتين ، تفاوتت فيهما المفاهيم لدى كثير من المفكرين . ففي المرحلة الأولى التي كان من اكبر دعاتها توماس هوبز* (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) ، وديفيد هيوم** (١٧١١ ـ ١٧٧٦) وروسو*** (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) عُرفت بعزل الدين عن التحكم بسلطات البلاد العامة ، وبرفع الوصايا الدينية ، والسعي لتصفية اللاهوت المسيحي وتنقيته من ادران القرون المظلمة ، وما حملته من عقيدة التثليث والطبيعة الإلهية للمسيح . وفي المرحلة الثانية ، الأكثر تطرفاً ، وقد مثلها فيورباخ (١٨٠٤ ـ ١٨٧٢) وماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) ولينين (١٨٧٠ ـ ١٩٢٣) وعرفت بالعلمانية الثورية ، فقد استهدفت نزع الدين من نفوس الناس ، والتخلص من تأثيراته الروحية ـ الدنيوية والأخروية ـ لحساب النظام الاشتراكي فالشيوعي حيث تضمحل فيه سلطة الدولة ، وينمحي اثر الدين من المؤسسات الجديدة .

أظهرت مختلف الدراسات المختصة بالعلمانية ، أنها نشأت في ظروف صعبة معينة اوجبت استحداث مفهوم عصري ، يوازي بين المناخات العقلية التي افرزتها تقدمية المجتمع ، بوصول البورجوازية الوطنيّة ـ الصناعية والتجارية ـ الى السلطة ، وانكفاء سلطة الاقطاع ورجال الدين ، وبين مخلّفات العقلية القديمة وما سادها من استكبار واستعداء للنظريات العلمية والقوانين الاصلاحية .

من هنا فان نشأة المذهب العلماني في اوروبة يعود الى الصراعات المتنوعة بين الكنيسة وأتباعها من قساوسة واحبار ، اتصفوا آنذاك بالجمود ، واستبدوا

(*) هوبز : ينفي وجود سيادة للكنيسة ويطلب الخضوع التام لسيادة الدولة الكاملة على الجميع .

(**) هيوم : امتزج الابقاء على الكنيسة كحاجة نفسية دون السماح لها بالتدخل في شؤون الدولة .

(***) روسو : رفض وجود سلطة كنسية الى جانب السلطة السياسية .

بغطرستهم ، وبين الفئات الصاعدة والقوى الجديدة التي ابدلت المفاهيم وقلبت الموازين . فالكنيسة كانت على مدى سنين طويلة ، صاحبة السلطة المطلقة على روح الفرد وعقله ، وعلى سلطات الدولة ومؤسساتها المختلفة . ودليلنا على ذلك ، ما كان من نفوذ الكنيسة حتى بعد الثورة الفرنسية ، عندما اضطرت الجمعية التأسيسية الفرنسية الى موافقة البابا بيوس السادس على الدستور المدني ليكون شرعياً . فرفض البابا توقيع الدستور واوقع البلاد في بلبلة سياسية ، وانشقاق في صفوف المحازبين والمؤيدين[1] وكانت المحصلة تصلُّب المواقف ضد امتيازات الكنيسة والبابوية ، ودفع الثورة الى اتخاذ اجراءات اكثر ثورية ، وبخاصة بعد ان مُهِّد لنشر مقالات تدحض سلطة الكنيسة وتدخُّلها في الشؤون السياسية ، وتنبذ الأوهام وتقدّم سلطة العقل والعلم .

ويمكننا ان نعلل تأييد الكتّاب لقيام دولة علمانية الى الأسباب الرئيسة التالية :

السبب الأول : ان الدولة الدينية جامدة وغير قابلة للتطور ، بسبب قدسيتها للماضي والتقليد ، وعدم إيمانها بحتمية التطور والاصلاح والتغيير .

السبب الثاني : ان الدولة الدينية تعني السيطرة الفئوية ، واستئثار طرف ديني معين على مقدرات البلاد . لأنه من غير المنطقي ان ينتسب جميع المواطنين الى دين واحد ، الامر الذي يخلف ارتباكاً في صفوف المواطنين وتفاوتاً في درجة انتمائهم الوطني مما يهدد الدولة بالانقسام والتصدع .

السبب الثالث : ان الدولة الدينية تعادي العلوم ، وتحول دون حرية الفكر ، وتحط من قدرة العلم ، خصوصاً في الحالات التي تتعرض لسلطة رجال الدين .

وقد طالب دعاة العلمانية بضرورة تعزيز المنطلقات الايمانية الاربعة :

١ ـ الايمان بجدلية الحركة المستمرة في المجتمع ، والقدرة على التطور والتقدم .

٢ ـ تعزيز قدرات العلم وتأمين المناخات الملائمة لحكم العقل ، من دون اي اعاقة دينية .

---

(١) محمد مهدي شمس الدين : العلمانية . المؤسسة الجامعية . بيروت ١٩٨٠ ص ١٣٤ .

٣ ـ الاعتراف بحقوق المواطنين والمساواة التامة بين الجميع على اختلاف الأديان والاجناس .

٤ ـ سيطرة الشعب الكاملة على مؤسسات الدولة ، واعتباره مصدر كل سلطة .

وهكذا يتبين ان العلمانية حركة انقلابية على سياسة الغرب السياسية وسلطة الكنيسة التي ناهضت القوانين الطبيعية وخاصة تلك المتعلقة بدوران الأرض والجاذبية والكون وحركة النجوم والتي اقامت محاكمات صورية اوصلت الكثير من رجال العلم والفكر الى السجن او القتل ، تحت حجة انهم انتقدوا العلوم الغيبية وهدموا مفهوم الدين التقليدي .

لذلك هاجم المجددون الدين وقذفوا رجاله بأوصاف سيئة ، كأوغست كونت (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) الذي اعتبر الدين يصلح للشعوب المتخلفة البدائية،وتعرضوا الى الفساد المستشري في المراكز الدينية التي تسرب اليها الضعف والانحراف ، فرأوا في رجعية اخلاق رجالها الذين باعوا صكوك الغفران ، وأباحوا الفجور والدعارة ، ما يفوق من انحطاط المراكز الدنيوية . وقد عبّر الراهب جروم عن ذلك في قوله : « إن عيش القسوس ونعيمهم كان يزري بترف الأمراء والأغنياء المترفين ، وقد انحطت اخلاق البابوات انحطاطاً عظيماً ، واستحوذ عليهم الجشع وحب المال[١] . . . حتى ان البابا انوسنت الثامن اضطر في سبيل بذخه واسرافه الى رهن تاج البابوية ، وان البابا ليو العاشر انفق ما خلّفه البابا السابق واللاحق ، ويقال أن مجموع دخل مملكة فرنسة ، لم يكن يكفي البابوات لنفقاتهم وإرضاء شهواتهم »[٢] .

إن ثورة المجددين ضد الدين ورجاله ، التي تكللت بنجاح الثورة الفرنسية ، سرعان ما خفّت تدريجياً ، حيث اعتدلت الدولة في مواقفها ، وساهمت في مساعدة التعليم الديني ، ونشر فكره ، عبر المناهج التربوية في داخل البلاد ، وعبر مختلف المؤسسات العلمية والتعليمية ، التبشيرية والاستشراقية خارج البلاد ، واصبحت الدول الاوروبية والاميركية ترعى المصالح الدينية ومراكزها الروحية . ونعتقد ان

---

(١) ابو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين . ص ١٧٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٧٣ .

الكنيسة بعد الحرب العالمية الثانية ، استعادت نفوذها ، ليس فقط في سياسة اوروبة الداخلية والخارجية ، بل في الاتحاد السوفياتي نفسه الذي وان كانت دولته المتطرفة قد تبنّت العلمانية المادية ـ الدين افيون الشعوب ـ فقد استعادت فيه الكنيسة عافيتها وحضورها الثقافي .

ويبدو ان تيار العلمانية المتطرفة ، سينحسر شيئاً فشيئاً ، إثر الدعوات الجديدة ، واليقظة الانسانية العامة ـ علمية وروحية ـ التي تظهر ان الحياة الدينية وبالتالي العنصر الروحاني ليس شأناً عارضاً في حياة البشرية ، يتغير ويتبدل بتطور المجتمع وتقدمه ، وليس شأناً ثقافياً مكتسباً من تجاوب الحياة وخبرتها ، لأنه شأن انساني فطري ، متأصل في جذور الانسان ونابع من وجوده الذي لا يتأثر بتقلبات الحياة وتحولاتها .

العلمانية والمجددون المسلمون :

ظهرت العلمانية الأوروبية مع ثنائية الفكر الغربي الناتج عن سلطتين : الدولة والكنيسة ، الروح والمادة ، واعتبار رسالة عيسى ، عليه السلام ، لا تشكل منهجاً متكاملاً للحياة البشرية في الدنيا والآخرة ، نظراً لاعتماد الكنيسة على فكرة « ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، وانفصال الشؤون الاجتماعية واستقلالها ، واقامة سدود مانعة بين الدين والاقتصاد والاجتماع .

وهذا ما ارتضته العلمانية ، التي اعترفت بعدم وجود مبدأ عام يشمل جوانب حياة الانسان ، وتبنت نظرية الفصل بين القيم ، معتبرة ان الدين علاقة شخصية بين الانسان وربه ، وهي على حد قول نجيب الكيلاني كلمة حق اريد بها باطل [1] ، وفرية لم يؤيدها نصّ قرآني او دليل من السنة ، او رأي فقهي ، لا في القديم ولا في العصر الحديث . ونحن لا نتوهّم إذا قلنا ان عدالة الحاكم في العصور الاسلامية الأولى ونزاهته ، ونبل شيمه تعود في المحل الاول ، الى الاخلاق الدينية ومكارمها التي تدعو الى الخير ، وتتعفّف عن المظالم وارتكاب الموبقات . لكن جهل الغرب بحقيقة الاسلام ، جعل مفكريه يبالغون في الثناء على العلمانية ،

---

(١) نجيب الكيلاني : حول الدين والدولة . دار النفائس ١٩٨٢ ص ١١ .

والدعوة إليها ، زاعمين ان المجتمعات العربية والاسلامية ستبقى في مستنقع التخلف ، ما دام ابناؤها حريصين على الحياة الدينية ، لا تخرج من تخلفها ، وتلحق بالعالم المتقدم قبل ان تترك غبار الدين ، وتتخلى عنه في جميع الأنظمة والمؤسسات . والواقع لم يعرف المسلمون خلال تاريخهم الطويل ، حكومة ثيوقراطية ، كالتي شهدتها اوروبة ، لنحاربها ونقضي عليها . وذلك لعدم وجود مؤسسة دينية ، في الاسلام ، تشبه الكنيسة ، التي اختصت لوحدها من دون الناس بأسرار الدين وطقوسه . فالاسلام على العكس لم يشهد وساطة ولا كهانة بين الله والعباد ، ولم يرفع الانسان الى مستوى القداسة والألوهية . ولم يعرف نظرية الحق الإلهي او التفويضي الإلهي ، ومن ثم لم يعرف صراعاً بين السلطتين الدينية والزمنية ، بدليل انه لا توجد فيه ما يسمّى في اوروبة بالسلطة الدينية .

لقد جمع الاسلام بين الحياة الروحية والسياسية ، واعتبر ذلك واجباً ، يحفظ وحدة الأمة ويصون شرائعها ، لأن هذه الوحدة لا تتحقق من دون قيام قائد يحفظ الشريعة ويطبق القوانين العادلة والمسؤولة [1] . وهذا ما تجلى بوضوح عند احد الكتاب المسيحيين المنصفين ، الذي قدّم الاسلام على انّه اكثر من ايمان ديني ، نظام حياة يشمل جميع المؤسسات الاجتماعية : الدينية ، منها والزمنية . ويعد ان يشير الى الانسان الذي يلاقي في الاسلام ما يشبع شوقه الروحي عن طريق الايمان بالمعتقدات الإلهية والقيام بما تتطلبه منه ، يؤكد انه يجد في الاسلام ايضاً ، نظاماً شاملاً ومتكاملاً ، سواء في القيم الاخلاقية او الشرائع المدنية التي تساعده في جميع اعماله ومعاملاته اليومية ، ويقول ان الاسلام « نظام كامل يدعو الى (بثوقراطية) تلتقي فيها الحياة الروحية بالحياة الدنيوية » [3] وهذا ما يفسر تأخر العلمانية في بلادنا ، التي تكشفت معالمها عقب تعاظم النفوذ الاجنبي ، وفرض وجوده ، عبر مختلف اشكال الهيمنة والاحتواء ، من خلال محاولة إقصاء المنهج الاسلامي ، وتشويه منطلقاته المبدئية ، وتأويل الأحاديث النبوية والايات القرآنية . إضافة الى دعواته الجديدة ، التيتبلورت في اقامة النظم الليبرالية ، والأحزاب الديمقراطية والبرلمانات الدستورية ، واحياء الروابط الانفصالية كالفرعونية والفنيقية والأشورية

---

(١) أنور الجندي : سقوط العلمانية ص ٣٥ .

(٢ ـ ٣) المصدر نفسه ص ٣٥ .

والبابلية . . . وقد نجح الغرب الاستعماري في تغريب عدد من الكتاب العرب والمسلمين ، الذين راحوا ينادون بطروحه العلمانية ويركزون على استقلال الدين عن الدولة والعلوم ، متناسين دور الاسلام في تشجيع العلماء ، وتأييد كشوفهم من دون قيود ، فعلى سبيل المثال ، قدّم ابن الهيثم (٩٦٥ ـ ١٠٣٩) نظرياته في البصريات فنال التقدير ، وتحدث الرازي (٨٦٤ ـ ٩٣٢ م) وابن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧ م) عن امراض الكلي والملاريا فاستحقا الاعجاب ، وأظهر ابن الخيام كشوفه في التوقيت الشمسي والفلك ، فحاز ثقة الحكام ونال عطاياهم . الا ان بعض الكتاب العرب ، الغيارى على الاسلام وجوهره النقي عارضوا هذا الاتجاه ، واظهروا موقف الاسلام الايجابي من علاقة الانسان بربه ، مبيّنين في الوقت نفسه ، ان ايجابيات المفهوم العلماني ، متواجدة في الاسلام . فما هي هذه الايجابيات ؟ وهل هي موجودة فعلاً ام لا ؟ هذا ما سنحاول اظهاره في النقاط الآتية .

ابانت الدراسات المختصة بالعلمانية ، انها تتميز بخصائص محددة ، وسمات معينة ، جهد أعلامها في تداول نقاطها على النحو الآتي :

النقطة الأولى : تتميز العلمانية بانحيازها الى العقل وسلطته ، وتتقبل كل الافكار التي يستسيغها المنطق والتجارب الطبيعية والانسانية ، وترفض طروح الغيب والأوهام ، وخوارق الطبيعة .

النقطة الثانية : تدعو العلمانية الى المساواة التامة بين المواطنين كافة ، من دون تمييز بين الأديان والمعتقدات الشخصية والمذاهب المختلفة .

النقطة الثالثة : تعارض العلمانية الاتجاه المحافظ ، وترفض القيم التقليدية وتعتبرها من الامور الرجعية البالية .

النقطة الرابعة : تساند العلمانية التغيير والحركة ، وتدعو الى التجدد والتطور ، من خلال مواكبة روح العصر والقوانين الجديدة .

ونحن بدورنا نعتقد ان الاسلام لم يكن اطلاقاً ضد التقدم والتطور . فهو بالنسبة الى النقطة الأولى أيّد الاحتكام الى العقل ، وآمن بقدرته على حل قضايا الانسان والمجتمع ، واضاف على سلطة العقل العلمانية ، منهجاً محدداً للمعرفة يقوم

على الايمان ايضاً بالوحي ، معتبراً العلمانية نظرة قاصرة لأنها تقف عند الماديات ، ولا تتعداها الى الروحانيات التي تتجسد بالوحي والقلب والبصيرة . . . وبالنسبة الى النقطة الثانية ، فان الاسلام ساوى بين جميع الناس ، ولم يحدث إبّان الحكم الاسلامي إفتئات على أتّباع الأديان الأخرى ، او تمييز بين الحقوق . في حين ان الدول الأوروبية كانت تحرم معظم رعيتها من المساواة امام القانون مع النبلاء والاكليروس ، حتى ان حق الانتخاب في فرنسا ، ظل محصوراً بالمالكين الى قيام الثورة الفرنسية . وبالنسبة الى النقطة الثالثة ، فإن موقف الاسلام واضح ، فهو وان كان على العموم ضد التقليد ومع التغيير ، فانه لا يرفضه لكونه قديماً . بل لأنه ضار يعوق التقدم ، بدليل انه يأخذ بالقيم التقليدية التي تدعو الى الخير والاخلاق الحميدة . كالأوروبيين الذين احيوا تراثهم اليوناني الجيد ولم يهملوه لمجرد انه تقليد موروث . اما بالنسبة للنقطة الرابعة فقد كان الاسلام اكبر سند للتجديد ، وحديث الرسول (ص) : « ان الله يبعث لهذه الأمة ، على رأس كل مائة عام ، من يجدد لها دينها »[1] حكم فاصل في مسألة الايمان بحتمية التطور .

يتبين من كل ذلك ان الاسلام حركةٌ وتقدمٌ واجتهاد ، وليس جموداً وتحجراً ، وان قوانينه شُرِّعت لتحمي مصالح العباد ، وتقضي على امتيازات الطبقات . مما يؤكد تقدميته في مختلف الحقول ، وقد إعترفت مؤتمرات دولية وقانونية بتقدمية الشريعة الاسلامية ومرونتها . نذكر منها ، مؤتمر لاهاي لعام ١٩٣٧ ، الذي قرر اعتبار الشريعة الاسلامية حية وصالحة للتطور . ومؤتمر المجمع الدولي للحقوق المقارنة المنعقد في باريس عام ١٩٥١ ، الذي قرر اعتبار الفقه الاسلامي قادراً على الاستجابة لمطالب الحياة الحديثة[2] . لكن لا يفهم من هذه المرونة ، عدم وجود ثوابت صالحة لكل زمان ومكان فالاسلام اكد وجود ثوابت دائمة ، تضبط الأخلاق وتصون الوجدان ، كالخير والشر ، لا يقدر العلم والبحوث الانسانية والكشوف الجغرافية ان تحل مكانها . ولذلك اكد فقهاء الاسلام ان ما يتعلق بدائرة الأخلاق ،

---

(١) د . محمد عمارة : الاسلام والعروبة والعلمانية ص ٦٠ .

(٢) محمد مهدي شمس الدين : العلمانية ص ١٦٦ .

لا علاقة له بالعلم ، ويقع حكماً في نطاق الدين (١) في حين ان العلمانية رفضت وجود مفهوم ثابت يميز بين الخير والشر ، لأن كل امة عندها ، او حتى كل وحدة سكنية ، تبني قوانينها الخلقية وفقاً لنظرتها السياسية والاقتصادية . ويبدو ان عجز الانظمة السياسية العلمانية ، القائمة على الحرية الاقتصادية ، او على الاشتراكية ، او الشيوعية ، عن تأمين الاستقراء والهدوء في نفس مواطنيها ، يرجع لسبب واحد ، هو دراسة مشكلات هذه الانظمة ، من خلال مصالح الطبقات والأفراد الحاكمة لقيم الخير والشر ، وليس من خلال مبادىء خلقية دائمة . وهذا ما يفهم من قول الفيلسوف الانكليزي المأثور برتراند راسل : « ان الرجل الابيض اي الاوروبي قد انتهى . . . انتهى لا لأنه فرغ من العلم والتقدم المادي ، ولكنه انتهى لانه فرغ من العقيدة والايمان والأخلاق » . (٢)

والواقع ان الانسان في ازمة العصر والعلم والوجدان ، اصبح لا يستسيغ تقلب مفهوم العدل والظلم او الخير والشر ، بتغير الأحوال ومقتضى الظروف . وانه على العكس ، يتمنى ان تخرج هذه المنطللقات ـ القيم ـ من نطاق الانسان ، الى رحاب اعم واشمل ، من اجل اقامه الحياة الصحيحة . وهذا ما جعلنا نؤكد ، ان للعلم اختصاصاً في الدراسات التجريبية والمحسوسات ، التي لا تكون نتائجها يقينيه وقطعية ، لأن قابلية الشك والاحتمال موجودة على الدوام ، وعرضة للاخطاء ، وقابلة للتعديل والاضافة والحذف (٣) .

التنوير العربي والعلمانية :

اذا كانت النهضة العربية الحديثة تعني الانعتاق من الجهل والتخلف ، فانها تعني ايضاً رفضها التقليد والتبعية للآخرين ، وخاصة في قضايا تمس عقيدتها ووجودها . وهذا ما اظهره بعض كتاب النهضة من العلمانية الغربية ، عندما وقفوا موقف الشك والحذر منها ، لأسباب رئيسة ثلاثة :

---

(١) محمد اسد : منهاج الاسلام في الحكم . ترجمة منصور محمد ماضي . دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٨ ص ٣٠ .

(٢) احمد محمد جمال : الثقافة الاسلامية . دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٣ ص ١٤١ .

(٣) د . يوسف القرضاوي : الايمان والحياة . مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٩ ص ٣٣١ .

السبب الاول : إن العلمانية الغربية تعارض الدين الاسلامي ، وتحارب معتقداته الايمانية والروحانية . . .

السبب الثاني : ان فشل الغرب العلماني في تحقيق دولته الفاضلة ، جعل الكثير من النهضويين والمصلحين ، يشككون في نجاح العلمانية في البلدان العربية والاسلامية ، وهي المختلفة في العقائد والقيم عن اوروبة التي لم تلق من العلمانية الا الفشل والخذلان . لكن موقف الحذر ، لم يمنع بعض الكتاب ان يتأثروا بفكر الغرب اللاديني ، ويمتدحوا العلمانية ويقدموها حلاً لمعضلات مجتمعنا العربي والاسلامي الذي يتخبط بطروح طائفية ومذهبية . ولذلك سنبين في الصفحات القادمة موقف النهضة من العلمانية : المؤيد والمعارض ، واهم النقاط التي تناولها كل من هذين الاتجاهين .

انطلق مؤيدو الاتجاه الاول ، المعارض للعلمانية ، من فكرة اصالة الأمة العربية ، وتاريخها الطويل الذي لم يعرف يوماً سلطة دينية كالتي عرفتها اوروبة . فأشاروا الى ان الاسلام لم يستعمل سلطة عقاب وجزاء ، وسيفاً مرفوعاً على رؤوس العباد ، واستهجنوا كلمة رجال الدين الدخيلة واظهروا ان الاسلام عرف علماء الدين ، الذين لم يعطوا سلطة دينية بالمعنى المعروف في اوروبة ، لان الاسلام كما ذكرنا ليس فيه سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، التي خوّلها الله لكل المسلمين ، ادناهم واعلاهم ، وليس للخليفة او القاضي او المفتي او شيخ الاسلام اية سلطة دينية[1] . وان الرسول كان مبلِّغاً ومذكِّراً ، لا مهيمناً ولا مسيطراً . قال تعالى : ﴿ فذكِّر إنما انت مذكر * لست عليهم بمصيطر ﴾[2] . ولا يجوز لعاقل ان يقارن الخليفة عند المسلمين ، بما يسميه الغرب (ثيوقراتيك) اي السلطان الالهي ، الذي ينفرد بتلقي الشريعة عن الله ، والذي يضطلع بالتالي بمهمة حق التشريع . كشف اعلام هذا الاتجاه النقاب عن اشراقة الإسلام الديني والسياسي ، وبينوا خطأ ربط رجال الدين في اوروبة وفرنسا بالذات ، بعلماء الدين الاسلامي ، مؤكدين ان فصل السلطتين في الغرب ، ومعاداة ادباء عصر التنوير الاوروبي ومفكريه للدين ،

---

(١) د . محمد عمارة : الاسلام والعروبة والعلمانية ص ٧٤ .

(٢) الغاشية آية ٢١ .

نـاتج عن دور الـدين السلبي في تجميد الأوضـاع والانحياز الى الأقـوياء والمستبـدين . ورأوا ان الاسلام لم يضفِ قدسيـة على سلطة اي كـائن ، مهما عـلا شأنـه ، فالخليفـة كما يقول محمـد عبـده يتفـاضـل بصفـاء العقـل ، ويـطاع مـا دام عـلى الحجـة ونهج الكتـاب ، والمسلمون لـه بالمرصاد ، يقـومـونـه اذا انحـرف عن النهـج الاسـلامي ، ويستبدلونه إذا احدث مفسدة [١] . لأن الأمة هي وحـدها صـاحبة الفصـل في تنصيبه وفي خلعــه . مما يؤكــد ان السلطة مـدنيـــة ، وان الأمـــة والشعب ـ مصـــدر كـــل السلطات ـ تصبغ عليها الشرعية وتنزعها منها في حال الاخلال بشروط الرئاسة .

وهكـذا يتبين ان المشكلة التي وقعت في البـلاد العربيـة والاسلاميـة عن طـريق العلمانية مفتعلة ، ولا أصل لها ، وقد تكلف الغرب وانصاره المتغرِّبـون استعارة حـل لمشكلة مصطنعة وغير موجودة في الديار العربية والاسلامية .

والأفغـاني وعبـده ورضـا والكـواكبي والنـديم الـذين عقلوا مفهـــوم السلطات الروحية والزمنية ، عارضوا العلمـانية واعتبـروها غـريبة عن المنـطقة ولا تـلائم عقلية ابناء المجتمع ، في الماضي والحاضر . فهاجم الافغـاني إلحاد الاشتـراكيين والشيـوعيين والعدميين في رسـالته (الـرد على الـدهريـين) وانكر تـرهاتهم ، التي تـزعم ان الدين عقبة عظيمـة وسدٌ منيـع ، يعترض أبنـاء البشر ، لنشـر الشريعـة المقدسـة : الاباحـة والأشتراك [٢] : معتبراً ان الـوحدة الـدينية اسـاس التقدم الاجتمـاعي . واكد محمـد عبـده سلطة العقل واعتبـره اساس الاسـلام المكين الى الايمـان . وقد نُقـل عن احـد المسلمـين « ان الذي يستقصي جهـده في الوصـول الى الحق ، ثم لم يصل اليـه ومات طـالباً غـير واقف عند الظن، فهو نـاج »[٣] . وأشار الى ان فصـل الدين عن الـدولة محـال ، وغير مـوضوعي ، بسبب انتـماء الحاكم الى دين معـين ، يجعله غير قـادر على التحـرر من تأثـير تعاليمـه عليه . وهـو في تشديـده عـلى وحـدة الجسـد والـروح عنـد الانسان وعدم امكـانية فصـل وظائفهـا ، يتساءل بلهجـة انكاريـة ، عن كيفية فصـل السلطات واستقلالها !

---

(١) الاعمـال الكاملة لـلامام محمـد عبدة . دراسـة د . محمد عمـارة . المؤسسة العـربيـة . بيروت ١٩٨٠ جـ٣ ص ٢٨٧ .

(٢) جمال الدين الافغاني . دراسة محمد عمارة جـ ١ ص ١٠٥ .

(٣) المصدر نفسه ٢٨٢ ..

لقد رفض محمد عبده فكرة فصل الدين عن الدنيا ، على اساس انه علاقة بين الفرد والخالق ، وبيّن ان الاسلام جمع بين الدنيا والآخرة ، بل وان الحياة الدنيا في الاسلام مقدمة على الدين ، موضحاً ان الله ذكّر الذين يغالون في طلب الآخرة ، وينسون حياتهم الدنيا بقوله : ﴿ وابتغ فيما اتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا [1] وهذا ما جعل عبد الله النديم يدعو المسلمين وعلماءهم الى الاشتراك في السياسة ، والخروج من عقلية القرون الوسطى المظلمة ، التي شوهت الدين وأساءت اليه ، من جراء سوء استعماله ، واستغلال نفوذه . واعتبر « أن فريق العلماء احق الناس بالاشتغال بالسياسة والتفنّن بها وخوض بحارها . . . » [2] كونهم احق الناس ايضاً بالمشورة عند الملمات باختصاصاتهم المتنوعة .

اما الموقف الثاني المؤيد للعلمانية ، فقد ظهر عند المجددين من النهضة العربية الحديثة ، في بلاد الشام ومصر خاصة ، نظراً لتأثرهم المباشر بالفكر الغربي ، واطلاعهم على مبادىء الثورة الفرنسية التي قضت برفع الوصاية الدينية ، وفصل سلطة الدين عن سلطة الدولة الزمنية . فطه حسين الذي ادخل مفهوم الجبر الى الفكر الاسلامي ، متأثراً بالفكر الاوروبي عموماً وبفولتير خاصة ، عادى الديانات وحسبها مخالفة للانسانية ، وسبب الاضطهاد وسفك الدماء ، معتبراً انها لا تصلح ان تكون ديناً ودولة . وطالب كفولتير بضرورة تخلص الدولة من « نير السلطان الديني ، وتحررها من ربقة الكهنوت ، لتصبح دولة علمانية » [3] ولهذا انتفض في وجه دستور الدولة المصرية - الاسلام - وأعلن ضرورة فصله عنها ، لأن الدين - حسب رأيه - « يرتبط بالعاطفة والخيال ، وان العلم يرتبط بالعقل والمنطق ، وان الدين جامد ، يعذب الانسان في صراعه ضد غرائزه ورغباته » [4] . علماً بأنه قد تعامل مع طلابه على نقد القرآن بوصفه كتاباً ادبياً . والواقع ان طه حسين كما يقول أنور الجندي مادي ، لا يؤمن بالغيب وما وراء الطبيعة . معجب باطلاق قيود

---

(١) سورة البقرة آية ٢٩ .

(٢) د . فاروق ابو زيد : عصر التنوير العربي . المؤسسة العربية بيروت ١٩٧٨ ص ٧٠ .

(٣) انور الجندي : طه حسين : حياته وفكره في ميزان الاسلام . دار الاعتصام . مطابع الاهرام . القاهرة ١٩٧٦ ص ٤٥ .

(٤) المصدر نفسه ٤٥

الاخلاق ، ومتمرد على العرف الاجتماعي وقيمه الادبية والاجتماعية . فقد أحيا شعر المجون والغزل المذكر ، وحلّل لكل شعر ماجن ، خارج عن الاسلام والمكارم الخلقية ، وكرّم اشخاصهم امثال ابو نواس وبشار والضحاك ، مثيراً في الوقت نفسه فكرة الشك ، وشبهات مغرضة ، تظهر ان الاسلام عمل أدبي صرف ، يمثل نمطين : نمط مكي ونمط مدني [1] .

وإذا كان احمد لطفي السيد لّمح الى رفض فكرة الدولة الاسلامية ، وخاصة في العالم الحديث . فان علي عبد الرزاق جهر بعلمانيته ، وطالب بفصل الدين عن الدولة ، بعد ان مهد لموقفه بحجج مختلفة . ففي البدء شكك بأهمية الخلافة ، وادعى ان القرآن لم ينص على الخلافة ، وانها ليست من اصول الدين الاسلامي ، وان محمداً لم يكن له من وظيفة ، غير وظيفة الدعوة والارشاد[2] . وانه لم يمارس سلطة الدولة السياسية ، زاعماً ان رسالة النبي نبوية « انتهت بموته ، وزالت معها السلطة الخاصة الممنوحة له » [3] .

اما قاسم امين ذو التربية الفرنسية فقد عده هشام شرابي في كتابه « المثقفون العرب والغرب » نموذج المفكر المسلم العلماني ، واول مسلم ايّد التجديد على النسق الغربي في منتصف القرن العشرين[4] . وقد حققت العلمانية ارقى تعبيراتها في كتاباته المتنوعة ، خاصة بعد ان آمن بسلطان العقل وقوة العلم ، واعتبر المعرفة التنويرية ، باب خلاص المجتمعات البشرية . وتطرف كثيراً في تأييده للعلمانية عندما قال : « **لا مدنية ولا تساهل ولا عدل ولا مساواة ولا امن ولا الفة ولا حرية ولا علم ولا فلسفة ولا تقدم الا بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية** » [5] . وهو في مغالاته انطلق من مبدئية تغير المجتمعات وتقنيات العلم الحديث ، التي دحرت سلطات الدين ، وحصرتها في سلطات زمنيّة ، استمدت

---

(١) المصدر نفسه من ١٦٧ الى ١٨٠

(٢) البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ص ٢٢٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٢٩ .

(٤) هشام شرابي : المثقفون العرب والغرب . دار النهار ، بيروت ١٩٧٨ ص ١٠٠ .

(٥) البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ص ٣٠٨ .

قوانينها من رابطة البلاد الوطنية التي تمت بفضل الولاء الوطني والقومي . وقد حدّد فرح انطون نقاطاً هامة لقيام المجتمع الانساني العادل . من اهم هذه النقاط :

- علمانية المجتمع والمساواة التامة بين المواطنين بغض النظر عن التابعية الدينية .
- معارضة التشريع الدنيوي للمفاهيم الدينية التي تتعارض مع منجزات العصر .
- ضعف الدولة الدينية وتعرضها لهزات وازمات مستمرة ، بسبب مشاعر الدين المتضاربة .

وهكذا تتبدى عوامل الغرب العلمانية ، التي تأثر بها كتابنا بعد اطلاعهم على الفكر العلماني واعتباره احد المحولات الأساسية في تمدن الشعور وتقدميتها .

العلمانيّة والاستعمار الغربي :

ان ابتلاء البلاد العربية والاسلامية في تاريخهم المعاصر ، بالاستعمار ، أوقعها في اضطراب فكري وطروح جديدة لم نكن نسمع بها من قبل وخاصة بعد ان استغلّ الاستعمار وحلفاءه تخلّف البلاد التي عصفت بها ازمات حادة ، في السياسة والاجتماع والثقافة والاقتصاد ،ونجح في ان يأتي التحديث في بلادنا على النمط الغربي ، منعزلاً عن اصالة الأمة وتاريخها الحضاري . والواقع ان الاستعمار افترض وجود مثل هذه المشكلة (الصراع) ليطرح حلوله ، ويتدخل في الشؤون الداخلية ، وهذا ليس غريباً عليه ، طالما ان مصالحه المبدئية ، توجب عليه تسهيل كل الصعوبات وتسخير كل الفرضيات من اجل تأمين اغراضه ، على الرغم من تضارب الطروح الجديدة مع مناخات الثقافة العربية والاسلامية ، وخلق قضية طارئة ، لا وجود لها سابقاً ، ولا يزال المجتمع يعاني منها حتى الآن . وقد مارس الاستعمار في البلاد المفتوحة نوعين من العلمانية ، علمانية معتدلة تحترم قيم الشعوب واديانها زارعة في الوقت نفسه بعض الشكوك والشبهات حول الكثير من القضايا الدينية . وعلمانية متطرفة تقضي على روحانية الشرق ، وتمحو الأثر الديني الذي تمايز به على غيره من الامم : خلقاً وعدلاً وخيراً ، كعلمانية تركية الكمالية ، التي الغت الشريعة من مختلف قوانين الدولة ، وحتى من قانون الاحوال الشخصية ، وأوقفت التعليم الديني ، وأدخلت محل ذلك كله القوانين الغربية الجديدة والتعاليم التي

تتوافق مع شعار « التغريب » المادي الذي يجعل البلاد بقرة حلوباً ، يمتص خيرات شعوبها وينهك ثرواتها الاقتصادية ، وهو لذلك يفرض ثقافته ، لأنه يدرك ان استعماراً لا يدوم طويلاً من دون ضمان خلفيّة فكرية وثقافية ، تطالب به . ولهذا شجع الارساليات الاجنبية والبعثات الى الخارج ، واقام المؤسسات التربوية ـ العلمية والتعليمية ـ من اجل ضرب اللغة العربية واستقطاب النشىء الجديد وجذبه الى مبادئه . والواقع ان العلمانية هي نتاج الفكر اليهودي التلمودي ، الذي كان له اثر فعال في الفكر الغربي . وقد تبدى ذلك من خلال نشاط الحركة اليهودية في اوروبة ، تحت اسم « الماسونية » التي تمكنت من تتويج انتصاراتها في اقامة الثورة الفرنسية ، وتحطيم سلطة الكنيسة المسيحية ، واسقاط الدولة العثمانية ، والقضاء على الخلافة الاسلامية وإلغائها ، ويبدو ان اليهود نشطوا في محورين :

المحور الاول : اعتمد على تشجيع نظام الفوائد والقيمة الربوية ، من خلال السيطرة على الحياة الاقتصادية .

المحور الثاني : استند الى القوانين الوضعية التي نسخت الشريعة الربانية ، وابدلتها بشريعة الدولة الحديثة ومفاهيمها المادية الملحدة .

وقد ذكر الدكتور اسماعيل الفاروقي ان توسع اليهود وتحررهم كان نتيجة نمو العلمانية (١) وانتشارها في البلدان ذات الانظمة الرأسمالية او الديمقراطية او الشيوعية .

إذا كانت العلمانية رفعت شعار العلم ونبذ التعصب ، وحيادها حيال الدين ، في بدء دعوتها ، خوفاً من نقمة الجماهير وغضبها ، فان الوعي الفكري والديني سرعان ما وقف امام طروحها ، وأفشل مخططها الرامي الى القضاء على الشعور الديني ، من خلال اقتحام الكنيسة وأحزابها المسيحية ، أبواب العلمانية ، وجعلها حركة رجعية ، مما يستدعي قيام دولة مدنية متدينة تحترم ايمان الانسان وتأخذ بحياته المادية والروحية . وهكذا ظهرت حقيقة القوى التي ايدت العلمانية ، وانكشف دورها المشبوه . ليس فقط بالنسبة الى الغاء دور الدين ، والاستعاضة

(١) انرو الجندي : سقوط العلمانية ص ١٧ .

عنه ، بصيغة علمية ذات منهج غـربي متقن ومترابط ، بـل بـالنسبـة الى التحـديـات الغربية العديدة التي فرضت نفسها في المواجهة اليومية مـع سلوكية الانسـان ، الفرديـة والاجتماعية .

المصادر والمراجع

١ ـ أبحاث مختارة في القومية العربية : ساطع الحصري « ابن خلدون » ـ دار القدس بيروت ١٩٧٩ .

٢ ـ الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث : أنيس المقدسي . دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٧ .

٣ ـ الإتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة : علي المحافظة . دار الاهلية للنشر بيروت ١٩٧٨ .

٤ ـ الإتجاه القومي في الشعر العربي الحديث : عمر الدقاق . دار الشرق . حلب ١٩٦٣ .

٥ ـ الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر : محمد محمد حسين . دار الارتشاف بيروت ١٩٧٠ .

٦ ـ آثار حملة بونابرت على مصر : طلال المهتار . كلية الحقوق الجامعة اللبنانية ١٩٦٢ .

٧ ـ أجنحة المكر الثلاثة : عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني دار العلم بيروت ١٩٨٢ .

أحمد فارس الشدياق : آثاره وعصره : عماد : الصلح ـ دار النهار ١٩٨٠ .

٨ ـ الأدب العربي الحديث : دوافعه وآفاقه : علي شلق دار عويدات بيروت ١٩٦٩ .

٩ ـ الأدب العربي المعاصر في سورية : سامي الكيالي . دار المعارف مصر ١٩٦٨ .
١٠ ـ الأدب العربي المعاصر في مصر : شوقي ضيف . دار المعارف مصر ١٩٧٤ .
١١ ـ آراء وأحاديث في الوطنية والقومية : ساطع الحصري « ابن خلدون » ـ مطبعة الرسالة القاهرة ١٩٤٤ .
١٢ ـ الاستشراق والمستشرقون : مصطفى السباعي ـ المكتب الاسلامي بيروت ١٩٧٩ .
١٣ ـ الاسلام وأصول الحكم : علي عبد الرزاق . القاهرة .
١٤ ـ الإسلام والتمييز العنصري : صلاح الدين الايوبي دار الاندلس بيروت ١٩٧٢ .
١٥ ـ الإسلام والحضارة : انور الجندي ، المكتبة العصرية بيروت .
١٦ ـ الاسلام والحضارة الغربية : د. محمد محمد حسين . مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٢ .
١٧ ـ الإسلام والعروبة والعلمانية : محمد عمارة . دار الوحدة بيروت ١٩٨١ .
١٨ ـ الاسلام والوحدة القومية : محمد عمارة . المؤسسة العربية بيروت ١٩٧٩ .
١٩ ـ الاسلامية والقوى المضادة : نجيب كيلاني . مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٠ .
٢٠ ـ اصول الدين والدولة : نجيب كيلاني ـ دار النفائس بيروت ١٩٨٢ .
٢١ ـ اصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي :محمود فهمي حجازي : الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٤ .
٢٢ ـ إطار إسلامي للفكر المعاصر : أنور الجندي . المكتب الاسلامي بيروت ١٩٨٠ .
٢٣ ـ الأعمال الكاملة . دراسة وتحقيق محمد عمارة : رفاعة رافع الطهطاوي . المؤسسة العربية بيروت ١٩٧٣ .
٢٤ ـ الأعمال الكاملة . قدّم لها محمد عمارة : محمد عبده . المؤسسة العربية بيروت ١٩٧٤ .
٢٥ ـ ألله والعالم والإنسان : دراسة وتحقيق محمد عمارة : جمال الدين الأفغاني المؤسسة العربية بيروت ١٩٧٩ .
٢٦ ـ أم القرى : عبد الرحمن الكواكبي . دار الرائد العربي بيروت ١٩٨٢ .

٢٧ ـ الإنقلاب العثماني : جورجي زيدان ، المكتبة الأدبية بيروت .
٢٨ ـ أوروبة والاسلام : هشام جعيّط . دار الحقيقة بيروت ١٩٨٠ .
٢٩ ـ الإيمان والحياة : يوسف القرضاوي . مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٩ .
٣٠ ـ تاريخ آداب اللغة العربية جرجي زيدان مكتبة الحياة بيروت ١٩٧٨ .
٣١ ـ تاريخ الادب العربي : حنا فاخوري : المطبعة البوليسية بيروت .
٣٢ ـ تاريخ الادب العربي في العصر الحاضر :ابراهيم ابو الخشب - المؤسسة المصرية العامة ١٩٧٨ .
٣٣ ـ التبشير والاستعمار : مصطفى خالدي وعمر فرّوخ . المكتب الاسلامي بيروت ١٩٧٩ .
٣٤ ـ تاريخ التعليم في لبنان : فؤاد افرام البستاني .
٣٥ ـ تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر : عبد الرحمن الرافعي . دار المعارف مصر ١٩٨١ .
٣٦ ـ تاريخ الدولة العلية العثمانية : محمد فريد بك المحامي . تحقيق احسان حقي . دار النفائس بيروت ١٩٨٣ .
٣٧ ـ تاريخ الشرق الاوسط الحديث . نقله الى العربية زهدي جار الله : دزموند ستيورت : دار النهار بيروت ١٩٧٤ .
٣٨ ـ تاريخ الصحافة السورية من الانتداب الفرنسي حتى الاستقلال : شمس الدين الرفاعي : دار المعارف القاهرة ١٩٦٩ .
٣٩ ـ تاريخ الصحافة السورية في العهد العثماني : شمس الدين الرفاعي . دار المعارف القاهرة ١٩٦٩ .
٤٠ ـ تاريخ الصحافة العربية : فيليب دي طرازي . المطبعة الأدبية بيروت ١٩١٤ .
٤١ ـ تاريخ الطباعة في الشرق العربي : خليل صابات دار المعارف مصر ١٩٦٦ .
٤٢ ـ تاريخ عجائب الآثار في التراجم والاخبار : عبد الرحمن الجبرتي . دار الجيل بيروت
٤٣ ـ تاريخ الفكر المصري الحديث : لويس عوض . دار الهلال مصر ١٩٦٩ .

٤٤ ـ تاريخ لبنان الاجتماعي : مسعود ضاهر . دار الفارابي بيروت ١٩٧٤ .
٤٥ ـ تاريخ لبنان الحديث : د. كمال صليبي دار النهار بيروت ١٩٧٨ .
٤٦ ـ تاريخ الموحد للأمة العربية . علي حسين خربوطلي . الهيئة المصرية العامة ١٩٧٠ .
٤٧ ـ تحت راية الاسلام (أحمد الحوفي (أحمد) : دار مطابع الشعب القاهرة ١٩٦٥ .
٤٨ ـ تحديات لها تاريخ : محمد عمارة . المؤسسة العربية بيروت ١٩٨٢ .
٤٩ ـ تطور الفكرة العربية في مصر : ذوقان قرقوط المؤسسة العربية للدراسات بيروت ١٩٧٢ .
٥٠ ـ الثقافة الاسلامية : أحمد محمد جمال . دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٣ .
٥١ ـ الحركة الادبية في دمشق : اسكندر لوقا . دمشق ١٩٧٦ .
٥٢ ـ الحركة الادبية في بلاد الشام خلال القرن الثاني عشر : اسامة عانوتي ـ المكتبة الشرقية بيروت ١٩٧١ .
٥٣ ـ الحركة العربية للنهضة العربية الحديثة : سليمان موسى ـ دار النهار بيروت ١٩٧٧ .
٥٤ ـ حصوننا مهددة من داخلها : محمد محمد حسين . مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٢ .
٥٥ ـ حياته وشعره : معروف الرصافي . المطبعة المصرية ١٩٧١ .
٥٦ ـ خاطرات جمال الدين الافغاني : محمد المخزومي ـ دار الحقيقة بيروت ١٩٨٠ .
٥٧ ـ خطط الشام : محمد كرد علي . مكتبة النوري . دمشق ١٩٨٣ .
٥٨ ـ الدرر : اديب اسحق . دار مارون عبود . بيروت ١٩٧٥ .
٥٩ ـ دمروا العالم أبيدوا اهله : جلال العالم . مؤسسة الرسالة . بيروت ١٩٨٤ .
٦٠ ـ الدين والمجتمع : رؤية مستقبلية : أديب صعب . دار النهار بيروت ١٩٨٣ .
٦١ ـ الرصافي في أوجه وحضيضة : جلال الحنفي مطبعة العاني . بغداد ١٩٦٢ .

٦٢ ـ رواد النهضة الادبية في لبنان الحديث : د . كمال اليازجي بيروت ١٩٦٢ .

٦٣ ـ زعماء الاصلاح في العصر الحديث : أحمد أمين . دار الكتاب العربي . بيروت .

٦٤ ـ سقوط العلمانية : أنور الجندي . دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٣ .

٦٥ ـ شكيب ارسلان داعية العروبة والاسلام : احمد الشرباصي . دار الجيل بيروت ١٩٧٨ .

٦٦ ـ الشوقيات : احمد شوقي .

٦٧ ـ الشيخ ابراهيم الحوراني في فجر النهضة الحديثة : كمال اليازجي . مطبعة الرسالة عابدين ١٩٦٠ .

٦٨ ـ طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد : عبد الرحمن الكواكبي . المطبعة الرحمانية القاهرة .

٦٩ ـ طه حسين : حياته وفكره في ميزان الاسلام : انور الجندي . دار الاعتصام . مطابع الاهرام القاهرة ١٩٧٦ .

٧٠ ـ عبد الله النديم : خطيب الثورة العرابية : نجيب توفيق . مكتبة الكليات الازهرية الأزهر ١٩٧٠ .

٧١ ـ عبد الرحمن الكواكبي : عباس محمود العقاد . المكتبة العصرية بيروت ١٩٨٣ .

٧٢ ـ عبد الرحمن الكواكبي شهيد الحرية ومجدد الاسلام . محمد عمارة . دار الوحدة بيروت ١٩٨٤ .

٧٣ ـ عروبة لبنان : تطورها في القديم الحديث : محمد جميل بيهم . دار الريحاني للطباعة بيروت ١٩٦٩ .

٧٤ ـ العروبة والعلمانية : جوزيف مغيزل : دار النهار بيروت ١٩٨٠ .

٧٥ ـ العروة الوثقى : جمال الدين الافغاني ومحمد عبدة . دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٠ .

٧٦ ـ عصر اسماعيل : عبد الرحمن الرافعي . دار المعارف مصر ١٩٨٢ .

٧٧ ـ عصر التنوير العربي : فاروق ابو زيد . المؤسسة العربية بيروت ١٩٧٨ .

٧٨ ـ عظماء الوطنية في مصر في العصر الحديث : شحاتة عيسى ابراهيم الهيئة المصرية العامة ١٩٧٧ .

٧٩ ـ العلمانية : محمد مهدي شمس الدين . المؤسسة الجامعية بيروت ١٩٨٠ .

٨٠ ـ فصل الدين عن الدولة : اسماعيل الكيلاني . المكتب الاسلامي بيروت ١٩٨٠ .

٨١ ـ الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسورية ومصر : ز . ك ليفين . ترجمة بشير السباعي دار ابن خلدون بيروت ١٩٧٨ .

٨٢ ـ الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي : محمد البهي . مكتبة وهبة القاهرة ١٩٧٥ .

٨٣ ـ الفكر العربي الحديث : رئيف خوري . دار المكشوف بيروت ١٩٧٣ .

٨٤ ـ الفكر العربي في العصر الحديث : منير موسى دار الحقيقة بيروت ١٩٧٣ .

٨٥ ـ الفكر العربي في عصر النهضة : البرت حوراني . دار النهار بيروت ١٩٧٧ .

٨٦ ـ في الادب الجاهلي : طه حسين . دار المعارف ١٩٦٨ .

٨٧ ـ في الادب الحديث : عمر الدسوقي . مطبعة الرسالة عابدين ١٩٦٤ .

٨٨ ـ في السياسة الاسلامية وظهور الدولة : هادي العلوي . الدار التونسية للنشر .

٨٩ ـ القرآن والدولة : محمد احمد خلف الله . المؤسسة العربية بيروت ١٩٧٣ .

٩٠ ـ القرآن والملحدون : محمد عزة دروزة.المكتب الاسلامي بيروت ١٩٧٣ .

٩١ ـ قضايا العصر ومشكلات الفكر : انور الجندي.مؤسسة الرسالة . بيروت ١٩٨٤ .

٩٢ ـ الكتابات السياسية ـ دراسة وتحقيق محمد عمارة : جمال الدين الافغاني المؤسسة العربية بيروت ١٩٨١ .

٩٣ ـ الكتابات السياسية والاجتماعية جمعها وقدّم لها ناجي علوش : اديب اسحق دار الطليعة بيروت ١٩٧٨ .

٩٤ ـ الكتابة في الزمن المتغيّر : ابراهيم العريس . دار الطليعة بيروت ١٩٧٩ .

٩٥ ـ لبنان في التاريخ : فيليب حتي . مؤسسة فرنكلني ١٩٥٩ .

٩٦ ـ لبنان والنهضة العربية الحديثة : جبران مسعود . بيت الحكمة بيروت ١٩٦٧ .

٩٧ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : ابو الحسن الندوي . دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٤ .

٩٨ ـ المثقفون العرب والغرب : هشام شرابي . دار النهار بيروت ١٩٧٨ .

٩٩ ـ المختارات : صبحي الاعشى . وزارة الثقافة . دمشق ١٩٨٢ .

١٠٠ ـ مختارات سياسية في مجلة المنار . تقديم ودراسة وجيه كوثراني . رشيد رضا دار الطليعة بيروت ١٩٨٧ .

١٠١ ـ مذاهب الأدب : د. ياسين الايوبي طرابلس .

١٠٢ ـ مسلمون ثوار : محمد عمارة . المؤسسة العربية بيروت ١٩٧٤ .

١٠٣ ـ مشكلة الحرية : زكريا ابراهيم . دار مصر للطباعة ١٩٧١ .

١٠٤ ـ معروف الرصافي : حياته وشعره : الخطاط والسحرتي والخفاجي . الهيئة المصرية العامة . القاهرة ١٩٧١ .

١٠٥ ـ المعلم بطرس البستاني دراسة ووثائق : جان داية . منشورات مجلة فكر . بيروت ١٩٧٧ .

١٠٦ ـ مقالة في العروبة والاسلام : اسماعيل العرفي . دار الفكر بيروت ١٩٨٠ .

١٠٧ ـ نشأة الحركة العربية الحديثة : محمد عزة دروزة . المكتبة العصرية بيروت ١٩٧١ .

١٠٨ ـ نشأة النقد الادبي الحديث في مصر : عز الدين الامين. المعارف ١٩٧٠ .

١٠٩ ـ نشوء القومية العربية : زين نور الدين زين . دار النهار بيروت ١٩٧٩ .

١١٠ ـ نصوص مختارة من النثر العربي الحديث : عبد الكريم الاشتر. دار الفكر بيروت .

١١١ ـ نظرة جديدة الى التراث : محمد عمارة . المؤسسة العربية بيروت ١٩٧٩ .

١١٢ ـ النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث: غالي شكري. دار الطليعة بيروت ١٩٧٨ .

١١٣ ـ الوحدة الاسلامية : محمد ابو زهرة . الرائد العربي بيروت .

١١٤ ـ الوعي القومي : قسطنطين زريق . دار المكشوف بيروت ١٩٤٠ .

١١٥ ـ يقظة العرب . ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس : جورج انطونيوس دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٢ .

١١٦ ـ اليقظة القومية الكبرى : د . حسن صبحي . مكتبة الجامعة العربية . بيروت ١٩٦٦ .

فهرس الاعلام

(أ)

. . . .

(ب)

(ت)

(ج)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ق)

(ك)

(ل)

(ن)

(هـ)

(و)

(لا)

فهرس الموضوعات